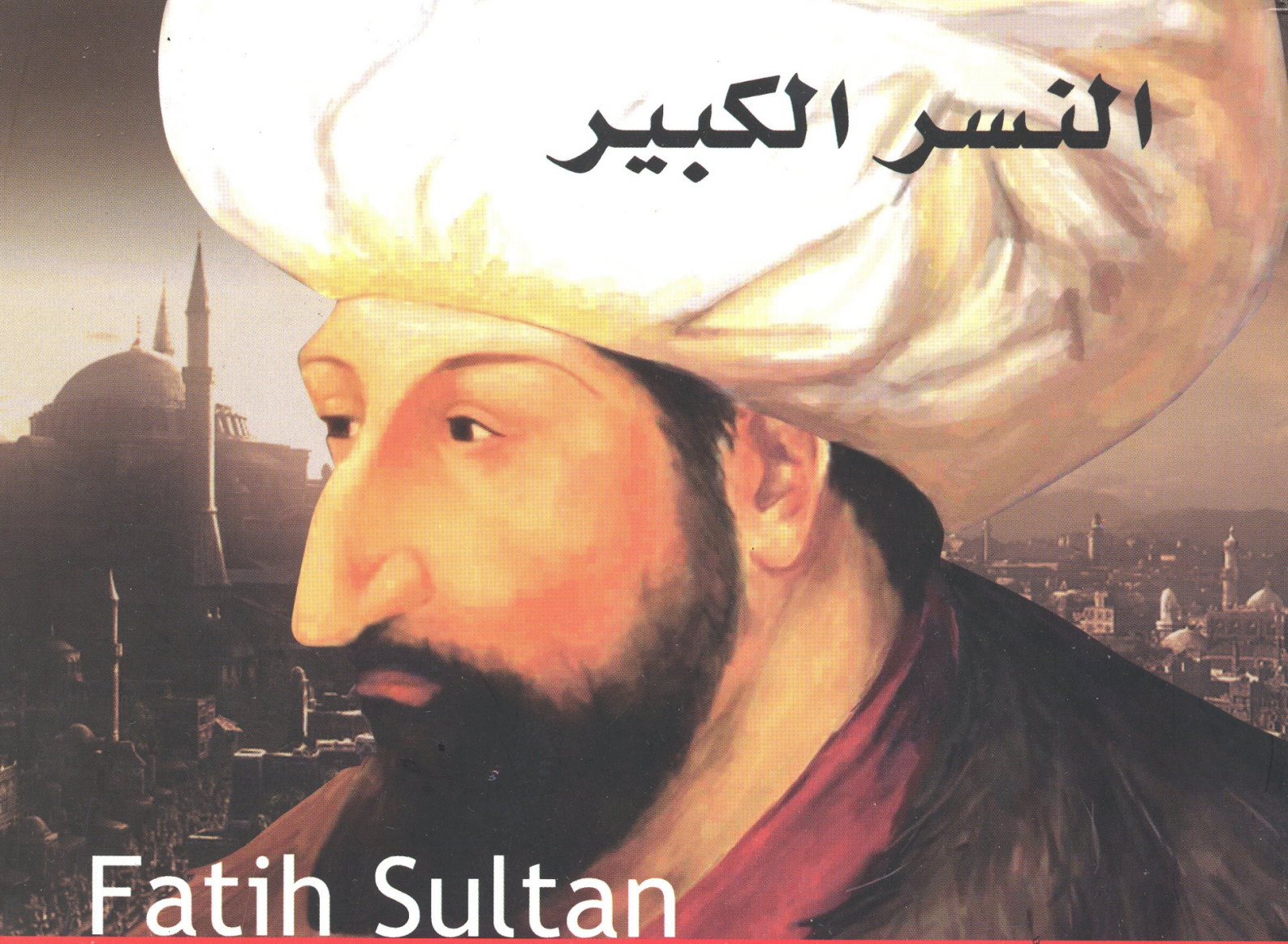

النسر الكبير

Fatih Sultan

(لتفتحنَّ القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش)

صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم

مكتبتنا
كنوز من المعرفة

محمد الفاتح

صاحب البشارة النبوية

قاهر الروم وفاتح القسطنطينية

وكيف قتله طبيبه الخائن يعقوب؟!

رمزي المنياوي

Ahmed Mady

158

دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة

http://www.maktbtna2211.com/

■ في سجلات تاريخنا الإسلامي صفحات خالدة ينبغي أن نَشدَّ إليها الرحال بالعيون والعقول والقلوب، كلما أردنا أن نستلهم من العظماء الذين سبقونا الدروس والعبر، أو أردنا أن نفجر الطاقات والهمم. وربما قَلَّ أن نجد في صفحات تاريخنا الإسلامي شخصية عظيمة صنعت تاريخا عظيما مثلما عليه الحال بالنسبة لسلطان شاب لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره، يتقدم الصفوف لكي يحقق البشارة النبوية، بفتح القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، بعد أن استعصى فتحها على الأمة ٨٠٠ سنة بُذلت فيها ١١ محاولة، لم يكتب لها النجاح، حتى جاء هو وجعل الحُلم حقيقةً.

هذا الشاب المسلم الخالد الذكر هو السلطان العثماني محمد الثاني الملقب بـ (محمد الفاتح) محقق البشارة النبوية، الذي ربما لا يعرفه أبناء هذا الجيل، والذي -ربما لهذا السبب- قررنا إعداد هذا الكتاب عنه، لكي يكون دليلا لشباب أمتنا، وإحياء لذكرى رجل أفنى عمره قليل الأعوام، في خدمة الإسلام والمسلمين، ودفع في النهاية حياته ثمنا لقيادته أمته لنصر عظيم، استطاع من خلاله أن يحصل على شرف تحقيق البشارة النبوية، وياله من شرف ما بعده شرف. وكما سنرى في هذا الكتاب، لم يكن محمد الفاتح مجرد قائد عسكري، بل كان له مشروع حضاري كبير، لنقل دولته المسلمة إلى مصاف كبريات الإمبراطوريات الأوربية في عصره، من خلال إنجازات حضارية وعمرانية، فكان شديد الاهتمام بالمدارس والمعاهد العلمية، ونشر العلوم في كافة أرجاء الدولة المترامية الأطراف، وأنشأ المكتبات الكبيرة، ووضع لها نظاماً دقيقاً ينم عن عقلية علمية تسبق زمانها، وكان محباً للعلماء يحرص على إحضارهم لبلاطه والاستفادة من علومهم، وهو مع ذلك مهتم بالشعراء والأدباء والترجمة، وبنى المستشفيات والقصور والمساجد والأسواق الكبيرة، واهتم بتنظيم التجارة والصناعة، وأنشأ نظاماً دقيقاً للإدارة خاصة بالجيش والبحرية، ونظم القضاء وجعله مستقلاً وشدد على حرمة القضاء وإقرار العدل والمساواة. وفي هذا الكتاب سنتناول شخصية الفاتح من كل جوانبها: طفولته ونشأته، والعوامل التي ساهمت في تشكيل هذه الشخصية، وكيف نما داخله ومنذ صغره حلم تحقيق البشارة، وكيف أعد نفسه لبلوغ هذا الحلم، وكيف أظهر تسامح المنتصر المسلم مع المسيحيين واليهود بعد أن استتب له الأمر، وقدم نموذجا لأخلاق المسلم، وعظمة الإسلام. كما سنطالع في الكتاب كيف واصل الفاتح بعد القسطنطينية فتوحاته في أوربا، وكيف قدم صورة رائعة عن دينه، أغرت أوربيين كثيرين باعتناق الإسلام، وإليه يعود الكثير من الفضل لانتشار هذا الدين الحنيف في هذه القارة. وفي الكتاب أيضا مواقف وآراء وأقوال للفاتح كلها تجسد عظمة الرجل بما يجمعه في شخصيته من خصال متفردة قلما توجد مجتمعة في رجل واحد من عظماء التاريخ.

W.Salama 010 15 17 873

I.S.B.N. 978-977-376-570-8
9 789773 765705
دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة

Friday
16-12-2011
Riyadh
23
مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE

محمد الفاتح

" لتُفْتَحَنَّ القسطنطينيةُ، فلنعمَ الأميرُ أميرُها،

ولنعم الجيش ذلك الجيش" .. صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم

" النسر الكبير" فاتح القسطنطينية ومحقق

البشارة النبوية

وكيف قتله بالسم طبيبه الخائن يعقوب !!

◆

رمزي المنياوي

◆

الناشر

دار الكتاب العربي

دمشق - القاهرة

٢٠١١

تقديم

في سجلات تاريخنا الإسلامي صفحات خالدة ينبغي أن نَشدَّ إليها الرحال بالعيون والعقول والقلوب ، كلما أردنا أن نستلهم من العظماء الذين سبقونا الدروس والعبر، أو أردنا أن نفجر الطاقات والهمم .

وربما قَلَّ أن نجد في صفحات تاريخنا الإسلامي شخصية عظيمة صنعت تاريخًا عظيمًا مثلما عليه الحال بالنسبة لسلطان شاب لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره ، يتقدم الصفوف لكي يحقق البشارة النبوية، بفتح القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، بعد أن استعصى فتحها على الأمة ٨٠٠ سنة بُذلت فيها ١١ محاولة، لم يكتب لها النجاح، حتى جاء هو وجعل الحلم حقيقة.

هذا الشاب المسلم الخالد الذكر هو السلطان العثماني محمد الثاني الملقب بـ "محمد الفاتح " محقق البشارة النبوية، الذي ربما لا يعرفه أبناء هذا الجيل ، والذي ربما لهذا السبب قررنا إعداد هذا الكتاب عنه ، لكي يكون دليلا لشباب أمتنا، وإحياءً لذكرى رجل أفنى عمره ، في خدمة الإسلام والمسلمين، ودفع في النهاية حياته ثمنا لقيادة أمته لنصر عظيم، استطاع من خلاله أن يحصل على شرف تحقيق البشارة النبوية، وياله من شرف ما بعده شرف.

وكما سنرى في هذا الكتاب، لم يكن محمد الفاتح مجرد قائد عسكري،

بل كان له مشروع حضاري كبير، لنقل دولته المسلمة إلى مصاف كبريات الإمبراطوريات الأوربية في عصره، من خلال إنجازات حضارية وعمرانية، فكان شديد الاهتمام بالمدارس والمعاهد العلمية ، ونشر العلوم في جميع أرجاء الدولة المترامية الأطراف، وأنشأ المكتبات الكبيرة ، ووضع لها نظامًا دقيقًا ينم عن عقلية علمية تسبق زمانها، وكان محبّاً للعلماء يحرص على إحضارهم لبلاطه والاستفادة من علومهم، وهو مع ذلك مهتم بالشعراء والأدباء والترجمة، وبنى المستشفيات والقصور والمساجد والأسواق الكبيرة، واهتم بتنظيم التجارة والصناعة، وأنشأ نظامًا دقيقًا للإدارة خاصة بالجيش والبحرية، ونظم القضاء وجعله مستقلا وشدد على حرمة القضاة وإقرار العدل والمساواة.

وفي الكتاب سنتناول شخصية الفاتح من كل جوانبها ، وطفولته ونشأته، والعوامل التي ساهمت في تشكيل هذه الشخصية ، وكيف نما داخله-ومنذ صغره- حُلم تحقيق البشارة ، وكيف أعد نفسه لبلوغ هذا الحلم، وكيف أظهر تسامح المنتصر المسلم مع المسيحيين واليهود بعد أن استتب له الأمر، وقدم نموذجا لأخلاق المسلم، وعظمة الإسلام.

كما سنطالع في الكتاب كيف واصل الفاتح بعد القسطنطينية فتوحاته في أوربا، وكيف قدم صورة رائعة عن دينه، أغرت أوربيين كثيرين باعتناق الإسلام، وإليه يعود الكثير من الفضل لانتشار هذا الدين الحنيف في هذه القارة.

وفي الكتاب أيضا مواقف وآراء وأقوال للفاتح كلها تجسد عظمة الرجل بما يجمعه في شخصيته من خصال متفردة قلما توجد مجتمعة في رجل واحد من عظماء التاريخ .

رمزي المنياوي

من عثمان بن أرطغرل حتى محمد الفاتح..

ربما لا توجد فى تاريخ العالم دولة تحتل مثل هذه المساحة الهائلة التى تحتلها الدولة العثمانية خاصة فى التاريخ الإسلامى والأوربى والعربى. ولا يمكن لأى مؤرخ يتعرض لأحداث جسام شهدها العالم إلا وتناول الدور الذى لعبته دولة الخلافة العثمانية فى مجرياتها، فمنذ اللحظة التى أسس فيها العثمانيون دولتهم تغير مع مولد الدولة تاريخ العالم وجغرافيته، بل لا يمكن لأحد أن ينكر أن آل عثمان الأتراك عندما أقاموا دولتهم فإنما كانوا بذلك -عمليا - يغيرون مجرى التاريخ.

ورغم أن حكام دولة آل عثمان قد أدوا خدمات جليلة للإسلام والمسلمين، إلا أن حلم فتح القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية ظل يراودهم منذ اللحظة الأولى لإعلان دولتهم، وراح كل منهم -حتى مجىء محمد الفاتح -يسعى لنيل هذا الشرف العظيم، وتحقيق البشارة النبوية، بعد محاولات فاشلة كثيرة للعرب المسلمين لتحقيقها فيما بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم.

ومن المهم فى البداية أن نتوقف عند الدولة العثمانية، الظروف التى ولدت فيها، وكيفية تأسيسها، وتوطيد دعائمها، مروراً بأبرز الأحداث التى صاحبتها، وأهم الحكام الذين تناوبوا على حكمها، حتى مجىء أشهرهم وأعظمهم وأبقاهم ذكراً وأكثرهم تأثيراً فى مجرى التاريخ، السلطان محمد الثانى، الملقب بـ "محمد الفاتح".

فى منطقة ماوراء النهر والتى نسميها اليوم تركستان والتى تمتد من

هضبة منغوليا وشمال الصين شرقاً إلى بحر الخزر وبحر قزوين غربًا. ومن السهول السيبرية شمالاً إلى شبه القارة الهندية وفارس جنوباً، استوطنت عشائر الغز وقبائلها الكبرى تلك المناطق وعرفوا بالترك أو الأتراك.

ثم تحركت هذه القبائل فى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى، عبر الانتقال من موطنها الأصلى نحو آسيا الصغرى فى هجرات ضخمة.

وذكر المؤرخون مجموعة من الأسباب التى ساهمت فى هجرتهم؛ فالبعض يرى أن ذلك بسبب عوامل اقتصادية، فالجدب الشديد وكثرة النسل، جعلت هذه القبائل تضيق ذرعاً بمواطنها الأصلية، فهاجرت بحثاً عن الكلأ والمراعى والعيش الرغيد.

والبعض الآخر يعزو تلك الهجرات لأسباب سياسية حيث تعرضت تلك القبائل لضغوط كبيرة من قبائل أخرى أكثر منها عددًا وعدة وقوة وهى المغولية، فأجبرتها على الرحيل، لتبحث عن موطن آخر وتترك أراضيها بحثاً عن نعمة الأمن والاستقرار.

واضطرت تلك القبائل المهاجرة أن تتجه غربًا، ونزلت بالقرب من شواطئ نهر جيحون، ثم استقرت بعض الوقت فى طبرستان، وجرجان، فأصبحوا بالقرب من الأراضى الإسلامية والتى فتحها المسلمون بعد معركة "نهاوند" وسقوط الدولة الساسانية فى بلاد فارس سنة ٢١هـ-٦٤١م.

وفى عام ٢٢هـ-٦٤٢م تحركت الجيوش الإسلامية إلى بلاد الباب لفتحها وكانت تلك الأراضى يسكنها الأتراك، وهناك التقى قائد الجيش الإسلامى عبدالرحمن بن ربيعة بملك الترك شهربراز، فطلب من عبدالرحمن الصلح وأظهر استعداده للمشاركة فى الجيش الإسلامى لمحاربة الأرمن، فأرسله عبدالرحمن إلى القائد العام سراقة بن عمرو.

وقد قام شهر براز بمقابلة سراقة فقبل منه ذلك، وكتب للخليفة عمر بن الخطاب يعلمه بالأمر، فوافق على مافعل، وعلى إثر ذلك عقد الصلح، ولم

يقع بين الأترك والمسلمين أى قتال، بل سار الجميع إلى بلاد الأرمن لفتحها ونشر الإسلام فيها.

وتقدمت الجيوش الإسلامية لفتح البلدان فى شمال شرق بلاد فارس حتى تنتشر دعوة الله فيها، بعد سقوط دولة الفرس أمام الجيوش الإسلامية، والتى كانت تقف حاجزًا منيعًا أمام الجيوش الإسلامية فى تلك البلدان.

وبزوال تلك العوائق، ونتيجة للفتوحات الإسلامية، أصبح الباب مفتوحًا أمام تحركات شعوب تلك البلدان والأقاليم ومنهم الأتراك فتم الاتصال بالشعوب الإسلامية، واعتنق الأتراك الإسلام، وانضموا إلى صفوف المجاهدين لنشر الإسلام وإعلاء كلمة الله.

وفى عهد الخليفة عثمان بن عفان، رضى الله عنه، تم فتح بلاد طبرستان، ثم عبر المسلمون نهر "جيحون" سنة ٣١هـ، ونزلوا بلاد ماوراء النهر، فدخل كثير من الترك فى دين الإسلام، وأصبحوا من المدافعين عنه والمشتركين فى الجهاد لنشر دعوة الله بين العالمين.

وواصلت الجيوش الإسلامية تقدمها فى تلك الأقاليم فتم فتح بلاد بخارى فى عهد معاوية بن أبى سفيان، رضى الله عنه، وتوغلت تلك الجيوش حتى وصلت سمرقند.

وفى عهد الدولة الإسلامية صارت بلاد ماوراء النهر جميعها تحت الحكم الإسلامى وعاشت تلك الشعوب حضارة إسلامية عريقة.

وازداد عدد الأتراك فى بلاط الخلفاء والأمراء العباسيين، وشرعوا فى تولى المناصب القيادية والإدارية فى الدولة، فكان منهم الجند والقادة والكتاب. وقد التزموا الولاء والانضباط والطاعة حتى نالوا أعلى المراتب.

ولما تولى المعتصم العباسى الخلافة فتح الأبواب أمام النفوذ التركى وأسند إليهم مناصب الدولة القيادية، وأصبحوا بذلك يشاركون فى تصريف

شؤون الدولة، وكانت سياسة المعتصم تهدف إلى تقليص النفوذ الفارسى، الذى كان له اليد المطلقة فى إدارة الدولة العباسية منذ عهد الخليفة المأمون.

وقد أحدث اهتمام المعتصم بالعنصر التركى حالة سخط شديدة بين الناس والجند، فخشى المعتصم من نقمة الناس عليه، فأسس مدينة جديدة هى "سامراء" تبعد عن بغداد حوالى ١٢٥كم وسكنها هو وجنده وأنصاره.

وهكذا بدأ الأتراك - منذ ذلك التاريخ - فى الظهور فى أدوار هامة على مسرح التاريخ الإسلامى، حتى أسسوا لهم دولة إسلامية كبيرة، كانت على صلة قوية بخلفاء الدولة العباسية عرفت بالدولة السلجوقية.

وكان لظهور السلاجقة على مسرح الأحداث فى المشرق العربى الإسلامى، أثر كبير فى تغير الأوضاع السياسية فى تلك المنطقة، التى كانت تتنازعها الخلافة العباسية السنيّة من جهة، والخلافة الفاطمية الشيعية من جهة ثانية.

وقد أسس السلاجقة دولة تركية كبرى ظهرت فى القرن الخامس للهجرة الحادى عشر الميلادى، لتشمل خراسان وماوراء النهر وإيران والعراق وبلاد الشام وآسيا الصغرى.

وكانت الرى فى إيران ثم بغداد فى العراق مقر السلطنة السلجوقية، بينما قامت دويلات سلجوقية فى خراسان وما وراء النهر كرمان، وبلاد الشام سلاجقة الشام، وآسيا الصغرى سلاجقة الروم، وكانت تتبع السلطان السلجوقى فى إيران والعراق.

وقد ساند السلاجقة الخلافة العباسية فى بغداد ونصروا مذهبها السنّى بعد أن أوشكت على الانهيار بين النفوذ البويهى الشيعى فى إيران والعراق، والنفوذ العبيدى الفاطمى فى مصر والشام. فقضى السلاجقة على النفوذ البويهى تمامًا وتصدوا للخلافة العبيدية الفاطمية.

وقد استطاع طغرل بك الزعيم السلجوقى أن يسقط الدولة البويهية فى عام ٤٤٧هـ فى بغداد وأن يقضى على الفتن وأزال من على أبواب المساجد سب الصحابة، وقتل شيخ الروافض أبا عبدالله الجلاب لغلوه فى الرفض.

كان النفوذ البويهى الشيعى مسيطرًا على بغداد والخليفة العباسى، فبعد أن أزال السلاجقة الدولة البويهية من بغداد ودخل سلطانهم طغرل بك إلى عاصمة الخلافة العباسية استقبله الخليفة العباسى القائم بأمر الله استقبالاً عظيماً، وخلع عليه خلعة سنية، وأجلسه إلى جواره، وأغدق عليه ألقاب التعظيم، ومن جملتها أنه لقبه بالسلطان ركن الدين طغرل بك.

كما أصدر الخليفة العباسى أمره بأن ينقش اسم السلطان طغرل بك على العملة، ويذكر اسمه فى الخطبة فى مساجد بغداد وغيرها، مما زاد من شأن السلاجقة. ومنذ ذلك الحين حل السلاجقة محل البويهيين فى السيطرة على الأمر فى بغداد، وتسيير الخليفة العباسى حسب إرادتهم.

كان طغرل بك يتمتع بشخصية قوية، وذكاء حاد، وشجاعة فائقة، كما كان متدينًا ورعًا عادلاً، ولذلك وجد تأييدًا كبيرًا ومناصرة عظيمة من شعبه، وقد أعد جيشًا قويّاً، وسعى لتوحيد كلمة السلاجقة الأتراك فى دولة قوية.

وتوطيدًا للروابط بين الخليفة العباسى القائم بأمر الله، وبين زعيم الدولة السلجوقية طغرل بك، تزوج الخليفة من ابنة جفرى بك الأخ الأكبر لطغرل بك.

ثم تزوج طغرل بك من ابنة الخليفة العباسى القائم بالله. لكن طغرل بك لم يعش طويلاً بعد ذلك، حيث إنه توفى عام ٤٥٥هـ/ ١٠٦٢م، وكان عمره إذ ذاك سبعين عامًا، بعد أن تمت على يده الغلبة للسلاجقة فى مناطق خراسان وإيران وشمال وشرق العراق.

ثم تولى ألب أرسلان زمام السلطة فى البلاد بعد وفاة عمه طغرل بك،

وكانت قد حدثت بعض المنازعات حول تولى السلطة فى البلاد، لكن ألب أرسلان استطاع أن يتغلب عليها.

وكان ألب أرسلان -كعمه طغرل بك- قائدًا ماهرًا مقدامًا، وقد اتخذ سياسة خاصة تعتمد على تثبيت أركان حكمه فى البلاد الخاضعة لنفوذ السلاجقة، قبل التطلع إلى إخضاع أقاليم جديدة، وضمها إلى دولته.

كما كان متلهفًا للجهاد فى سبيل الله، ونشر دعوة الإسلام فى داخل الدولة المسيحية المجاورة له، كبلاد الأرمن وبلاد الروم، وكانت روح الجهاد الإسلامى هى المحركة لحركات الفتوحات التى قام بها ألب أرسلان وأكسبتها صبغة دينية، وأصبح قائد السلاجقة زعيمًا للجهاد، وحريصًا على نصرة الإسلام ونشره فى تلك الديار، ورفع راية الإسلام خفاقة على مناطق كثيرة من أراضى الدولة البيزنطية. وقد بقى سبع سنوات يتفقد أجزاء دولته المترامية الأطراف، قبل أن يقوم بأى توسع خارجى.

وعندما اطمأن على استتباب الأمن، وتمكن حكم السلاجقة فى جميع الأقاليم والبلدان الخاضعة له، أخذ يخطط لتحقيق أهدافه البعيدة، وهى فتح البلاد المسيحية المجاورة لدولته، وإسقاط الخلافة الفاطمية العبيدية فى مصر، وتوحيد العالم الاسلامى تحت راية الخلافة العباسية السنيّة ونفوذ السلاجقة، فأعد جيشًا كبيرًا اتجه به نحو بلاد الأرمن وجورجيا، فافتتحها وضمها إلى مملكته.

كما عمل على نشر الإسلام فى تلك المناطق. وأغار ألب أرسلان على شمال الشام وحاصر الدولة المرداسية فى حلب، والتى أسسها صالح بن مرداس على المذهب الشيعى سنة ٤١٤هـ-١٠٢٣/م وأجبر أميرها محمود بن صالح بن مرداس على إقامة الدعوة للخليفة العباسى بدلاً من الخليفة الفاطمى سنة ٤٦٢هـ-١٠٧٠/م.

ثم أرسل قائده التركى أتتسز بن أوق الخوارزمى فى حملة إلى جنوب الشام فانتزع الرملة وبيت المقدس من يد الفاطميين العبيديين.

ولم يستطع الاستيلاء على عسقلان التى تعتبر بوابة الدخول إلى مصر، وبذلك أضحى السلاجقة على مقربة من قاعدة الخليفة العباسى والسلطان السلجوقى داخل بيت المقدس.

وفى سنة ٤٦٢هـ، ورد رسول صاحب مكة محمد بن أبى هاشم إلى السلطان يخبره بإقامة الخطبة للخليفة القائم وللسلطان وإسقاط خطبة صاحب مصر العبيدى وترك الأذان بـ " حى على خير العمل " فأعطاه السطان ثلاثين ألف دينار وقال له : إذا فعل أمير المدينة كذلك أعطيناه عشرين ألف دينار.

وقد أغضبت فتوحات ألب أرسلان أرمانوس ديوجينس إمبراطور الروم، فصمم على القيام بحركة مضادة للدفاع عن إمبراطوريته.

ودخلت قواته فى مناوشات ومعارك عديدة مع قوات السلاجقة، وكان أهمها معركة ملاذكرد فى عام ٤٦٣هـ الموافق أغسطس عام ١٠٧٠م.

وقال ابن كثير عن هذه المعركة : وفيها أقبل ملك الروم أرمانوس فى، جحافل أمثال الجبال من الروم والرخ والفرنج، وعدد عظيم وعُدد، ومعه عدد كبير من البطارقة، مع كل بطريق مائة فارس، ومعه من الفرنج خمسة وثلاثون ألفًا، ومن الغزاة الذين يسكنون القسطنطينية خمسة عشر ألفًا، ومعه مائة ألف نقّاب وحفار، وألف روزجارى، ومعه أربعمائة عجلة تحمل النعال والمسامير، وألفا عجلة تحمل السلاح والسروج والعرادات والمناجيق، منها منجنيق عدته ألف ومائتا رجل، ومن عزمه قبحه الله أن يبيد الاسلام وأهله، وقد أقطع بطارقته البلاد حتى بغداد، واستوصى نائبها بالخليفة خيرًا، فقال له : ارفق بذلك الشيخ فإنه صاحبنا، ثم إذا استوثقت ممالك العراق وخراسان لهم مالوا على الشام وأهله ميلة واحدة، فاستعادوه من أيدى المسلمين، والقدر يقول : ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ سورة الحجر: الآية : ٧٢ . فالتقاه السلطان ألب أرسلان فى جيشه وهم قريب من

عشرين ألفًا، بمكان يقال له الزهوة، فى يوم الأربعاء لخمس بقين من ذى القعدة، وخاف السلطان من كثرة جند الروم، فأشار عليه الفقيه أبونصر محمد بن عبدالملك البخارى بأن يكون وقت الوقعة يوم الجمعة بعد الزوال حين يكون الخطباء يدعون للمجاهدين، فلما كان ذلك الوقت وتواقف الفريقان وتواجه الفئتان، نزل السطان عن فرسه وسجد لله عز وجل، ومرغ وجهه فى التراب ودعا الله واستنصره، فأنزل نصره على المسلمين ومنحهم أكتافهم فقتلوا منهم خلقًا كثيرًا، وأسر ملكهم أرمانوس، أسره غلام رومى، فلما أوقف بين يدى الملك ألب أرسلان ضربه بيده ثلاثة مقارع وقال : لو كُنت أنا الأسير بين يديك ماكنت تفعل؟ قال : كل قبيح، قال فما ظنك بى؟ فقال: إما أن تقتل وتشهرنى فى بلادك، وإما أن تعفو وتأخذ الفداء وتعيدنى. قال : ماعزمت على غير العفو والفداء. فافتدى منه بألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار. فقام بين يدى الملك وسقاه شربة من ماء وقبل الأرض بين يديه، وقبل الأرض إلى جهة الخليفة إجلالاً وإكرامًا، وأطلق له الملك عشرة آلاف دينار ليتجهز بها، وأطلق معه جماعة من البطارقة وشيعه فرسخًا، وأرسل معه جيشًا يحفظونه إلى بلاده، ومعهم راية مكتوب عليها لا إله إلا الله محمد رسول الله.

كان نصر ألب أرسلان بجيشه الذى لم يتجاوز العشرين ألف محارب على جيش الإمبراطور أرمانوس الذى بلغ مائتى ألف، حدثًا كبيرًا، ونقطة تحول فى التاريخ الإسلامى لأنها سهلت على إضعاف نفوذ الروم فى معظم أقاليم آسيا الصغرى، وهى المناطق المهمة التى كانت من ركائز وأعمدة الإمبراطورية البيزنطية. وقد ساعد هذا - تدريجيًا -فى القضاء على الدولة البيزنطية على يد العثمانيين.

كان ألب أرسلان رجلاً صالحاً أخذ بأسباب النصر المعنوية والمادية، فكان يقرب العلماء ويأخذ بنصحهم وما أروع نصيحة العالم الربانى أبى نصر محمد بن عبد الملك البخارى الحنفى، فى معركة ملاذكرد عندما

قال للسلطان ألب أرسلان: إنك تقاتل عن دين وعد الله بنصره وإظهاره على سائر الأديان. وأرجو أن يكون الله قد كتب باسمك هذا الفتح فالقهم يوم الجمعة فى الساعة التى يكون الخطباء على المنابر، فإنهم يدعون للمجاهدين.

فلما كان تلك الساعة صلى بهم، وبكى السلطان، فبكى الناس لبكائه، ودعا فأمنوا، فقال : لهم من أراد الانصراف فلينصرف، فما ههُنا سلطان يأمر ولا ينهى. وألقى القوس والنشاب، وأخذ السيف، وعقد ذنب فرسه بيده، وفعل عسكره مثله، ولبس البياض وتحنط وقال: إن قتلت فهذا كفنى، الله أكبر على مثل هؤلاء ينزل نصر الله.

وقتل هذا السلطان على يد أحد الثائرين واسمه يوسف الخوارزمى وذلك يوم العاشر من ربيع الأول عام ٤٦٥هـ الموافق ١٠٧٢م ودفن فى مدينة مرو بجوار قبر أبيه فخلفه ابنه "ملكشاه".

كان السلطان ألب أرسلان رحيم القلب، رفيقًا بالفقراء وكثير الدعاء بدوام ما أنعم الله عليه، اجتاز يوماً بمرو على فقراء الخراسيين، فبكى، وسأل الله تعالى أن يغنيه من فضله وكان يكثر الصدقة، فيتصدق فى رمضان بخمسة عشر ألف دينار، وكان فى ديوانه أسماء خلق كثير من الفقراء فى جميع ممالكه، عليهم الإدرارات والصلات، ولم يكن فى جميع بلاده جناية ولا مصادرة، قد قنع من الرعايا بالخراج الأصلى يؤخذ منهم كل سنة دفعتين رفقًا بهم.

وكان كثيرًا مايُقرأ عليه تواريخ الملوك وآدابهم، وأحكام الشريعة، ولمّا اشتهر بين الملوك حُسن سيرته، ومحافظته على عهوده، أذعنوا له بالطاعة والموافقة بعد الامتناع

تولى السلطنة بعد ألب أرسلان ابنه ملكشاه وعارضه عمه قاورد بن جفرى حاكم سلاجقة كرمان وطالب بالسلطنة ووقع الصدام بينهما قرب

همذان، حيث انهزم قاورد وقتل وبذلك سيطر ملكشاه على دولة سلاجقة كرمان وعين عليها سلطان شاه بن ألب أرسلان سنة ٤٦٥هـ١٠٧٣/م.

واتسعت الدولة السلجوقية فى عهد السلطان ملكشاه لتبلغ أقصى امتداد لها من أفغانستان شرقًا إلى آسيا الصغرى غربًا وبلاد الشام جنوبًا، وذلك بعد أن سقطت دمشق على يد قائده أتسز سنة ٤٦٨هـ١٠٧٥/م، وأقيمت الدعوة للخليفة العباسى.

وأسند ملكشاه المناطق التى سيطر عليها فى بلاد الشام، لأخيه تاج الدولة تتمش سنة ٤٧٠هـ١٠٧٧/م، وذلك من أجل متابعة الفتح. فأسس هذا الأخير دولة سلاجقة الشام.

كما عين ملكشاه أحد أقاربه ويدعى سليمان بن قتلمش بن إسرائيل والياً على آسيا الصغرى التى كانت تتبع بلاد الروم، لمتابعة الفتح سنة ٤٧٠هـ١٠٧٧/م، فأسس هذا أيضًا دولة سلاجقة الروم وقد استمرت هذه الدولة ٢٢٤ سنة، ليتعاقب على حكمها أربعة عشر من سليلة أبى الفوارس قتلمش بن إسرائيل، وكان أولهم سليمان بن قتلمش الذى يعتبر مؤسس هذه الدولة وقد تمكن من فتح أنطاكية سنة ٤٧٧هـ١٠٨٤/م، كما تمكن ابنه داود من السيطرة على قونية سنة ٤٨٠هـ١٠٨٧/م ليتخذها عاصمة له. وكانت قونية من أغنى وأجمل المدن البيزنطية فى آسيا الصغرى، وقد حولها السلاجقة من مدينة بيزنطية مسيحية إلى مدينة سلجوقية إسلامية. وقد سقطت هذه الدولة على يد المغول سنة ٧٠٠هـ١٣٠٠/م وأصبحت فيما بعد من أملاك الدولة العثمانية.

كان سلاجقة الروم حريصين على تتريك آسيا الصغرى ونشر الإسلام فيها على المذهب السنّى، وكانوا سببًا فى نقل الحضارة الإسلامية إلى تلك الأقاليم، وأسقطوا الخط الدفاعى الذى كان يحمى المسيحية من أوربا ضد الإسلام فى الشرق.

ورغم هذه السلطنة القوية زمن ملكشاه، لم يفلح قائده أتسز فى توحيد بلاد الشام ومصر، بعد أن شكل السلاجقة تهديدًا فعليّاً للدولة العبيدية الفاطمية داخل مصر.

وعندما أراد أتسز غزو مصر، حلت به الهزيمة على يد قوة من العرب، قبل مواجهة الجيش الكبير الذى أعده الوزير بدر الجمالى فى رجب ٤٦٩هـ١٠٧٦/م، وقد أدى فشل أتسز إلى مزيد من التشرذم، والتمزق السياسى والصراع الدامى، لينتهى الأمر بمقتله سنة ٤٧١هـ١٠٧٨/م.

كذلك لم يفلح ملكشاه فى جعل الخلافة العباسية تتحول إلى أسرته السلجوقية، عندما زوج ابنته إلى الخليفة العباسى المقتدى بأمر الله سنة ٤٨٠هـ١٠٨٧/م، فرزقت منه بولد، كما زوج ابنته الأخرى إلى المستظهر العباسى. ولم يتمكن من حصر الخلافة والسلطنة فى شخص حفيده.

وتوفى السلطان ملكشاه وانتهى دور القوة والمجد ٤٤٧-٤٨٥هـ١٠٩٢-١٠٥٥/م الذى عرفته الدولة السلجوقية فى عهد السلاطين الثلاثة، طغرل بك، وألب أرسلان، وملكشاه، لتبدأ مرحلة الضعف والصراع ولقد ظهر فى زمن ألب أرسلان وملكشاه الوزير نظام الملك الذى يهمنا معرفة سيرته ودروه فى قوة الدولة السلجوقية.

ثم جاء نظام الملك وقال عنه الذهبى : الوزير الكبير، نظام الملك، قوام الدين، أبو على الحسن بن على بن إسحاق الطوسى، عاقل، سائس، خبير، سعيد، متدين، محتشم، عامر المجلس بالقرّاء والفقهاء.

أنشأ المدرسة الكبرى ببغداد وأخرى بنيسابور، وأخرى بطوس، ورغب فى العلم، وأدرّ على الطلبة الصلات، وأملى الحديث،وبَعُدَ صيته.

تنقلت به الأحوال إلى أن وزر للسلطان ألب أرسلان، ثم لابنه ملكشاه، فدبر ممالكه على أتم ماينبغى، وخفف المظالم، ورفق بالرعايا، وبنى الوقوف، وهاجرت الكبار إلى جانبه.

وأشار على ملكشاه بتعيين القواد والأمراء الذين فيهم خلق ودين وشجاعة وظهرت آثار تلك السياسة فيما بعد.

ومن هؤلاء القواد الذين وقع عليهم الاختيار آق سنقر جد نورالدين محمود، الذى ولى على حلب وديار بكر والجزيرة قال عنه ابن كثير: من أحسن الملوك سيرة وأجودهم سريرة وقام ولده عماد الدين زنكى ببداية الجهاد ضد الصليبيين، ثم قام من بعده نور الدين محمود، هذه الأسرة هى التى وضعت الأساس لانتصارات صلاح الدين والظاهر بيبرس وقلاوون ضد الصليبيين، وافتتحت عهد التوحيد والوحدة فى العالم الإسلامى.

وكذلك كان آق سنقر البرسقى من قواد السلطان محمود السلجوقى، وكان أميرًا للموصل، واشتغل بجهاد الصليبيين، وفى سنة ٥٢٠هـ قتله الباطنيون، وهو يصلى فى الجامع الكبير فى الموصل.

وقال عنه ابن الأثير: "وكان مملوكاً تركيّاً خيرًا، يحب أهل العلم والصالحين ويرى العدل ويفعله، وكان خير الولاة، يحافظ على الصلوات فى أوقاتها، ويصلى من الليل متهجدًا".

ويحدثنا المؤرخون عن آثار السلاجقة لاسيما فى زمن نظام الملك بأنه لما ملك السلجوقية، جددوا من هيبة الخلافة ماكان قد دَرَس لاسيما فى وزارة نظام الملك، فإنه أعاد الناموس والهيبة إلى أحسن حالاتها.

ولما تولى ملكشاه أمور الدولة انفلت أمر العسكر وبسطوا أيديهم فى أموال النَّاس، وقالوا مايمنع السلطان أن يعطينا الأموال إلا نظام الملك، وتعرض الناس لأذى شديد، فذكر ذلك نظام الملك للسلطان، فبين له ما فى هذا الفعل من الضعف، وسقوط الهيبة، والوهن، ودمار البلاد، وذهاب السياسة، فقال له: افعل فى هذا ماتراه مصلحة! فقال له نظام الملك: مايمكننى أن أفعل إلا بأمرك فقال السلطان: قد رددت الأمور كلها كبيرها وصغيرها إليك، فأنت الوالد؛ وحلف له، وأقطعه إقطاعًا زائدًا على ماكان،

وخلع عليه، ولقبه ألقابًا من جملتها : أتابك، ومعناه الأمير الوالد، فظهرت من كفايته، وشجاعته، وحسن سيرته ما أثلج صدور الناس، فمن ذلك أن امرأة ضعيفة استغاثت به، فوقف يكلمها وتكلمه، فدفعها بعض حجّابه، فأنكر ذلك عليه وقال : إنما استخدمتك لأمثال هذه، فإن الأمراء والأعيان لاحاجة لهم إليك، ثم صرفه عن حجابته.

وهنا سنكون بصدد قيام الدولة العثمانية. وينتسب العثمانيون إلى قبيلة تركمانية كانت عند بداية القرن السابع الهجرى الموافق الثالث عشر الميلادى تعيش فى كردستان، وتزاول حرفة الرعى، ونتيجة للغزو المغولى بقيادة جنكيزخان على العراق ومناطق شرق آسيا الصغرى، فإن سليمان جد عثمان هاجر فى عام ٦١٧هـ الموافق ١٢٢٠م مع قبيلته من كردستان إلى بلاد الأناضول فاستقر فى مدينة اخلاط ثم بعد وفاته فى عام ٦٢٨هـ الموافق ١٢٣٠م خلفه ابنه الأوسط أرطغرل، والذى واصل تحركه نحو الشمال الغربى من الأناضول، وكان معه حوالى مائة أسرة وأكثر من أربعمائة فارس، وحين كان أرطغرل والد عثمان فارّاً بعشيرته التى لم يتجاوز تعدادها أربعمائة عائلة، من ويلات الهجمة المغولية، فإذا به يسمع عن بعد جلبة وضوضاء، فلما دنا منها وجد قتالاً حاميًا بين مسلمين ونصارى وكانت كفة الغلبة للجيش البيزنطى، فما كان من أرطغرل إلا أن تقدم بكل حماس وثبات لنجدة إخوانه فى الدين والعقيدة، فكان ذلك التقدم سببًا فى نصر المسلمين على النصارى.

وبعد انتهاء المعركة قدر قائد الجيش الإسلامى السلجوقى هذا الموقف لأرطغرل ومجموعته، فأقطعهم أرضاً فى الحدود الغربية للأناضول بجوار الثغور فى الروم، وأتاحوا لهم بذلك فرصة توسيعها على حساب الروم، وحقق السلاجقة بذلك حليفًا قويّاً ومشاركاً فى الجهاد ضد الروم، وقد قامت بين هذه الدولة الناشئة وبين سلاجقة الروم علاقة حميمة نتيجة وجود عدو مشترك لهما فى العقيدة والدين، وقد استمرت هذه العلاقة

طيلة حياة أرطغرل، حتى إذا توفى سنة ٦٩٩هـ-١٢٩٩ فخلفه من بعده فى الحكم ابنه عثمان الذى سار على سياسة أبيه السابقة فى التوسع فى أراضى الروم.

وهنا سوف نتوقف عند عثمان بن أرطغرل مؤسس الدولة العثمانيه. ففى عام ٦٥٦هـ١٢٥٨/م ولد لأرطغرل ابنه عثمان الذى تنتسب إليه الدولة العثمانية وهى السنة التى غزا فيها المغول بقيادة هولاكو بغداد عاصمة الخلافة العثمانية، وكانت الأحداث عظيمة، والمصائب جسيمة.

يقول ابن كثير: "ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان، ودخل كثير من الناس فى الآبار وأماكن الحشوش، وقنى الوسخ، وكمنوا كذلك أياماً لايظهرون وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الحانات ويغلقون عليهم الأبواب فتفتحها التتار إما بالكسر وإما بالنار، ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالى الأمكنة فيقتلونهم بالأسطحة، حتى تجرى الميازيب من الدماء فى الأزقة، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وكذلك فى المساجد والجوامع والربط، ولم ينج منهم أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ومن التجأ إليهم.

لقد كان الخطب عظيماً والحدث جللا، والأمة ضعفت ووهنت بسبب ذنوبها ومعاصيها ولذلك سلط عليها المغول، فهتكوا الأعراض، وسفكوا الدماء، وقتلوا الأنفس، ونهبوا الأموال، وخربوا الديار .. فى تلك الظروف الصعبة والوهن المستشرى فى مفاصل الأمة ولد عثمان مؤسس الدولة العثمانية، وهنا معنى لطيف ألا وهو بداية الأمة فى التمكين.

وبدأت قصة التمكين للدولة العثمانية مع ظهور القائد عثمان الذى ولد فى عام سقوط الخلافة العباسية فى بغداد.

وعندما نتأمل فى سيرة عثمان الأول تبرز لنا بعض الصفات المتأصلة فى شخصيته كقائد عسكرى، ورجل سياسى.

ومن أهم هذه الصفات أنه كان شجاعا، فعندما تنادَى أمراء النصارى فى بُورُصَّة ومادانوس وأدره نوس وكته وكستله البيزنطيون فى عام ٧٠٠هـ١٣٠١/م لتشكيل حلف صليبى لمحاربة عثمان بن أرطغرل مؤسس الدولة العثمانية، واستجابت النصارى لهذا النداء وتحالفوا للقضاء على الدولة الناشئة تقدم عثمان بجنوده وخاض الحروب بنفسه وشتت الجيوش الصليبية وظهرت منه بسالة وشجاعة أصبحت مضرب المثل عند العثمانيين.

كما كان عثمان الأول حكيما، فبعد ما تولى رئاسة قومه رأى من الحكمة أن يقف مع السلطان علاء الدين ضد النصارى، وساعده فى افتتاح جملة من مدن منيعة، وعدة قلاع حصينة، ولذلك نال رتبة الإمارة من السلطان السلجوقى علاء الدين صاحب دولة سلاجقة الروم. وسمح له سك العملة باسمه، مع الدعاء له فى خطبة الجمعة فى المناطق التى تحته.

وكان عثمان مخلصا، فعندما لمس سكان الأراضى القريبة من إمارة عثمان إخلاصه للدين تحركوا لمساندته والوقوف معه لتوطيد دعائم دولة إسلامية تقف سدّاً منيعًا أمام الدولة المعادية للإسلام والمسلمين.

كما كان عثمان الأول يتحلى بالصبر، وقد ظهرت هذه الصفة فى شخصيته عندما شرع فى فتح الحصون والبلدان، ففتح فى سنة ٧٠٧هـ حصن كته، وحصن لفكه، وحصن آق حصار، وحصن قوج حصار. وفى سنة ٧١٢هـ فتح حصن كبوه وحصن يكيجه طرا قلوا، وحصن تكرر بيكارى وغيرها وقد توج فتوحاته هذه بفتح مدينة بروسة فى عام ٧١٧هـ١٣١٧/م، وذلك بعد حصار شديد دام عدة سنوات، ولم يكن فتح بروسة من الأمور السهلة بل كان من أصعب ما واجهه عثمان فى فتوحاته، حيث حدث بينه وبين قائد حاميتها اقرينوس صراع شديد استمر عدة سنوات حتى استسلم وسلم المدينة لعثمان. قال تعالى :﴿ يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ سورة آل عمران.

ومن خصاله أيضا أنه كان مؤمنا، وتظهر هذه الصفة عندما احتك به اقرينوس قائد بروسه واعتنق الإسلام أعطاه السلطان عثمان لقب بك وأصبح من قادة الدولة العثمانية البارزين فيما بعد، وقد تأثر كثير من القادة البيزنطيين بشخصية عثمان ومنهجه الذى سار عليه حتى امتلأت صفوف العثمانيين منهم بل إن كثيرًا من الجماعات الإسلامية انخرطت تحت لواء الدولة العثمانية كجماعة غزياروم أى غزاة الروم، وهى جماعة إسلامية كانت ترابط على حدود الروم وتصد هجماتهم عن المسلمين منذ العصر العباسى، وقد أعطتها هذه المرابطة خبرات فى جهاد الروم عمقت فيها انتماءها للإسلام والتزامها بكل ماجاء به الإسلام من نظام، وجماعة "الإخيان" أى الإخوان.

وهذه الجماعة من أهل الخير يعينون المسلمين ويستضيفونهم ويصاحبون جيوشهم لخدمة الغزاة وكان معظم أعضاء هذه الجماعة من كبار التجار الذين سخروا أموالهم للخدمات الإسلامية مثل : إقامة المساجد والتكايا و"الخانات" الفنادق، وكانت لهم فى الدولة مكانة عالية، ومن هذه الجماعة علماء ممتازون عملوا فى نشر الثقافة الإسلامية وحببوا الناس فى التمسك بالدين، وجماعة حاجيات روم أى حجاج أرض الروم، وكانت جماعة على فقه بالإسلام، ومعرفة دقيقة لتشريعاته، وكان هدفها معاونة المسلمين عمومًا والمجاهدين خصوصًا وغير ذلك من الجماعات.

وكان عثمان الأول عادلا. وتروى معظم المراجع التركية التى أرّخت للعثمانيين أن أرطغرل عهد لابنه عثمان مؤسس الدولة العثمانية بولاية القضاء فى مدينة قره جه حصار بعد الاستيلاء عليها من البيزنطيين فى عام ٦٨٤هـ١٢٨٥/م وأن عثمان حكم لبيزنطى نصرانى ضد مسلم تركى، فاستغرب البيزنطى وسأل عثمان: كيف تحكم لصالحى وأنا على غير دينك، فأجابه عثمان: بل كيف لا أحكم لصالحك، والله الذى نعبده، يقول لنا : ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن

تحكموا بالعدل﴾ سورة النساء، وكان هذا العدل الكريم سببًا فى اهتداء الرجل وقومه إلى الإسلام.

وقد استخدم عثمان الأول العدل مع رعيته وفى البلاد التى فتحها، فلم يعامل القوم المغلوبين بالظلم أو الجور أو التعسف أو التجبر، أو الطغيان، أو البطش وإنما عاملهم بهذا الدستور الربانى: ﴿ أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً * وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرًا﴾ سورة الكهف. والعمل بهذا الدستور الربانى يدل على إيمان وتقوى وفطنة وذكاء وعلى عدل وبر ورحمة.

وكان من صفات عثمان الأول الإخلاص، فكان شديد الاهتمام بالوفاء بالعهود، فعندما اشترط أمير قلعة أولوباد البيزنطية حين استسلم للجيش العثمانى، أن لايمر من فوق الجسر أى عثمانى مسلم إلى داخل القلعة التزم بذلك وكذلك من جاء بعده قال تعالى ﴿وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا﴾ سورة الإسراء.

وكان عثمان الأول شديد التجرد، فلم تكن أعماله وفتوحاته من أجل مصالح اقتصادية أو عسكرية أو غير ذلك، بل كان فرصة تبليغ دعوة الله ونشر دينه ولذلك وصفه المؤرخ أحمد رفيق فى موسوعته " التاريخ العام الكبير " كان عثمان متدينًا للغاية، وكان يعلم أن نشر الإسلام وتعميمه واجب مقدس وكان مالكاً لفكر سياسى واسع متين، ولم يؤسس عثمان دولته حبّاً فى السلطة وإنما حبّاً فى نشر الإسلام.

وكان عثمان بن أرطغرل يؤمن إيماناً عميقًا بأن وظيفته الوحيدة فى الحياة هى الجهاد فى سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وقد كان مندفعًا بكل حواسه وقواه نحو تحقيق هذا الهدف.

هذه بعض صفات عثمان الأول والتى كانت ثمرات طبيعية لإيمانه بالله تعالى والاستعداد لليوم الآخر، وحبه لأهل الإيمان وبغضه لأهل الكفر

والعصيان وحبه العميق للجهاد فى سبيل الله والدعوة إليه، ولذلك كان عثمان فى فتوحاته يطلب من أمراء الروم فى منطقة آسيا الصغرى أن يختاروا أحد ثلاثة أمور هى الدخول فى الاسلام، أو دفع الجزية، أو الحرب، وبذلك أسلم بعضهم، وانضم إليه البعض الآخر وقبلوا دفع الجزية. أما ماعداهم فقد شن عليهم جهادًا لا هوادة فيه فانتصر عليهم، وتمكن من ضم مناطق كبيرة لدولته.

لقد كانت شخصية عثمان متزنة وخلابة بسبب إيمانه العظيم بالله تعالى واليوم الآخر، ولذلك لم تطغ قوته على عدالته، ولا سلطانه على رحمته، ولا غناه على تواضعه، وأصبح مستحقّاً لتأييد الله وعونه، ولذلك أكرمه الله تعالى بالأخذ بأسباب التمكين والغلبة وهو تَفَضُّلٌ من الله تعالى على عبده عثمان، فجعل له مكنة وقدرة على التصرف فى آسيا الصغرى من حيث التدبير والرأى وكثرة الجنود والهيبة والوقار، لقد كانت رعاية الله له عظيمة ولذلك فتح له باب التوفيق وحقق ماتطلع إليه من أهداف وغاية سامية، لقد كانت أعماله عظيمة بسبب حبه للدعوة إلى الله، فقد جمع بين الفتوحات العظيمة بحد السيف، وفتوحات القلوب بالإيمان والإحسان، فكان إذا ظفر بقوم دعاهم إلى الحق والإيمان بالله تعالى وكان حريصًا على الأعمال الإصلاحية فى كافة الأقاليم والبلدان التى فتحها، فسعى فى بسط سلطان الحق والعدالة.

كانت حياة الأمير عثمان مؤسس الدولة العثمانية، جهادًا ودعوة فى سبيل الله وكان علماء الدين يحيطون بالأمير ويشرفون على التخطيط الإدارى والتنفيذ الشرعى فى الإمارة ولقد حفظ لنا التاريخ وصية عثمان لابنه أورخان وهو على فراش الموت وكانت تلك الوصية فيها دلالة حضارية ومنهجية شرعية سارت عليها الدولة العثمانية فيما بعد يقول عثمان فى وصيته: يابنى: إياك أن تشتغل بشىء لم يأمر به الله رب العالمين ! وإذا واجهتك فى الحكم معضلة فاتخذ من مشورة علماء الدين موئلاً.

يابنى: أحط من أطاعك بالإعـــزاز. وأنعم على الجنود، ولا يغـــرنَّك الشيطان بجندك وبمالك، وإياك أن تبتعد عن أهل الشريعة!

يابنى: إنك تعلم أن غايتنا هى إرضاء الله رب العالمين، وأن بالجهاد يعم نور ديننا كل الآفاق، فتحدث مرضات الله جل جلاله.

يابنى : لسنا من هؤلاء الذين يقيمون الحروب لشهوة حكم أو سيطرة أفراد، فنحن بالإسلام نحيا وللإسلام نموت، وهذا ياولدى ما أنت له أهل.

وفى كتاب التاريخ السياسى للدولة العلية العثمانية تجد رواية أخرى للوصية: اعلم يابنى، أن نشر الإسلام، وهداية الناس إليه، وحماية أعراض المسلمين وأموالهم، أمانة فى عنقك سيسألك الله عز وجل عنها.

وفى كتاب مأساة بنى عثمان نجد عبارات أخرى من وصية عثمان لابنه أورخان تقول: يابنى، إننى أنتقل الى جوار ربى وأنا فخور بك بأنك ستكون عادلاً فى الرعية، مجاهدًا فى سبيل الله، لنشر دين الإسلام.

يابنى، أوصيك بعلماء الأمة، أدم رعايتهم، وأكثر من تبجيلهم، وانزل على مشورتهم، فإنهم لايأمرون إلا بخير.

يابنى، إياك أن تفعل أمراً لا يرضى الله عز وجل، واذا صعب عليك أمر فاسأل علماء الشريعة، فإنهم سيدلونك على الخير.

واعلم يابنى أن طريقنا الوحيد فى هذه الدنيا هو طريق الله، وأن مقصدنا الوحيد هو نشر دين الله، وأننا لسنا طلاب جاه ولا دنيا.

وفى التاريخ العثمانى المصور، عبارات أخرى من وصية عثمان تقول: وصيتى لأبنائى وأصدقائى، أديموا علو الدين الإسلامى الجليل بإدامة الجهاد فى سبيل الله. أمسكوا راية الإسلام الشريفة فى الأعلى بأكمل جهاد. اخدموا الإسلام دائمًا، لأن الله عز وجل قد وظف عبدًا ضعيفًا مثلى لفتح البلدان. اذهبوا بكلمة التوحيد إلى أقصى البلدان بجهادكم فى سبيل

الله ومن انحرف من سلالتى عن الحق والعدل حرم من شفاعة الرسول الأعظم يوم المحشر.

يابنى: ليس فى الدنيا أحد لا يخضع رقبته للموت وقد اقترب أجلى بأمر الله جل جلاله أسلمك هذه الدولة وأستودعك المولى عز وجل. اعدل فى جميع شؤونك.

وقدكانت هذه الوصية منهجًا سار عليه العثمانيون، فاهتموا بالعلم وبالمؤسسات العلمية وبالجيش، وبالمؤسسات العسكرية، وبالعلماء واحترامهم، وبالجهاد الذى أوصل فتوحًا الى أقصى مكان وصلت إليه رايته جيش مسلم وبالإمارة وبالحضارة.

وقد حاول السلاطين العثمانيون مواصلة ما بدأه مؤسس الدولة عثمان الأول، كل يسعى للتطوير والتحديث وتقوية دعائم الدولة، وكل أيضا يضع نصب عينيه نيل شرف تحقيق البشارة النبوية، وفتح القسطنطينية، ولكن دون نجاح.

وهكذا الحال حتى تولى الحكم محمد الثانى السلطان العثمانى السابع فى سلسلة آل عثمان والملقب بـ "محمد بالفاتح"، و"أبى الخيرات" الذى تحققت على يديه البشارة النبوية بفتح القسطنطينية، ومعها طموحات وأمانى المسلمين.

كانت الخلافة العثمانية رمزًا لوحدة المسلمين، وقوة تدافع عن المسلمين وقضاياهم وأراضيهم، بالإضافة إلى الفتوحات الإسلامية، وحرصهم على الإسلام وحبهم له، كيف لا، وقد قامت دولتهم على حب الإسلام بغرض الدفاع عنه.

ويرى كثيرون أن التاريخ ظلم الخلافة العثمانية، لأن تاريخها -فى معظمها - كتب بأيدى أعدائها سواء من الأوربيين، أو من العرب الذين تربوا على مناهج الغرب، وظنوا أنها احتلال للبلاد العربية، ولذلك فتاريخ هذه الخلافة يحتاج إلى إعادة كتابة من جديد.

كانت المنطقة العربية والإسلامية الممتدة من هضبة إيران إلى الحوض الشرقى للبحر الأبيض المتوسط مناطق جذب لعدة أقوام وأجناس أهمها العناصر التركية الوافدة من آسيا الصغرى،وهى عناصر وجدت القبول والاحتضان من المجتمع الإسلامى بما تميز به من تسامح وما كان يسعى إليه من نشر للدين فى الأوساط غير الإسلامية.

وقد لعبت هذه العناصر الوافدة أدواراً هامة فى الحياة السياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، بفضل تحولها بعد احتكاكها بالسكان فى المناطق التى مرت بها أو استقرت فيها إلى اعتناق الإسلام، مساهمة فى البناء الحضارى للمسلمين ومجددة لروح الثقافة الإسلامية.

وتعد العناصر التركية من آسيا الوسطى من أكثر الأجناس المحتكة بالإسلام والمسلمين، وأكثرها استقراراً فى المناطق الإسلامية واحتكاكا بالمسلمين، ارتضت الإسلام دينا لها فجاهدت من أجل إعلاء شأنه ومواجهة أعدائه المتربصين به من المسيحيين والوثنيين.

وكان العثمانيون يشكلون إحدى تلك العناصر التركية التى وفدت إلى المنطقة الإسلامية، مستقرة فى آسيا الصغرى بعد أن أتاحت لها إمارة قونيا السلجوقية سبل الاستقرار والتوسع على حساب الإمبراطورية البيزنطية غربا، وكان ذلك عاملا أساسيا ورئيسيا فى قيام الدولة العثمانية، وتوسعها مستولية على العديد من المناطق الأوربية حتى وصلت أبواب فيينا عاصمة النمسا، مما جعل أوربا تصاب بفزع شديد تكتلت فيما بينها درءا لأخطارها وإيقافاً لمزيد من تقدمها فى أوروبا، ولكن الهزائم لحقت بها فى معظم المواقع حتى أضحت أوروبا تنظر إلى العثمانيين كما لو كانوا قدرا سلط عليهم لكثرة ذنوبهم.

وكما اتجهت الدولة العثمانية إلى التوسع فى أوربا فقد اتجهت إلى التوسع فى المنطقة العربية فى المشرق والمغرب لأسباب عديدة ودوافع

متباينة، استطاع من خلالها العثمانيون مدعومين بقوى محلية من إفشال الحلف البرتغالى الحبشى للسيطرة على الطرق التجارية ومحطاتها الرئيسية فى شرق إفريقيا والبحر الأحمر، والاستيلاء على مصر والشام عنوة والحجاز واليمن سلما وبنفس القدر واجه العثمانيون والقوى المحلية الاحتلال الأسبانى . البرتغالى للسواحل المغربية وطردوهم منها ناقلين ميدان الحرب إلى جهاد بحرى كان التفوق فيه فى معظم الأحيان حليف المسلمين.

غير أن الدولة العثمانية لاتساعها الكبير وجمعها فى حكمها لأقوام وجنسيات وديانات ومذاهب مختلفة، سار عليها ما سار على الإمبراطوريات الكبرى من الاختلاف والتمزق والثورات والحركات الانفصالية والحملات والمؤامرات الخارجية، حتى لم تعد قادرة على تأمين الاستقرار والأمن الاجتماعى فى كثير من المناطق والأقاليم الخاضعة لها فى أوربا، وفى العالم الإسلامى.

وبالرغم من الإصلاحات التى اضطلعت بها منذ أواخر القرن ١٨م فإنها لم تنجح فى ذلك، لأن الوقت كان قد فاتها من جهة،وظهور فكرة التتريك كإحدى نتائج تلك الإصلاحات من جهة أخرى، منتهية بالضلوع فى الخلافات الدولية المنتهية بالحرب العالمية الأولى.

عثمان بن أرطغرل مؤسس الدولة العثمانية .

السلطان مراد الثانى والد السلطان محمد الفاتح

السلطان محمد الثانى .. الملقب بـ " أبى الخيرات " و " محمد الفاتح " و " النسر الكبير " .

2

الفصل الثانى

مولد وطفولة قائد عظيم اسمه

مـــحـــمـــد الفـــاتـح

مولد وطفولة قائد عظيم اسمه محمد الفاتح

وُلد محمد الثاني بن السلطان مراد الثاني في القصر السلطاني في العاصمة العثمانية أدرنة صبيحة اليوم الثلاثين من شهر مارس سنة ١٤٣٢ م، وكانت قابلَتُه "إبه خاتون"ومربيته وأمه من الرضاعة أم كلثوم خاتون، وقد حظي برعاية والده السلطان، وأمّه السلطانة همّة خاتون، وأخيه الأكبر علاء الدين الذي كان في سن السابعة عند ولادة محمد الفاتح.

والحقيقة أنه لا يمكن بأي حال من الأحوال أن نتناول عملية تنشئة الفاتح دون التوقف عند شخصية أبيه السلطان مراد الثاني، التي كان لها أبلغ الأثر في تكوينه، وبلوغ ما حققه من إنجازات عظيمة.

مراد الثاني هو سادس السلاطين العثمانيين، عاش بين عامي ١٤٠٢ و١٤٥١ م، أحب العربية فيعد أول من تعلم ومارس فن الخط العربي من سلاطين العثمانيين، كما أنه كان ينظم الشعر ويتقنه.

هو مراد ابن السلطان محمد جلبى، أحد سلاطين الدولة العثمانية. ولد عام (٨٠٦هـ) وتولى السلطنة بعد وفاة أبيه عام (٨٢٤هـ) وكان عمره لايزيد على ثمانى عشرة سنة. أراد أن يعيد الإمارات فى الأناضول إلى سيادة الدولة العثمانية بعد أن أعادها تيمورلنك عند سيطرته على المنطقة ولذلك عقد هدنة مع ملك المجر لمدة خمس سنوات، كما صالح أمير القرامان. هدده إمبراطور القسطنطينية بإطلاق سراح عمه مصطفى بن بايزيد إذا

حاول السلطان قتاله إذ لم يعطه أخوى السلطان رهينة عنده لضمان عدم الحرب، فلما رفض السلطان أطلق الإمبراطور مصطفى بن بايزيد ودعمه بعشر مراكب ليهاجم السلطان، والتقى بجيش السلطان بقيادة بايزيد باشا فانتصر عليه وقتله، واتجه نحو ابن أخيه. تخلى قادة وجنود مصطفى بن بايزيد عنه فى وقت الشدة فقبض عليه وأعدم. حاصر السلطان مراد القسطنطينية انتقامًا من إمبراطورها ولكن لم يستطع أن يفتحها. خرج عليه أخوه مصطفى بمساعدة أمراء الدويلات فى المنطقة فهزمه وقتله. قام بإعادة ضم إمارات الأناضول وهى: آيدين، ومنتشا، وصاروخان، والقرامان. وبدأ يتجه لأوروبا مستأنفًا حركة الجهاد ومؤدبًا للأوربيين الذين أساءوا للعثمانيين أيام المحنة التى حلت بهم أيام السلطان بايزيد. فتح المجر وأخذ الجزية من أمير الصرب مع تقديم فرقة من جنود الصرب لمساعدة السلطان فى حروبه. واستعاد مدينة سالونيك والأفلاق وألبانيا. وعندما تجهز لحصار القسطنطينية نقض أمراء أوربا العهد معه فاتجه إليهم مرة أخرى، فأدب ملك المجر وأمير الأفلاق وأمير الصرب، وهزم جيشه وقتل قائده فى معركة عند ترانسلفانيا من أملاك المجر، وهزم جيشه مرة أخرى، وأسر قائده فذهب السلطان بنفسه ولكنه هزم أيضًا.

ولما فتح السلطان العثماني مراد الثاني مدينة سلانيك عام ١٤٣١ م وهزم البندقيين شر هزيمة ودخل المدينة منتصرًا- أعلم الحاجب السلطان أن وفدًا من مدينة (يانيا) قد حضر، وهم يرجون المثول بين يديه لأمر هام.. تعجب السلطان من هذا الخبر، إذ لم تكن له أي علاقة بهذه المدينة التي كانت آنذاك تحت حكم إيطاليا.

كانت مدينة (يانيا) تحت حكم عائلة توكو (الإيطالية، وعندما مات) (كارلو توكو الأول) عام ١٤٣٠م، ولي الحكم بعده ابن أخيه (كارلو توكو الثاني) ولكن أبناء توكو الأول) غير الشرعيين ثاروا وطالبوا بالحكم، فبدأ **عهد من الاضطراب والفوضى والقتال** عانى منه الشعب الأمرين، وعندما

سمعوا بأن السلطان (مراد الثاني) بالقرب منهم في مدينة (سلانيك)، قرروا إرسال وفد عنهم.

أمر السلطان مراد رئيس حجابه بالسماح للوفد بالدخول عليه، ثم قال لرئيس الوفد بواسطة الترجمان: أهلاً بكم، ماذا أتى بكم إلى هنا ؟ وماذا تبغون ؟

قال رئيس الوفد: أيها السلطان العظيم، جئنا نلتمس منكم العون، فلا تخيب رجاءنا.

- وكيف أستطيع معاونتكم ؟

- يا مولاي، إن أمراءنا يظلموننا، ويستخدموننا كالعبيد، ويغتصبون أموالنا ثم يسوقوننا للحرب.

- وماذا أستطيع أن أفعل لكم ؟ إن هذه مشكلة بينكم وبين أمرائكم.

- نحن أيها السلطان لسنا بمسلمين، بل نحن نصارى، ولكننا سمعنا كثيرًا عن عدالة المسلمين، وأنهم لا يظلمون الرعية، ولا يكرهون أحدًا على اعتناق دينهم، وأن لكل ذي حق حقه لديهم.. لقد سمعنا هذا من السياح، ومن التجار الذين زاروا مملكتكم، لذا فإننا نرجو أن تشملنا برعايتكم وبعطفكم، وأن تحكموا بلدنا لتخلصونا من حكامنا الظالمين.

ثم قدموا له مفتاح المدينة الذهبي.. واستجاب السلطان لرجاء أهل مدينة (يانيا)، وأرسل أحد قواده على رأس جيش إلى هذه المدينة، وتم فتحها فعلاً في السنة نفسها، أي في سنة ١٤٣١ م.

هذه ليست قصة خيالية.. ومع أنها قصة غريبة، إلا أنها حقيقية وتاريخية.. لقد كان المسلمون رمزًا للعدل والإنصاف.

وقد عقد معاهدة مع ملك المجر تنازل له فيها عن الأفلاق ورد بعض

المواقع للصرب، وقامت هدنة بين الطرفين لمدة عشر سنوات. وتنازل عن الحكم لما شعر بالتعب لابنه محمد الذى لم يبلغ الرابعة عشرة.

وانتهز البابا تلك الفرصة ودعا ملوك أوربا لحملة صليبية جديدة، وحرص ملك المجر على نقض عهده مع السلطان مراد، ورأى السلطان أن ابنه صغير ولم يتمرس على القتال، فعاد لقيادة الجيش وهزم الجيش الصليبي عند ڤارنا البلغارية، واحتل معسكر الأعداء، وقتل ملك المجر، وقتل الكاردينال "سيزاريني"مندوب البابا، وتم النصر للمسلمين.

وقد أدب الإنكشارية الذين استصغروا ابنه، وشغلهم بالقتال فى بلاد اليونان. ووافته المنية وهو فى أدرنه يستعد لفتح مدينة"آق حصار"وكان ذلك فى مطلع عام (٨٥٥ هـ) عن عمر يناهز (٤٩) عامًا ونقلت جثته إلى بُورُصَّة حيث دفن هناك.

وعودة إلى بطلنا محمد الفاتح، سنجد أنه بعدما تجاوز سِنَّ الطفولة الأولى خصص له والده مراد الثاني بعض المدرسين، ولكنهم فشلوا في تعليمه لأنه كان مشاكسا يرفض الانصياع لأوامرهم، ونظرًا لذلك فقد أوكل السلطان مراد الثاني مهمة تربية ولده وتعليمه إلى العلامة المولى أحمد بن إسماعيل الكوراني، وأعطاه قَضِيبًا ليضرب به محمدًا إذا شاغب، ودخل الكوراني غرفة التدريس والقضيب بيده، وقال للأمير محمد الثاني:

" أرسلني والدك للتعليم والضرب إذا خالفت أمري. فضحك الأمير محمد مِنْ ذلك الكلام، فضربه الشيخ الكوراني في ذلك المجلس ضرباً شديدًا حتى خاف منه الأمير **محمد، وختم** القرآن في مدة يسيرة، ولم يبلغ الثامنة، ثم عَلَّمه العلوم الإسلامية المعتمدة عند جمهور العلماء المدرسين، وقرأ الفاتح على المولى الكوراني **كتب التاريخ**، وظهر نبوغه، وتفوقه على سائر الأمراء، وأتقن منذ طفولته **اللغة التركية** والفارسية والعربية قراءةً

وكتابةً ومحادثةً وترجمة، وفي أيام شبابه تعلم اللغة اليونانية، واللغة الصربية، واللغة الإيطالية، واللغة اللاتينية.

واهتم الفاتح بمناظرات العلماء، وعُرفت عنه مباحثاته مع سفراء وممثلي البعثات الديبلوماسية الأجنبية دون الاستعانة بالمترجمين.

وقد كلف السلطان مراد بتعلم ابنه محمد معلمًا ثانيًا هو الشيخ الروحيّ الشريف محمد بن حمزة الدمشقي، الملقب"أق شمس الدين"فاشترك مع الكوراني في تربية وتعليم وتهذيب الأمير محمد، وغرسا في نفسه منذ صغره بأنه الأمير المجاهد المقصود بالحديث النبوي الوارد في مسند الإمام أحمد بن حنبل:" لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش".

وأتقن الفاتح علوم القرآن الكريم، وعلوم الحديث النبوي، والفقه وأصوله، وأصول الدين، ونبغ في التاريخ والجغرافيا والمنطق، والعلوم العقلية من رياضيات وفلك، وفنون السياسة الشرعية.

ولم يقتصر الفاتح على تعلُّم العلوم الرائجة في زمانه بل تابع التحصيل في شبابه حينما كان أميرا، وتابع الدراسة عندما أصبح سلطانا.

وبعد فتح القسطنطينية أنشأ جامع الفاتح، وأنشأ إلى جانبه كلية الفاتح، فكانت من أرقى جامعات زمانه، وجمعت بين العلوم النقلية والعقلية، ولم يعين الأساتذة اعتباطاً بل كان يجري المناظرات بين الأستاذ الجديد والعلماء، فإذا أفلح في المناظرة يتمّ تعيينه، وكان السلطان يدرس الكتب مع مؤلفيها. ومن ذلك أنه درس كتاب المواقف في علم الكلام على مؤلفه الإيجي.

وتتلمذ على الكثير من العلماء المسلمين وغير المسلمين، فدرس على محمود بك قصاب زادة، وأخذ علم الرماية عن إبراهيم باشا النيشانجي، وأخذ العلوم العسكرية عن شهاب الدين شاهين باشا، ودرس على الصدر

الأعظم سنان باشا، والملا سراج الدين محمد النيشانجي الذي توفي سنة ١٤٨٢م.

ودرس على حسن جلبي الذي توفي سنة ١٤٨٦م، والملا إياس، وعبد القادر أفندي قينالي، وجلبي زادة الإسبارطلي، ومحمد أفندي بن محيي الدين، وشيخ الإسلام منلا خسرو، والملا خير الدين الذي توفي سنة ١٤٧٥م، ومصطفى صالح أفندي ابن الخواجة مصلح الدين الذي توفي سنة ١٤٨٨م، والملا زيرك، وابن التمجيد الذي توفي سنة ١٤٥١م، والملا الفقيه إلياس الأماسيالي، ودرس علوم القرآن الكريم على محمد ده ده الشيرواني.

ودرس الأدب على شاعر عصره حميد الدين بن الملا أفضل، وداهية العصر وشاعره الوزير أحد باشا البورصلي الذي توفي سنة ١٤٩٧م، وأخذ الموسيقا والتاريخ عن شكر الله جلبي، كما أخذ الموسيقا عن ولي الدين أفندي الذي توفي سنة ١٤٥٣م.

وأخذ اللغة اليونانية الكلاسيكية عن يورغيوس أميروتزس البيزنطي الطرابزني الذي مات سنة ١٤٧٥م، وأخذ اللغة الإيطالية، واللغة اللاتينية والتاريخ القديم والجغرافيا وعلم الآثار عن سيرياكو أنكونيتاتو الذي مات سنة ١٤٥٥م، وأخذ التاريخ الإيطالي والأوروبي عن جيوفاني ماريو أنجيلليلو الذي مات سنة ١٥٢٥م.

وتعلم السلطان محمد الفاتح أساليب الحرب، ودرس كتب الحيل الميكانيكية، فاخترع منجنيقًا ضخمًا، واخترع أربعة أبراج متحركة، واخترع أول مدفع هاون في التاريخ، وأشرف على صناعة المدافع العملاقة التي خرقت أسوار القسطنطينية، وغيرها من القلاع التي صمدت في العهود التي سبقت زمانه.

واهتم السلطان محمد الفاتح بدراسة التاريخ العسكري، وفنون السياسة، والمؤامرات المحلية والدولية، فقرأ نصوص المشاريع الأوروبية لتدمير

السلطنة العثمانية، وما سبقها من ممالك المسلمين، وتوافرت له كتب الحروب الصليبية فدرسها.

ودرس نصوص أربعة عشر مشروعًا من المشاريع التي أُعدَّت لتدمير الدول الإسلامية.

وأول تلك المشاريع مشروع ملك صقلية كارلوس الثاني الذي قدمه إلى البابا نيقولا الرابع في ٢٣ أغسطس سنة ١٢٩١م.

والمشروع الثاني قُدم إلى البابا المذكور من الراهب فيدانس دوبار.

والمشروع الثالث قدَّمه كارلوس دوفالو إلى البابا بونيفاس الثمن سنة ١٣٠١م

والمشروع الرابع الذي قدّمه بيير دبوا إلى البابا اكليمانضوس الخامس سنة ١٣٠٠م.

ومشروع ريمون دلول سنة ١٣٠٦م.

والمشروع السادس الذي قدمه مارينو سانوتو إلى البابا يوحنا الثاني والعشرين سنة ١٣٢١م.

والمشروع السابع الذي قدمه هايتون، أو هيتوم الأرمني إلى البابا أكليمانضوس الخامس سنة ١٣٠٧م.

والمشروع الثامن الذي قدمه غليون دونو غاري إلى ملك فرنسا فيليب لوبيل سنة ١٣١٠م.

والمشروع التاسع الذي قدمه الراهب الدومنيكي غليوم دادام سنة ١٣١١م

والمشروع العاشر الذي قدمه ملك قبرص هنري دي لوزنيان إلى مجمع فيان المسكوني سنة ١٣١١م.

والمشروع الحادي عشر الذي قدمه الراهب الدومنيكي الألماني بروكارد إلى البابا يوحنا الثاني والعشرين وملك فرنسا فيليب السادس سنة ١٣٣٢م.

والمشروع الثاني عشر الذي قدمه برتراندون دي لابروكيار سنة ١٢٣٢م.

والمشروع الثالث عشر الذي قدمه فيليب لوبون دوق بورغونيا سنة ١٤٤٢م.

والمشروع الرابع عشر الذي قدمه ملك فرنسا شارلس الثامن سنة ١٤٥٩م.

وبدراسة الفاتح لتلك المشاريع التآمرية لزم جانب الحذر في تعامله مع الدول الأوربية طوال حياته، فعجزوا عنه في ميادين الجهاد، ولكنهم قتلوه غدرا بالسم.

وحدث أن توفي ولي عهد السلطان مراد الثاني الشاه زادة علاء الدين في شهر ذي القعدة سنة ٨٤٦ هـ- سنة ١٤٤٣م، فدفن في بورصة، وشغل منصب ولي العهد أخوه الصغير الأمير محمد الثاني الذي كان في سنٍّ الحادية عشرة.

وتنازل السلطان مراد الثاني عن السلطنة لولده محمد الثاني الملقب بالفاتح، وتفرغ السلطان مراد للعبادة في جامعه بمدينة مغنيسيا التركية، ثم أعيدت السلطنة إلى السلطان مراد الثاني ثانية في يناير سنة ١٤٤٥م، بعد معركة مدينة وارنة"فارنا".

ولكنه قرر الاعتكاف ثانية في ديسمبر سنة ١٤٤٥م، وأعاد العرش إلى السلطان محمد الثاني، وعاد إلى مسجده في مغنيسيا، ثم عاد ثالث مرة في مايو سنة ١٤٤٦م، وتولى محمد الفاتح إمارة"صاروخان"مانيسا، وأصبح الحاكم الفعلي، والقائد العسكري للقسم الآسيوي من السلطنة.

ورحل السلطان مراد الثاني في فبراير سنة ١٤٥١م، وفور الوفاة عاد الفاتح من مدينة مانيسا مركز إمارة"صاروخان"وبويع بالسلطنة، وعمره ١٩ سنة، فكان تسلسله السلطان السابع من سلاطين آل عثمان.

وقد تزوج السلطان محمد الفاتح بعدد من النساء، كانت أولاهن والدة ولي العهد،"أمينة كلبهار"أي"أمينة وردة الربيع"، وهي من الروم الأرثوذكس، نبيلة الجذور من قرية "دوفيرا"في طرابزون، توفيت عام ١٤٩٢، وهى والدة السلطان بايزيد الثاني.

كذلك اتخذ السلطان زوجة من كل من"السلطانة كيفر"؛ "غولشان خاتون"؛"ستّي مكرم خاتون"،"خاتون شيشك"،"هيلينا خاتون"، ابنة أحد الملوك الروم المتوفاة عام ١٤٨١، و"آنا خاتون"ابنة إمبراطور طرابزون، التي تزوجها السلطان لفترة قصيرة، و"خاتون أليكسياس"، إحدى الأميرات البيزنطيات.

وكان للسلطان ابن آخر هو"جم"المعروف بالغرب باسم "زيزيم"، والذي توفي سنة ١٤٩٥ ,

وما دمنا نتحدث هنا عن طفولة ونشأة هذا السلطان العظيم، الذي ربما لم يحتل أحد من القادة العظماء مثل تلك المكانة التي تبوأها في التاريخ الإسلامي والأوربي، فإنه يجدر بنا التوقف عند شخصيتين رئيسيتين لعبتا دورًا حاسمًا ومؤثرًا في تشكيل شخصية محمد الفاتح منذ صغره، ومن ثم أفكاره وتوجهاته ومواقفه فيما بعد، في الوقت نفسه الذي لعبتا فيه دور المرجع كلما كان في حاجة إلى من يساعده في اتخاذ القرارات المصيرية والصعبة، بعد أن أثرت هاتان الشخصيتان في شخصية الفاتح الصغير أخلاقيّاً ودينيّاً وثقافيّاً وعسكريّاً ليصبح -فيما بعد- من أكثر السلاطين العثمانيين سعة أفق وإدراكاً وعبقرية في تاريخ الدولة والإسلام.

آق شمس الدين.. مُعلِّم الفاتح الأكبر

سمَّاه محمد الفاتح" كاشف الأسرار"لتبشيره بفتح القسطنطينية، و قال عنه:

"احترامي لهذا الشيخ الجليل غير اختياري،أنفعل عنده، تهتزّ يدي بين

يديه، أما باقي الشيوخ حينما يأتون إليّ تهتز أيديهم بين يدي".. هذا هو آق شمس الدين الملقب بـ"الفاتح المعنوي للقسطنطينية".

آق شمس الدين معلم محمد الفاتح هو محمد بن حمزة الدمشقي الرومي ارتحل مع والده إلى الروم، وطلب فنون العلوم وتبحر فيها وأصبح علماً من أعلام الحضارة الإسلامية في عهدها العثماني.

وهو معلم الفاتح ومربيه يتصل نسبه بالخليفة الراشد أبي بكر الصديق، كان مولده في دمشق عام ٧٩٢هـ ١٣٨٩م حفظ القرآن الكريم وهو في السابعة من عمره، ودرس في أماسيا ثم في حلب ثم في أنقرة وتوفي عام ١٤٥٩هـ.

درّس الشيخ آق شمس الدين للأمير محمد الفاتح العلوم الأساسية في ذلك الزمن وهي القرآن الكريم والسنة النبوية والفقه والعلوم الإسلامية واللغات العربية، والفارسية والتركية وكذلك في مجال العلوم العلمية من الرياضيات والفلك والتاريخ والحرب، وكان الشيخ آق ضمن العلماء الذين أشرفوا على السلطان محمد عندما تولى إمارة مغنيسا ليتدرب على إدارة الولاية، وأصول الحكم.

واستطاع الشيخ آق شمس الدين أن يقنع الأمير الصغير بأنه المقصود بالحديث النبوي:"لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش".

وعندما أصبح الأمير محمد سلطاناً على الدولة العثمانية، وكان شابّاً صغير السن وجّهه شيخه فورًا إلى التحرك بجيوشه لتحقيق الحديث النبوي فحاصر العثمانيون القسطنطينية برّاً وبحرّاً. ودارت الحرب العنيفة ٥٤ يوماً.

وعندما حقق البيزنطيون انتصارًا مؤقتًا وابتهج الشعب البيزنطي بدخول أربع سفن أرسلها البابا إليهم وارتفعت روحهم المعنوية اجتمع الأمراء

والوزراء العثمانيون وقابلوا السلطان محمد الفاتح وقالوا له: إنك دفعت بهذا القدر الكبير من العساكر إلى هذا الحصار جريًا وراء كلام أحد المشايخ -يقصدون آق شمس الدين- فهلكت الجنود وفسد كثير من العتاد ثم زاد الأمر على هذا بأن عوناً من بلاد الإفرنج للكافرين داخل القلعة، ولم يعد هناك أمل في هذا الفتح.

فأرسل السلطان محمد وزيره ولي الدين أحمد باشا إلى الشيخ آق شمس الدين في خيمته يسأله الحل فأجاب الشيخ: لابد من أن يمنّ الله بالفتح.

ولم يقتنع السلطان بهذا الجواب، فأرسل وزيره مرة أخرى ليطلب من الشيخ أن يوضح له أكثر، فكتب هذه الرسالة إلى تلميذه محمد الفاتح يقول فيها: هو المعزّ الناصر... إن حادث تلك السفن قد أحدث في القلوب التكسير والملامة وأحدث في الكفار الفرح والشماتة. إن القضية الثابتة هي: إن العبد يدبر والله يقدر والحكم لله... ولقد لجأنا الى الله وتلونا القرآن الكريم وماهي إلا سِنَةٌ من النوم بعد إلا وقد حدثت ألطاف الله تعالى فظهرت من البشارات مالم يحدث مثلها من قبل.

أحدث هذا الخطاب راحة وطمأنينة في الأمراء والجنود. وعلى الفور قرر مجلس الحرب العثماني الاستمرار في الحرب لفتح القسطنطينية، ثم توجه السلطان محمد إلى خيمة الشيخ شمس الدين فقبل يده، وقال: علمني ياسيدي دعاءً أدعو الله به ليوفقني، فعلمه الشيخ دعاءً، وخرج السلطان من خيمة شيخه ليأمر بالهجوم العام.

أراد السلطان أن يكون شيخه بجانبه أثناء الهجوم فأرسل إليه يستدعيه لكن الشيخ كان قد طلب ألا يدخل عليه أحد الخيمة ومنع حراس الخيمة رسول السلطان من الدخول وغضب محمد الفاتح وذهب بنفسه إلى خيمة الشيخ ليستدعيه، فمنع الحراس السلطان من دخول الخيمة بناءً على أمر

الشيخ، فأخذ الفاتح خنجره وشق جدار الخيمة في جانب من جوانبها ونظر إلى الداخل فإذا شيخه ساجدًا لله في سجدة طويلة وعمامته متدحرجة من على رأسه وشعر رأسه الأبيض يتدلى على الأرض، ولحيته البيضاء تنعكس مع شعره كالنور، ثم رأى السلطان شيخه يقوم من سجدته والدموع تنحدر على خديه، فقد كان يناجي ربه ويدعوه بإنزال النصر ويسأله الفتح القريب.

وعاد السلطان محمد الفاتح عقب ذلك إلى مقر قيادته ونظر إلى الأسوار المحاصرة فإذا بالجنود العثمانيين وقد أحدثوا ثغرات بالسور تدفق منها الجنود إلى القسطنطينية.

ففرح السلطان بذلك وقال: ليس فرحي لفتح المدينة إنما فرحي بوجود مثل هذا الرجل في زمني.

وقد ذكر الشوكاني في كتابه البدر الطالع أن الشيخ شمس الدين ظهرت بركته وظهر فضله وأنه حدد للسلطان الفاتح اليوم الذي تفتح فيه القسطنطينية على يديه.

وعندما تدفقت الجيوش العثمانية إلى المدينة بقوة وحماس، تقدم الشيخ الى السلطان الفاتح ليذكره بشريعة الله في الحرب وبحقوق الأمم المفتوحة كما هى في الشريعة الإسلامية.

وبعد أن أكرم السلطان محمد الفاتح جنود الفتح بالهدايا والعطايا وعمل لهم مأدبة حافلة استمرت ثلاثة أيام أقيمت خلالها الزينات والمهرجانات، وكان السلطان يقوم بخدمة جنوده بنفسه متمثلاً بالقول السائد سيد القوم خادمهم. ثم نهض ذلك الشيخ العالم الورع آق شمس الدين وخطبهم، فقال: ياجنود الإسلام. اعلموا واذكروا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في شأنكم: لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش.

ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا ويغفر لنا. ألا لاتسرفوا

فيما أصبتم من أموال الغنيمة ولاتبذّروا وأنفقوها في البر والخير لأهل هذه المدينة، واسمعوا لسلطانكم وأطيعوه وأحبوه. ثم التفت إلى الفاتح وقال له: ياسلطاني، لقد أصبحت قرة عين آل عثمان فكن على الدوام مجاهدًا في سبيل الله. ثم صاح مكبرًا الله في صوت جهوري جليد.

وقد اهتدى الشيخ آق شمس الدين بعد فتح القسطنطينية إلى قبر الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري بموضع قريب من سور القسطنطينية.

وكان الشيخ آق شمس الدين أول من ألقى خطبة الجمعة في مسجد آيا صوفيا.

● الشيخ شمس الدين يخشى على السلطان من الغرور:

كان السلطان محمد الفاتح يحب شيخه شمس الدين حبّاً عظيمًا، وكانت له مكانة كبيرة في نفسه وقد بين السلطان لمن حوله -بعد الفتح-: إنكم ترونني فرحًا. فرحي ليس فقط لفتح هذه القلعة إن فرحي يتمثل في وجود شيخ عزيز الجانب، في عهدي، هو مؤدبي الشيخ آق شمس الدين.

وعبر الشيخ عن تهيبه لشيخه في حديث له مع وزيره محمود باشا. قال السلطان الفاتح: إن احترامي للشيخ آق شمس الدين، احترام غير اختياري. إنني أشعر وأنا بجانبه بالانفعال والرهبة.

ذكر صاحب البدر الطالع أن: بعد يوم جاء السلطان إلى خيمة صاحب الترجمة - أي آق شمس الدين - وهو مضطجع فلم يقم له فقبّل السلطان يده وقال: له جئتك لحاجة قال: وماهي؟ قال: أن أدخل الخلوة عندك فأبى فأبرم عليه السلطان مرارًا وهو يقول: لا. فغضب السلطان وقال إنه يأتي إليك واحد من الأتراك فتدخله الخلوة بكلمة واحدة وأنا تأبى عليّ فقال الشيخ: إنك إذا دخلت الخلوة تجد لذة تسقط عندها السلطنة من عينيك فتختل أمورها فيمقت الله علينا ذلك، أو الغرض من الخلوة تحصيل العدالة فعليك أن تفعل كذا وكذا وذكر له شيئاً من النصائح ثم أرسل إليه ألف دينار

فلم يقبل ولما خرج السلطان محمد خان قال لبعض من معه: ماقام الشيخ لي. فقال له: لعله شاهد فيك من الزهو بسبب هذا الفتح الذي لم يتيسر مثله للسلاطين العظماء فأراد بذلك أن يدفع عنك بعض الزهو.

هكذا كان هذا العالم الجليل الذي حرص على تربية محمد الفاتح على معاني الإيمان والإسلام والإحسان ولم يكن هذا الشيخ متبحرًا في علوم الدين والتزكية فقط بل كان عالماً في النبات والطب والصيدلة، وكان مشهورًا في عصره بالعلوم الدنيوية وبحوثه في علم النبات ومدى مناسبتها للعلاج من الأمراض. وبلغت شهرته في ذلك أن أصبح مثلاً بين الناس يقول: إن النبات ليحدث آق شمس الدين.

وقال الشوكاني عنه: وصار مع كونه طبيبًا للقلوب طبيبًا للأبدان فإنه اشتهر أن الشجرة كانت تناديه وتقول: أنا شفاء من المرض الفلاني ثم اشتهرت بركته وظهر فضله.

وكان الشيخ يهتم بالأمراض البدنية قدر عنايته بالأمراض النفسية.

واهتم الشيخ آق شمس الدين اهتمامًا خاصّاً بالأمراض المعدية، فقد كانت هذه الأمراض في عصره تتسبب في موت الآلاف، وألف في ذلك كتاباً بالتركية بعنوان"مادة الحياة"قال فيه: من الخطأ تصور أن الأمراض تظهر على الأشخاص تلقائيا، فالأمراض تنتقل من شخص إلى آخر بطريق العدوى. هذه العدوى صغيرة ودقيقة إلى درجة عدم القدرة على رؤيتها بالعين المجردة. لكن هذا يحدث بواسطة بذور حيّة.

وبذلك وضع الشيخ آق شمس الدين تعريف الميكروب في القرن الخامس عشر الميلادي. وهو أول من فعل ذلك، ولم يكن الميكروسكوب قد خرج بعد. وبعد أربعة قرون من حياة الشيخ آق شمس الدين جاء الكيميائي والبيولوجي الفرنسي لويس باستير ليقوم بأبحاثه وليصل إلى نفس النتيجة.

واهتم الشيخ آق شمس الدين أيضًا بالسرطان وكتب عنه وفي الطب ألَّف

الشيخ كتابين هما: مادة الحياة، وكتاب الطب، وهما باللغة التركية والعثمانية. وللشيخ باللغة العربية سبعة كتب، هي: حل المشكلات، الرسالة النورية، مقالات الأولياء، رسالة في ذكر الله، تلخيص المتائن، دفع المتائن، رسالة في شرح حاجي بايرام ولي.

كان الشيخ آق شمس الدين الذي تولى تربية السلطان محمد الفاتح العثماني - رحمه الله - يأخذ السلطان محمد بيده، ويمر به على الساحل ويشير إلى أسوار القسطنطينية التى تلوح في الأفق من بعيد شاهقة حصينة، ثم يقول له: أترى إلى هذه المدينة التى تلوح في الأفق ؟ إنها القسطنطينية، وقد أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن رجلا من أمته سيفتحها بجيشه، ويضمها إلى أمة التوحيد، فقال عليه الصلاة والسلام فيما رُوي عنه:" لتُفْتَحَنَّ القسطنطينيةُ، ولنِعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش".

ومازال الشيخ بالصبي، يريه المدينة، يكرر على مسامعه ذلك الحديث الشريف، يشعر ببهجة النصر وعزة الفتح.. الأحلام تتحقق عندما تراها، تسمعها، تشعر بها.. انظر إلى جيشك وهو يدك القسطنطينية، اسمع هتافات التكبير، تذكر شعورك السعيد حينئذ.

إن المُعلم يرسم صورة واضحة ورؤية جلية لتلميذه، صورة يعيش معها ولها، ياله من حلم جميل، وهدف كريم.

دعونا نكمل ما حصل لذلك التلميذ من تشجيع ذلك المعلم وتلك الرؤية المبكرة.

لقد نمت همة الأمير الصبي وترعرعت في قلبه، فعقد العزم عى أن يجتهد ليكون هو ذلك الفاتح الذي بَشَّر به الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم.

كان والده السلطان مراد الثاني يستصحبه معه وهو صغير إلى بعض

المعارك، ليعتاد مشاهدة الحرب والطعان، ومناظر الجنود في حركاتهم واستعداداتهم ونزالهم، وليتعلم قيادة الجيش وفنون القتال عملياً، حتى إذا ما ولي السلطنة، وخاض غمار المعارك خاضها عن دراية وخبرة.

ولما جاء اليوم الموعود شرع السلطان محمد الفاتح في مفاوضة الإمبراطور قسطنطين ليسلمه القسطنطينية، فلما بلغه رفض الإمبراطور تسليم المدينة، قال- رحمه الله -: حسنًا عن قريب سيكون لي في القسطنطينية عرش أو يكون لي فيها قبر.

أما بالنسبة لوفاته، فقد عاد الشيخ إلى موطنه كونيوك بعد أن أحس بالحاجة إلى ذلك رغم إصرار السلطان على بقائه في استنبول ومات عام ٨٦٣هـ١٤٥٩/م فعليه من الله الرحمة والمغفرة والرضوان.

ويمكن القول إنه كان لهذا الشيخ أعظم الأثر في حياة القائد محمد الفاتح حيث رباه على أمرين عظيمين:

١- مضاعفة حركة الجهاد العثمانية.

٢- الإيحاء دوماً لمحمد منذ صغره بأنه الأمير المقصود بالحديث النبوي لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش، حتى تشبع فكر محمد على أنه المعني بهذا الحديث وكان أول ما فعله بعد ولايته الإعداد لفتح القسطنطينية وقد كان.

حتى إن أهل التاريخ يقولون إن الشيخ آق شمس الدين هو الفاتح المعنوي للقسطنطينية وهذا الشيخ هو الذي علم الفاتح العلوم العلمية من الرياضيات والفلك والتاريخ وأساليب الحرب وأعطى للفاتح درساً في صغره لم ينسه أبدًا يدل على مدى فهم هذا الشيخ لمعنى تخريج وتربية قائد رباني، فلقد استدعى الفاتح يومًا ثم قام بضربه ضربًا شديدًا بلا سبب وبكى الفاتح بشدة وظل يتذكر تلك الواقعة، حتى لما تولى السلطنة أيام أبيه مراد استدعى شيخه آق شمس الدين وسأله بغضب شديد لم ضربتني يوم

كذا ولم أكن قد فعلت ما أستحق عليه الضرب؟' فقال له شيخه: 'أردت أن أعلمك كيف يكون طعم الظلم وكيف ينام المظلوم حتى إذا وليت الأمر لاتظلم أحدًا فما كان من الفاتح إلا أن اعتذر لشيخه وقبل رأسه ويده.

وعندما أراد الفاتح بعد فتح القسطنطينية أن يعتزل ويتفرغ للعبادة سأل الشيخ أق فقال له الشيخ 'إنك إذا دخلت الخلوة تجد لذة تسقط عندها السلطنة من عينيك فتختل أمورها وما أنت فيه أفضل من دخولك للخلوة والتعبد' وهذا فهم عظيم من هذا المربي الصالح.

وهكذا ربى هذا العالم الرباني تلميذه النجيب ليتولى القيادة على معانٍ عظيمة وربطه بهدف أسمى يسعى إليه ويوجِّه إليه كل طاقاته وذلك بالقطع في صالح الأمة بأسرها.

ولما كان السلطان (محمد الفاتح) يكن لأستاذه الشيخ (آق شمس الدين) مشاعر الحب، والإجلال، والتوقير، ويزوره على الدوام، حيث يستمع لأحاديثه ونصائحه، ويستفيد من علمه الغزير.

وكان أستاذه هذا مهيباً لا يخشى سوى الله، لذا فإنه عند قدوم السلطان (محمد الفاتح) لزيارته، لا يقوم له من مجلسه، ولا يقف له. أما عند زيارته للسلطان (محمد الفاتح) فقد كان السلطان يقوم له من مجلسه توقيرًا له، واحترامًا ويجلسه بجانبه.

وقد لاحظ ذلك زوّار السلطان وحاشيته، لذا لم يملك الصدر الأعظم (محمود باشا) من إبداء دهشته للسلطان فقال له : لا أدري يا سلطاني العظيم، لِمَ تقوم للشيخ (آق شمس الدين) عند زيارته لك، من دون سائر العلماء والشيوخ، في الوقت الذي لا يقوم لك تعظيمًا عند زيارتك له ؟!.

فأجابه السلطان: أنا أيضًا لا أدري السبب ... ولكني عندما أراه مقبلاً عليَّ، لا أملك نفسي من القيام له ... أما سائر العلماء والشيوخ، فإني أراهم

يرتجفون من حضوري، وتتلعثم ألسنتهم عندما يتحدثون معي، في الوقت الذي أجد نفسي أتلعثم عند محادثتي الشيخ (آق شمس الدين).

وكما ذكرنا في فتح القسطنطينية أراد السلطان أن يكون شيخه بجانبه أثناء الهجوم فأرسل إليه يستدعيه، لكن الشيخ كان قد طلب ألا يدخل عليه أحد الخيمة ومنع حراس الخيمة رسول السلطان من الدخول، وغضب محمد الفاتح وذهب بنفسه إلى خيمة الشيخ ليستدعيه، فمنع الحراس السلطان من دخول الخيمة بناءً على أمر الشيخ، فأخذ الفاتح خنجره وشق جدار الخيمة في جانب من جوانبها ونظر إلى الداخل فإذا شيخه ساجدًا لله في سجدة طويلة وعمامته متدحرجة من على رأسه وشعر رأسه الأبيض يتدلى على الأرض، ولحيته البيضاء تنعكس مع شعره كالنور، ثم رأى السلطان شيخه يقوم من سجدته والدموع تنحدر على خديه، فقد كان يناجي ربه ويدعوه بإنزال النصر ويسأله النصر ويسأله الفتح القريب.

وعاد السلطان محمد (الفاتح) عقب ذلك إلى مقر قيادته ونظر إلى الأسوار المحاصرة فإذا بالجنود العثمانيين وقد أحدثوا ثغرات بالسور تدفق منها الجنود إلى القسطنطينية، ففرح السلطان بذلك وقال: ليس فرحي لفتح المدينة إنما فرحي بوجود مثل هذا الرجل في زمني.

وذكر الإمام الشوكاني صاحب البدر الطالع أن (ثم بعد يوم -من الفتح - جاء السلطان إلى خيمة (آق شمس الدين) وهو مضطجع فلم يقم له، فقبل السلطان يده وقال له: جئتك لحاجة، قال: وما هى ؟ قال: أن أدخل الخلوة عندك، فأبى، فأبرم عليه السلطان مرارًا وهو يقول: لا. فغضب السلطان وقال: إنه يأتي إليك واحد من الأتراك فتدخله الخلوة بكلمة واحدة وأنا تأبى عليَّ، فقال الشيخ: إنك إذا دخلت الخلوة تجد لذة تسقط عندها السلطنة من عينيك فتختل أمورها فيمقت الله علينا ذلك، والغرض من

الخلوة تحصيل العدالة، فعليك أن تفعل كذا وكذا - وذكر له شيئاً من النصائح - ثم أرسل إليه ألف دينار فلم يقبل، ولما خرج السلطان محمد خان قال لبعض من معه: ما قام الشيخ لي. فقال له: لعله شاهد فيك من الزهو بسبب هذا الفتح الذي لم يتيسر مثله للسلاطين العظماء، فأراد بذلك أن يدفع عنك بعض الزهو).

أحمد بن إسماعيل الكوراني المستشار والناصح الأمين

تربى محمد الثاني منذ نعومة أظافره على معاني البطولة والجهاد والقيادة والصلاح فقد كان أبو السلطان مراد الثاني يربي أبناءه ليكونوا قادة عظماء يحملون الراية من بعده ، لذلك فإن أباه عهد به لعدد من المربين والعلماء الأفاضل لتربيته على القيم الإسلامية والمعاني الجهادية.

وظهر نبوغ محمد على سائر الأمراء واستطاع أن يتقن ثلاث لغات هى التركية والفارسية والعربية.

الكوراني هو الذي تولى تحفيظ محمد القرآن وقراءة الكتب الشرعية وربى محمداً على تعظيم أوامر الله والتزام حدود الشريعة والتقوى والصلاح، وكان هذا المربي الفاضل يمزق الأمر السلطاني إذا وجد به مخالفة للشرع ولا ينحنى للسلطان ويخاطبه باسمه مباشرة.

وكان لا يصافحه ولا يقبل يده، لذلك فإنا نجد أثر هذه التربية الصحيحة على محمد فنجده عند ولايته يعظم الشرع وعلماء الدين وأهل الورع والتقى، حتى كاد أن يقتل أحد أتباعه، لأنه قد قام بضرب أحد القضاة ورفض تنفيذ حكم الشرع الذي قضى به هذا القاضي، ونجد أن محمد الفاتح يجعل حاشيته وبطانته وخواصه من العلماء والصالحين.

وكان لا يسمع عن عالم في مكان أصابه عوز أو إملاق إلا بادر بمساعدته وكان من عادته في شهر رمضان أن يعقد مجلسًا بعد صلاة الظهر يحضره العلماء المتبحرون في التفسير فيقوم كل مرة واحد منهم بتفسير آيات من القرآن الكريم ويناقشه باقي العلماء وكان الفاتح يشاركهم في ذلك.

ويذكر عنه أنه لما انتصر على زعيم التركمان حسن الطويل وكان هذا الرجل دائم العدوان والغدر والتحالف مع أية ملة ضد العثمانيين، أمر الفاتح بقتل الأسرى إلا من كان من أهل العلم والمعرفة مثل القاضي محمد الشريحي الذي خرج مكرها مع الطويل، وكان هذا العالم من فضلاء زمانه فأكرمه الفاتح لعلمه رغم عدوانه.

وهكذا يقدم لنا محمد الفاتح مثالا حيّاً للطريقة المثلى لتربية القادة والزعماء. ويبرهن بالدليل القاطع على أن عملية إعداد القائد ليست مسألة عفوية تترك للظروف دونما تخطيط وأخذ بالأسباب، أو أنها مسألة نبوغ فردي شخصي لفرد يقتحم الصفوف وحده حتى يصل لسدة الحكم والقيادة، بل هى عملية شاقة وطويلة تبدأ منذ نعومة الأظافر لتنمية الملكات واكتشاف المهارات وصقل القدرات في عملية متتابعة لتنشئة القائد المرجو.

كما يتضح لنا من حياة الفاتح أن هذا الإعداد لا يقتصر على الجانب الديني والوازع الإيماني فقط، بل هي عملية بناء متكامل لقائد سوف يسوس أمة تعيش حياتها وتحتاج من يصلح لها حياتها، كما يحفظ لها الدنيا المليئة بالكثير من المتغيرات والمستجدات، التي تحتاج للجمع بين الأصالة والحداثة.

كما تؤكد طريقة تربية الفاتح أن التدريب العملي لوظيفة القائد هى التي سوف تظهر مدى سلامة وجدية المشروع القيادي ومدى صحة النموذج المطروح لذلك فإن البعض إذا كان خارج الولاية لم يبد منه أية شائبة أو

ناقصة ولكنه إذا دفع به لأرض الواقع وميدان التجربة تظهر عيوبه وخروقه، لذلك فلقد حرص الوالد مراد على اختبار الابن محمد فدفع به أولاً لمنصب الولاية على مقاطعة صغيرة، ثم دفع به بعد ذلك لأعلى درجة 'السلطنة'، ثم لم يتركه وحده يعاني مرارة التجربة وقسوة الاختبار بل ظل يسانده حتى اشتد عوده.

وهكذا يعطينا الفاتح صورة واضحة عن أن إعداد قائد عظيم يحتاج حتماً ولابد إلى معلمين وعلماء يتولون تربية وإعداد هذا القائد.

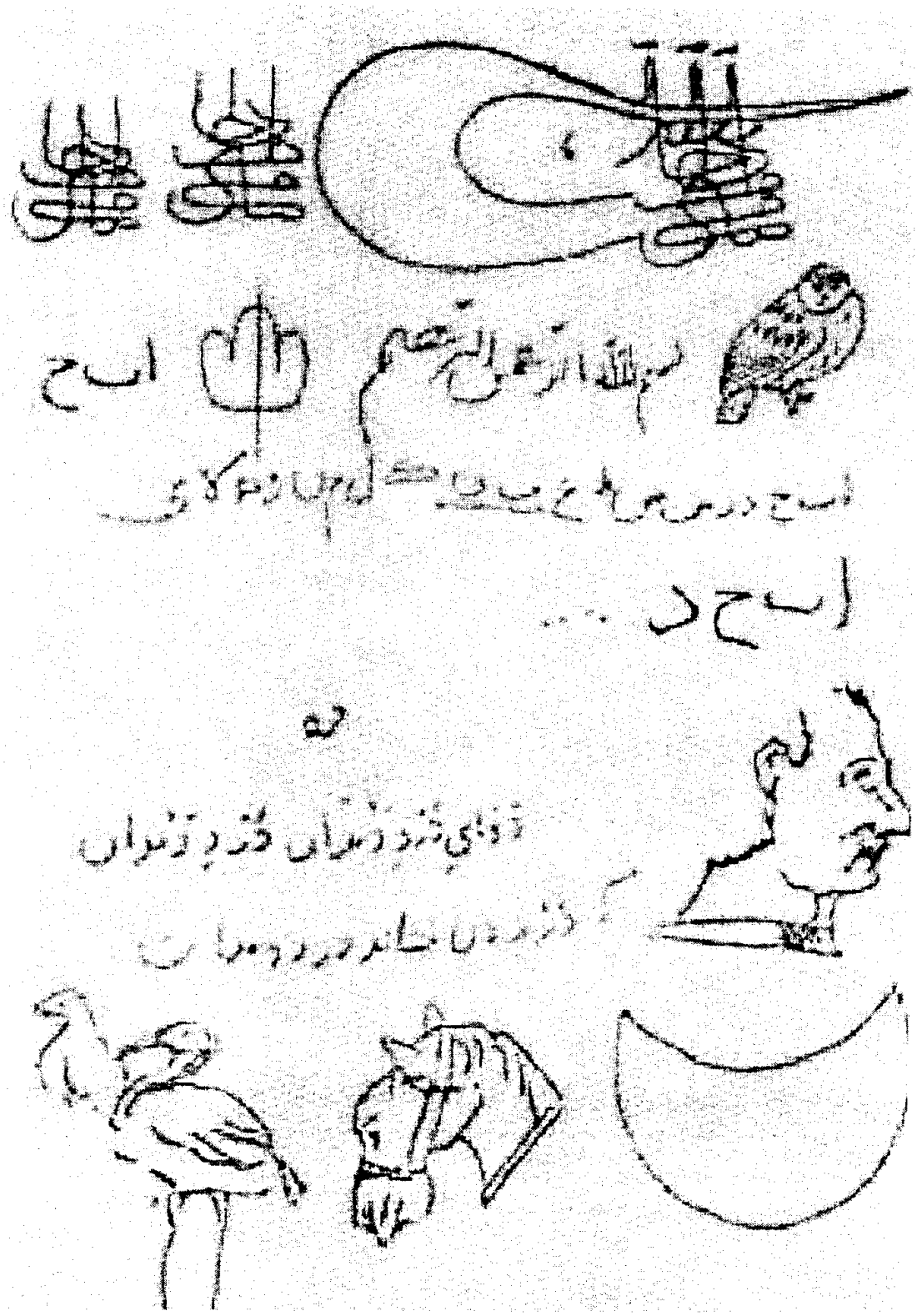

رسم بيد السلطان محمد الثاني مأخوذ من كتاب رسوماته عندما كان صبيًا، وتظهر في الأعلى طغرائه المكونة من حروف متشابكة.

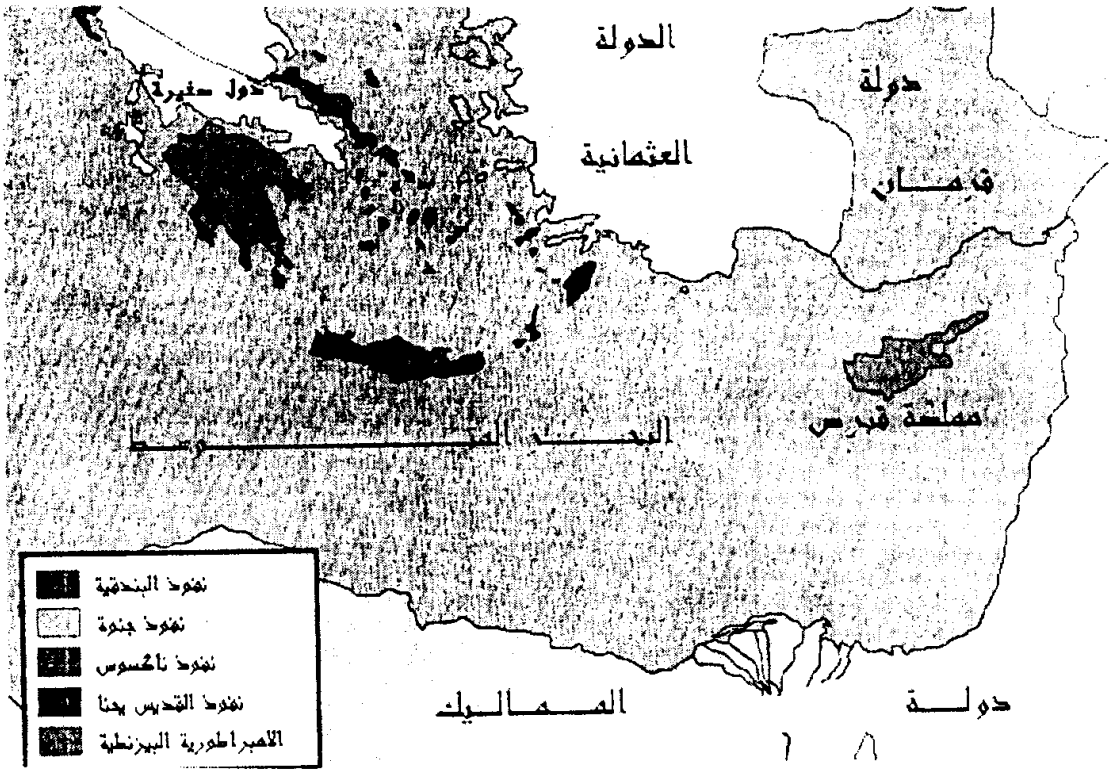

الدولة العثمانية والدول والإمارات المحيطة بها عام ١٤٥٠، أي قبل تربّع محمد الثاني على العرش بسنة واحدة.

3

الفصل الثالث

شخصية الفاتح ومشروعه الحضاري

شخصية الفاتح ومشروعه الحضاري

توقف المؤرخون طويلا عند شخصية السلطان محمد الفاتح، كل يحاول أن يسبر أغوار هذه الشخصية المتفردة، لدرجة أن البعض من مؤرخي أوربا اعتبرها لغزًا لا بد من فك طلاسمه.

فالرجل رغم حروبه وفتوحاته وعبقريته العسكرية الفذة لم يكن في النهاية رجل حرب بالمعنى المتعارف عليه، صحيح يضعه التاريخ في سجل قادته العظماء أمثال نابليون والإسكندر وهانيبال، ولكنه يختلف عنهم كل الاختلاف من أوجه كثيرة.

ولعل سر هذا الاختلاف هو مكونات شخصيته التي اجتمعت فيها خصال وخصال قلما تجتمع في شخصية واحدة من عظماء التاريخ.

كان السلطان محمد الفاتح قمحي اللون، متوسط الطول، متين العضلات، كثير الثقة بالنفس، ذا بصر ثاقب وذكاء حاد ومقدرة على تحمل المشاق، يُحسن ركوب الخيل واستعمال السلاح، كان محبّاً للتفوق، ميالاً للسيطرة طموحًا، سريعًا في فهم المواقف، يحسن معالجة الأمور، كبير اليقظة بعيد النظر، وكان محبّاً للعلماء ورجال الأدب ولا تخلو مائدته من بعضهم، ويجد متعة في مناقشتهم وسماع نتاجهم، واتخذ من ندمائه الأدباء والشعراء والفلاسفة ورجال الفكر، وكان السلطان يعيش حياة بسيطة للغاية لا تعدو القراءة والتدريب على فنون الحرب ثم الصيد، كان عدوّا للترف، عاداته غير معقدة، ومائدته بسيطة كل البساطة، كان بعيدًا عن الاختلاط

المبتذل في جو هادئ وسط أسرته ورجال دولته،أو في جو صاخب كله نزال ونضال وحرب.

والمتتبع لحياة الفاتح أثناء ولايته على المسلمين يجد أن هذا القائد العظيم كان يتمتع بصفات نذكر منها بعضها كالإخلاص، حيث إن كثيراً من المواقف التي سجلت في تاريخ الفاتح تدلنا على عمق إخلاصه لدينه وعقيدته، كمناجاته لربه التي تدل على حسن الصلة بالله ، وتكامل بناء شخصيته المسلمة حيث كان يقول:

- نيتي: امتثالي لأمر الله-﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (التوبة: ٤١).

- وحماسي: بذل الجهد لخدمة ديني دين الله.

- عزمي: أن أقهر أهل الكفر جميعًا بجنودي جند الله.

- وتفكيري: منصبٌّ على الفتح على النصر على الفوز بلطف الله.

- جهادي: بالنفس وبالمال.. فماذا في الدنيا بعد الامتثال لأمر الله؟!

- وأشواقي: الغزو مئات الآلاف من الموت لوجه الله.

- رجائي: في نصر الله وسمو الدولة على أعداء الله.

وكان الفاتح محبّاً للعلم، فلقد نشأ الفاتح على حب العلم والعلماء وخضع منذ صغره لنظام تربوي علمي متكامل، فتعلم القرآن والحديث والفقه والعلوم العصرية وكان يكتب الشعر بالتركية . وبرع في علم الفلك وكان يشرف بنفسه على صناعة المدافع ويجربها بنفسه، وهذه الصفة جعلته يجل ويحترم العلماء ويجعلهم خاصته ومستشاريه . وأكبر دليل على علمه وذكائه الوقّاد ما فعله أثناء حصار القسطنطينية عندما نقل سفن الأسطول العثماني على ألواح خشب ضخمة مدهونة بالزيت والشحم، وذلك لمسافة ثلاثة كيلو مترات على أرض اليابسة في فكرة عبقرية تدل على سعة علمه وذكائه الفذ.

ومن أهم ما كان يميز الفاتح العزيمة والإصرار، وهذا يتضح جليّاً من إصراره لفتح القسطنطينية رغم المتاعب الجمة التي لاقاها أثناء ذلك ومما يؤثَر عنه أنه لما جاءه رفض قسطنطين بتسليم المدينة قال كلمته الشهيرة:

"حسناً عن قريب سيكون لي في القسطنطينية عرش أو يكون لي فيها قبر".

وعندما استطاع البيزنطيون أن يحرقوا القلعة الخشبية الضخمة المتحركة كان رده:

"غدًا نصنع أربعًا أخرى" وكان من شدة حزمه أنه كلما ظهر تقصير أو تكاسل من قواده فإنه كان يعزله فورًا كما فعل مع قائد أسطوله بالطه أوغلي عند حصاره للقسطنطينية وقال له:

"إما أن تستولى على هذه السفن وإما أن تغرقها، وإذا لم توفق في ذلك فلا ترجع إلينا".

وكان من عزمه أن يواصل الغزو والفتح حتى يفتح إيطاليا ويربط حصانه بكنيسة القديس بولس 'الفاتيكان' ويعلف الشعير في مذبح الكنيسة لحصانه، ومات وهو خارج للجهاد لفتح إيطاليا.

وكان لدى الفاتح شجاعة وجرأة وإقدام ما بعده إقدام، فقد كان رحمه الله يخوض المعارك بنفسه ويقاتل الأعداء بسيفه.

وفي إحدى المعارك في بلاد البلقان تعرض الجيش العثماني لكمين من قبل زعيم البوغدان" جنوب رومانيا" استفان حيث تخفّى مع جيشه خلف الأشجار الكثيفة المتلاصقة.

وبينما المسلمون بجانب تلك الأشجار انهمرت عليهم نيران المدافع الشديدة من بين الأشجار وانبطح الجنود على وجوههم.

وكاد الاضطراب يسود صفوف الجيش، لولا أن سارع محمد الفاتح

وتباعد عن مرمى المدافع وعنف رئيس الإنكشارية محمد الطرابزوني على تخاذل جنده ثم صاح فيهم:

"أيها الغزاة المجاهدون كونوا جند الله ولتكن فيكم الحميَّة الإسلامية". وأمسك بالترس واستل سيفه وركض بحصانه واندفع به إلى الأمام لا يلوي على شيء وألهب بذلك نار الحماس في جنده فانطلقوا وراءه واقتحموا الغابة على من فيها ونشب بين الأشجار قتال عنيف بالسيوف استمر من الضحى إلى الأصيل.

ويضاف إلى ما سبق من صفات الفاتح صفة مهمة للغاية وحاسمة في حياته، وهى عدم الاغترار بقوة النفس وكثرة الجند وسعة السلطان، فنجده عند دخول القسطنطينية يقول:

" حمدًا لله.. ليرحم الله الشهداء، ويمنح المجاهدين الشرف والمجد، ولشعبي الفخر والشكر"، فها هو قد أسند الفضل إلى الله، ولذلك لهج لسانه بالحمد والثناء والشكر لمولاه الذي نصره وأيده، وهذا يدل على عمق إيمانه بالله- سبحانه وتعالى.

وبعد أن اتضح لنا في المرحلة الأولى كيف تربى محمد ليكون قائدًا مسلمًا يجب أن ننتقل لمرحلة ما بعد الولاية والحكم وهى تنقسم إلى عدة مراحل.

أولى هذه المراحل هى مرحلة التجديد الجهادي. وهي المرحلة التي استمرت طيلة حياة الفاتح بدءًا من فتح القسطنطينية مروراً بفتح جنوب اليونان وشمال رومانيا وبلاد البوسنة، حتى محاولة فتح إيطاليا حتى مات رحمه الله أثناء خروجه للجهاد في سبيل الله لفتح إيطاليا , وتلك المرحلة استولت على معظم حياة الفاتح المليئة بالفتوحات والغزوات، ولعل الطريقة والإعداد لفتح القسطنطينية تحتاج إلى موضوع مستقل للتكلم عنها وأسباب الانتصار والفتح.

أما المرحلة الثانية فهى مرحلة البناء الحضاري: يخطئ البعض عندما يظن أن الكلام عن البناء الحضاري والتوسع العمراني نوع من الركون إلى الدنيا، والخلود إلى الأرض، وأنه مذموم بالكتاب والسنة وهذا الأمر وهذا التصور الخاطئ بالغ الخطورة ذلك لأن البناء الحضاري هو القاعدة الضرورية الصلبة للتحقق من أي انتصار في ميادين الجهاد، فما معنى الانتصار والغزو والفتح إذا لم تتحول تلك الانتصارات لإنجاز حضاري يستوعب شعوب البلاد المفتوحة، فلا قيمة لهذه الفتوحات وهذا الفهم أدركه تمامًا السلطان محمد الفاتح فكان مشروعه الحضاري متكاملاً حيث إنه:

- اهتم بالناحية العلمية اهتمامًا بالغًا تبعًا لتربيته العلمية والإيمانية، فأنشأ الكثير من المدارس والمعاهد وعمل على جلب العلماء والأدباء من شتى أنحاء الدنيا وعمل على تطوير مناهج التعليم وكان من أوائل الناس الذين وضعوا فكرة الامتحان الذي لابد من النجاح فيه للجواز للمرحلة التالية وأنشأ مكتبة ضخمة بمسجده الذي بناه بالقسطنطينية وعمل على ترجمة أمهات الكتب الأجنبية في شتى فروع المعرفة خاصة الطب والصيدلة والفلك.

- اهتم الفاتح ببناء المساجد والمستشفيات والحمامات والأسواق الكبيرة والحدائق العامة وأنشأ مستشفى عامًا بالمعنى المعروف وعلى النظم المعمول بها الآن، وكان العلاج فيه مجانيًا بدون تمييز بين الرعية.

- توسع الفاتح في الاهتمام بالتجارة والصناعة والتنظيمات الإدارية وشكل لجنة من خيار العلماء لتشرف على وضع 'قانون نامة' المستمد من الشريعة، وجعله أساسًا لحكم دولته واهتم بتنظيم العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين، ووضع نظامًا لحكام الأقاليم ونواب الولايات بصورة تشبه لحد بعيد التقسيم السائد الآن.

كل ذلك وكان محمد الفاتح على دراية تامة بما يجري على أرض دولته، وكان كثيراً ما ينزل ليلاً يستمع لكلام الناس وشكواهم بنفسه بيقظة واهتمام، وأعانه على ذلك رجال دولته الأكفاء.

ولعل من المفيد هنا أن نتوقف - بشيء من التفصيل - عند تأثير شخصية الفاتح الهائل على نجاحه في تنفيذ مشروعه الحضاري، وإقامة الدولة المتطورة والعادلة التي يبتغيها.

كان محمد الفاتح -كما أسلفنا- محبّاً للعلم والعلماء، لذلك اهتم ببناء المدارس والمعاهد في كل أرجاء دولته، وفاق أجداده في هذا المضمار، وبذل جهوداً كبيرة في نشر العلم وإنشاء دور التعليم، وأدخل بعض الإصلاحات في نظام التعليم وأشرف على تهذيب المناهج وتطويرها، وحرص على نشر المدارس والمعاهد في كافة المدن والقرى وأوقف عليها الأوقاف العظيمة.

نظّم هذه المدارس ورتّبها على درجات ومراحل، ووضع لها المناهج، وحدد العلوم والمواد التي تُدرّس في كل مرحلة، ووضع لها نظام الامتحانات الدقيقة للانتقال للمرحلة التي تليها، وكان ربما يحضر امتحانات الطلبة ويزور المدارس ولا يأنف من سماع الدروس التي يلقيها الأساتذة، ولا يبخل بالعطاء للنابغين من الأساتذة والطلبة، وجعل التعليم في كل مدارس الدولة بالمجان، وكانت المواد التي تدرس في تلك المدارس: التفسير والحديث والفقه والأدب والبلاغة وعلوم اللغة والهندسة، وأنشأ بجانب مسجده الذي بناه بالقسطنطينية ثماني مدارس على كل جانب من جوانب المسجد يتوسطها صحن فسيح، وفيها يقضي الطالب المرحلة الأخيرة من دراسته، وألحقت بهذه المدارس مساكن الطلبة ينامون فيها ويأكلون طعامهم ووضعت لهم منحة مالية شهرية، وأنشأ بجانبها مكتبة خاصة، وكان يُشترط في الرجل الذي يتولى أمانة هذه المكتبة أن يكون من أهل العلم والتقوى متبحرًا في أسماء الكتب والمؤلفين، وكانت مناهج المدارس تتضمن نظام التخصص،

فكان للعلوم النقلية والنظرية قسم خاص وللعلوم التطبيقية قسم خاص أيضًا.

وقرّب الفاتح العلماء ورفع قدرهم وشجعهم على العمل والإنتاج وبذل لهم الأموال ووسع لهم في العطايا والمنح والهدايا وكرّمهم غاية الإكرام، ولما هزم"أوزون حسن"، أمر السلطان بقتل جميع الأسرى إلا من كان من العلماء وأصحاب المعارف ليستفاد منهم.

وكان من مكانة الشيخ"أحمد الكوراني" أنه كان يخاطب السلطان باسمه ولا ينحني له، ولا يقبل يده بل يصافحه مصافحة، وكان لا يأتي إلى للسلطان إلا إذا أرسل إليه، وكان يقول له:"مطعمك حرام وملبسك حرام فعليك بالاحتياط". وكذلك بالنسبة للشيخ"آق شمس الدين" الذي درّس للسلطان محمد الفاتح العلوم الأساسية في ذلك الزمن وهى القرآن الكريم والسنة النبوية والفقه والعلوم الإسلامية واللغات العربية، والفارسية والتركية وكذلك في مجال العلوم العلمية من الرياضيات والفلك والتاريخ والحرب.

وكان الشيخ آق ضمن العلماء الذين أشرفوا على السلطان محمد عندما تولى إمارة"أماسيا" ليتدرب على إدارة الولاية، وأصول الحكم.

واستطاع الشيخ آق شمس الدين -وكما ذكرنا- أن يقنع الأمير الصغير بأنه المقصود بالحديث النبوي:"لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش".

وكان الشيخ آق شمس الدين أول من ألقى خطبة الجمعة في مسجد آياصوفيا.

وكان السلطان محمد الفاتح يحب شيخه شمس الدين حبّاً عظيمًا، وكانت له مكانة كبيرة في نفسه وقد بين السلطان لمن حوله -بعد الفتح-:

" إنكم ترونني فرحًا. فرحي ليس فقط لفتح هذه القلعة إن فرحي يتمثل

في وجود شيخ عزيز الجانب، في عهدي، هو مؤدبي الشيخ آق شمس الدين".

وعبّر السلطان عن مهابته لشيخه في حديث له مع وزيره "محمود باشا"، حيث قال:"إن احترامي للشيخ آق شمس الدين، احترام غير اختياري. إنني أشعر وأنا بجانبه بالانفعال والرهبة".

وكان شاعرًا مجيدًا مهتمّاً بالأدب عامة والشعر خاصة، وكان يصاحب الشعراء ويصطفيهم، واستوزر الكثيرين منهم، وكان في بلاطه ثلاثون شاعراً يتناول كل منهم راتباً شهرياً قدره ألف درهم، وكان مع هذا ينكر على الشعراء التبذل والمجون ويعاقب من يخرج عن الآداب بالسجن أو يطرده من بلاده.

وأتقن اللغة اليونانية وست لغات أخرى عندما بلغ من العمر ٢١ عاماً، أي في السنة التي فتح فيها القسطنطينية، وأمر بنقل كثير من الآثار المكتوبة باليونانية واللاتينية والعربية والفارسية إلى اللغة التركية، ونقل إلى التركية كتاب التصريف في الطب للزهراوي، وعندما وجد كتاب بطليموس في الجغرافيا وخريطة له طلب من العالم الرومي "جورج أميروتزوس" وابنه أن يقوما بترجمته إلى العربية وإعادة رسم الخريطة باللغتين العربية واليونانية وكافأهما على هذا العمل بعطايا واسعة، وقام العلامة القوشجي بتأليف كتاب بالفارسية ونقله للعربية وأهداه للفاتح.

كما كان مهتمّاً باللغة العربية فقد طلب من المدرسين بالمدارس الثماني أن يجمعوا بين الكتب الستة في تدريسهم وبين علم اللغة كالصحاح.. ودعم الفاتح حركة الترجمة والتأليف لنشر المعارف بين رعاياه بالإكثار من نشره المكاتب العامة وأنشأ له في قصره خزانة خاصة احتوت على غرائب الكتب والعلوم، وكان بها اثنا عشر ألف مجلد عندما احترقت.

وكان السلطان محمد الفاتح مغرماً ببناء المعاهد والقصور والمستشفيات

والخانات والحمامات والأسواق الكبيرة والحدائق العامة، وأدخل المياه إلى المدينة بواسطة قناطر خاصة. شجع الوزراء وكبار رجال الدولة والأغنياء والأعيان على تشييد المباني وإنشاء الدكاكين والحمامات وغيرها من المباني التي تعطى المدن بهاء ورونقاً، واهتم بالعاصمة "إسلامبول" اهتماماً خاصّاً، وكان حريصاً على أن يجعلها "أجمل عواصم العالم" و"حاضرة العلوم والفنون".

وقد كثر العمران في عهد الفاتح وانتشر، واهتم بدور الشفاء، ووضع لها نظاماً مثاليّاً في غاية الروعة والدقة والجمال، فقد كان يعهد بكل دار من هذه الدور إلى طبيب- ثم زيد إلى اثنين- من حذاق الأطباء من أي جنس كان، يعاونهما كحال (طبيب عيون) وجراح وصيدلي وجماعة من الخدم والبوابين، ويشترط في جميع المشتغلين بالمستشفى أن يكونوا من ذوي القناعة والشفقة والإنسانية، ويجب على الأطباء أن يعودوا المرضى مرتين في اليوم، وأن لاتصرف الأدوية للمرضى إلا بعد التدقيق من إعدادها، وكان يشترط في طباخ المستشفى أن يكون عارفاً بطهي الأطعمة والأصناف التي توافق المرضى منها، وكان العلاج والأدوية في هذه المستشفيات بالمجان ويغشاها جميع الناس بدون تمييز بين أجناسهم وأديانهم.

ولعلّ أبرز آثار السلطان العمرانية هو قصر الباب العالي الذي أمر بالبدء ببنائه قرابة عقد الستينيات من القرن الخامس عشر، إضافة إلى مسجده الذي حمل اسمه، وآيا صوفيا بطبيعة الحال التي أمر بتحويلها من كنيسة إلى مسجد.

واهتم السلطان محمد الفاتح بالتجارة والصناعة وعمل على إنعاشهما بجميع الوسائل والعوامل والأسباب.

وكان العثمانيون على دراية واسعة بالأسواق العالمية، وبالطرق البحرية والبرية وطوروا الطرق القديمة، وأنشأوا الجسور الجديدة مما سهل حركة

التجارة في جميع أجزاء الدولة، واضطرت الدول الأجنبية لمسايسة الدولة العثمانية ليمارس رعاياها حرفة التجارة في الموانئ المهمة العديدة في ظل الراية العثمانية. كان من أثر السياسة العامة للدولة في مجال التجارة والصناعة أن عم الرخاء وساد اليسر والرفاهية في جميع أرجاء الدولة، وأصبحت للدولة عملتها الذهبية المتميزة، ولم تهمل الدولة إنشاء دور الصناعة ومصانع الذخيرة والأسلحة، وأقامت القلاع والحصون في المواقع ذات الأهمية العسكرية في البلاد.

وعمل السلطان محمد الفاتح على تطوير دولته؛ ولذلك قنن قوانين حتى يستطيع أن ينظم شؤون الإدارة المحلية في دولته، وكانت تلك القوانين مستمدة من الشريعة الإسلامية. شكل السلطان محمد لجنة من خيار العلماء لتشرف على وضع"قانون نامه" المستمد من الشريعة المذكورة وجعله أساساً لحكم دولته، وكان هذا القانون مكوناً من ثلاثة أبواب، يتعلق بمناصب الموظفين وببعض التقاليد وما يجب أن يتخذ من التشريفات والاحتفالات السلطانية وهو يقرر كذلك العقوبات والغرامات، ونص صراحة على جعل الدولة حكومة إسلامية قائمة على تفوق العنصر الإسلامي أيّاً كان أصله وجنسه.

اهتم محمد الفاتح بوضع القوانين التي تنظم علاقة السكان من غير المسلمين بالدولة ومع جيرانهم من المسلمين، ومع الدولة التي تحكمهم وترعاهم، وأشاع العدل بين رعيته، وجدّ في ملاحقة اللصوص وقطاع الطرق، وأجرى عليهم أحكام الإسلام، فاستتب الأمن وسادت الطمأنينة في ربوع الدولة العثمانية. وعندما كانت الدولة تعلن الجهاد وتدعو أمراء الولايات وأمراء الألوية، كان عليهم أن يلبوا الدعوة ويشتركوا في الحرب بفرسان يجهزونهم تجهيزاً تامّاً، وذلك حسب نسب مبينة، فكانوا يجهزون فارساً كامل السلاح قادراً على القتال عن كل خمسة آلاف آقجه من إيراد إقطاعه، فإذا كان إيراد إقطاعه خمسمائة ألف آقجة مثلاً كان عليه أن

يشترك بمائة فارس، وكان جنود الإيالات مؤلفة من مشاة وفرسان، وكان المشاة تحت قيادة وإدارة باشوات الإيالات وبكوات الألوية. قام محمد الفاتح بحركة تطهير واسعة لكل الموظفين القدماء غير الأكفاء وجعل مكانهم الأكفاء، واتخذ الكفاءة وحدها أساسًا في اختيار رجاله ومعاونيه وولاته.

وتميز عصر السلطان محمد الفاتح بجانب قوة الجيش البشرية وتفوقه العددي، بإنشاءات عسكرية عديدة متنوعة، فأقام دور الصناعة العسكرية لسد احتياجات الجيش من الملابس والسروج والدروع ومصانع الذخيرة والأسلحة، وأقام القلاع والحصون في المواقع ذات الأهمية العسكرية، وكانت هناك تشكيلات متنوعة في تمام الدقة وحسن التنظيم من فرسان ومشاة ومدفعية وفرق مساعدة، تمد القوات المحاربة بما تحتاجه من وقود وغذاء وعلف للحيوان وإعداد صناديق الذخيرة حتى ميدان القتال.

وكان هناك صنف من الجنود يسمى،"لغمجية" وظيفته الحفر للألغام وحفر الأنفاق تحت الأرض أثناء محاصرة القلعة المراد الاستيلاء عليها، وكذلك السقاؤون كان عليهم تزويد الجنود بالماء. تطورت الجامعة العسكرية في زمن الفاتح وأصبحت تخرج الدفعات المتتالية من المهندسين والأطباء والبيطريين وعلماء الطبيعيات والمساحات، وكانت تمد الجيش بالفنيين المتخصصين. استحق معه أن يعده المؤرخون مؤسس الأسطول البحري العثماني، ولقد استفاد من الدول التي وصلت إلى مستوى رفيع في صناعة الأساطيل مثل الجمهوريات الإيطالية وبخاصة البندقية وجنوة، أقوى الدول البحرية في ذلك الوقت.

ولما كانت إقامة العدل بين الناس من واجبات السلاطين العثمانيين، فقد كان السلطان محمد شأنه في ذلك شأن من سلف من آبائه- شديد الحرص على إجراء العدالة في أجزاء دولته.

ولكي يتأكد من هذا الأمر كان يرسل بين الحين والحين إلى بعض رجال

الدين من النصارى بالتجوال والتطواف في أنحاء الدولة، ويمنحهم مرسومًا مكتوبًا يبين مهمتهم وسلطتهم المطلقة في التنقيب والتحري والاستقصاء، لكي يطلعوا كيف تساس أمور الدولة وكيف يجري ميزان العدل بين الناس في المحاكم.

وقد أعطى هؤلاء المبعوثون الحرية الكاملة في النقد وتسجيل ما يرون ثم يرفعون ذلك كله إلى السلطان.

وكانت تقارير هؤلاء المبعوثين المسيحيين تشيد دائمًا بحسن سير المحاكم وإجراء العدل بالحق والدقة بين الناس بدون محاباة أو تمييز، وكان السلطان الفاتح عند خروجه إلى الغزوات يتوقف في بعض الأقاليم وينصب خيامه ليجلس بنفسه للمظالم ويرفع إليه من شاء من الناس شكواه ومظلمته.

واعتنى الفاتح بوجه خاص برجال القضاء الذين يتولون الحكم والفصل في أمور الناس، فلا يكفي في هؤلاء أن يكونوا من المتضلعين في الفقه والشريعة والاتصاف بالنزاهة والاستقامة، وحسب، بل لا بد إلى جانب ذلك أن يكونوا موضع محبة وتقدير بين الناس، وأن تتكفل الدولة بحوائجهم المادية حتى تسد طرق الإغراء والرشوة، فوسع لهم الفاتح في عيشهم كل التوسعة، وأحاط منصبهم بحالة مهيبة من الحرمة والجلالة والقداسة والحماية.

أما القاضي المرتشي فلم يكن له عند الفاتح من جزاء غير القتل.

وكان السلطان الفاتح - برغم اشتغاله بالجهاد والغزوات - إلا أنه كان يتتبع كل ما يجري في أرجاء دولته بيقظة واهتمام، وأعانه على ذلك ما حباه الله من ذكاء قوي وبصيرة نفاذة وذاكرة حافظة وجسم قوي، وكان كثيرًا ما ينزل بالليل إلى الطرقات والدروب ليتعرف على أحوال الناس ويستمع إلى شكاواهم بنفسه.

كما ساعده على معرفة أحوال الناس جهاز أمن الدولة الذي كان يجمع المعلومات والأخبار التي لها علاقة بالسلطنة وترفع إلى السلطان، الذي كان يحرص على دوام المباشرة لأحوال الرعية، وتفقد أمورها والتماس الإحاطة بجوانب الخلل في أفرادها وجماعاتها.

رسم للسلطان محمد الفاتح وهو يشم رائحة زهرة، من كتاب رسومات السلاطين من قصر الباب العالي.

مسجد السلطان محمد الفاتح.

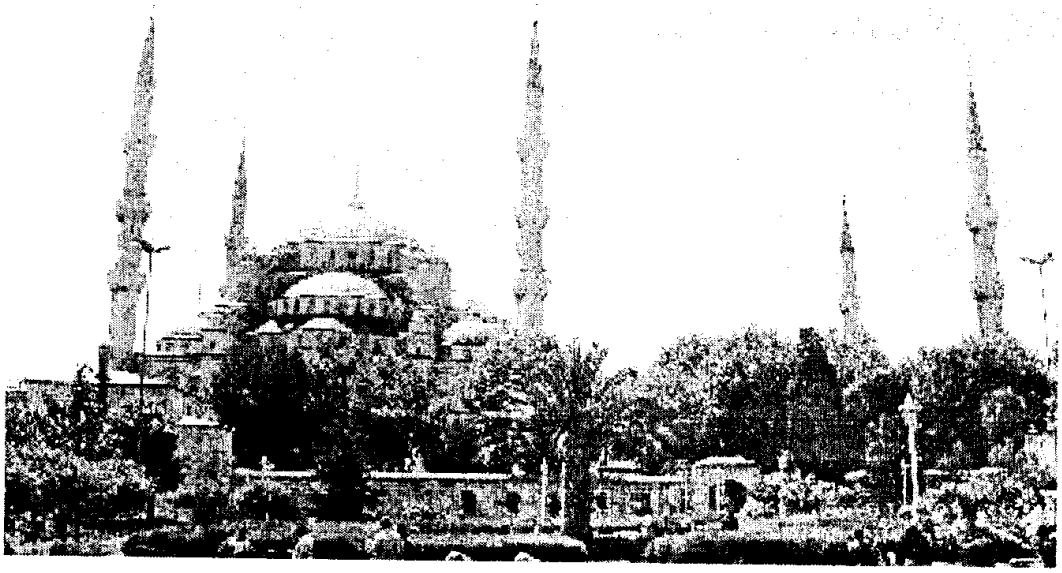

آيا صوفيا، المآذن الأربعة تم بناؤها بعد فتح القسطنطينية وتحويل الكنيسة إلى مسجد.

4

الفصل الرابع

قصة البشارة

قصـــــة البشـــــارة

عن عبد الله بن بشر الخثعمي عن أبيه أنه سمع النبيَّ- صلى الله عليه وسلم- يقول:"لتفتحنَّ القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش" (أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين٤/٤٦٨، ورواه الإمام أحمد برقم ١٨٤٧٨، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد رقم ١٠٠٠٦ رواه أحمد والبزار والطبراني ورجاله ثقات).

وبسبب هذه البشارة، استمر تنافس خلفاء المسلمين وقادتهم عبر العصور المختلفة لفتح القسطنطينية، طمعًا في أن يتحقق فيهم حديث الرسول-صلى الله عليه وسلم- وقد بذل المسلمون ١١ محاولةً خلال ٨٠٠ عام قبل محمد الفاتح لنيل هذه البشارة، وما أعظم أن تجنِّد الأمةُ نفسَها من أجل تحقيق حديث لرسول الله- صلى الله عليه وسلم.

وبسبب هذه البشارة ظل فتح القسطنطينية حلمًا يراود المسلمين عبر السنين، وبدأ التفكير في فتحها يراود خيال خلفاء المسلمين منذ بداية العصر الأموي؛ فعندما ولي الخليفة"معاوية بن أبي سفيان" خلافةَ المسلمين كان في مقدمة الأهداف التي وضعها نصب عينيه فتح القسطنطينية، تلك المدينة الجميلة الساحرة، أشهر مدن الدولة البيزنطية وعاصمتها المتألقة، فأرسل إليها أولى الحملات الإسلامية سنة ٤٤هـ ولم تنجح هذه الحملة، وقد تكررت حملات أخرى في عهده حظيت بنفس النتيجة.

وقد دُفن الصحابي الجليل سيدنا أبو أيوب الأنصاري- بناءً على

وصيته- على أسوار القسطنطينية؛ حتى تظل أنظار المسلمين متعلقةً بهذه المدينة التي بشر رسول الله- صلى الله عليه وسلم- بفتحها.

كان فتح القسطنطينية الحدث التاريخي الأعظم في القرن-١٥ م،كما يعتبره معظم المؤرخين نهاية للعصور الوسطى وبداية -للعصر الحديث في أوربا بالإضافة إلى أنه أدى إلى سقوط -إمبراطورية عريقة استمرت لعدة قرون وهى"الإمبراطورية -البيزنطية"-.

وقد انتظر المسلمون أكثر من ثمانية قرون حتى تحققت البشارة النبوية بفتح مدينة القسطنطينية-.

والقسطنطينية أو استنبول، أو اسطنبول، أو الآستانة. مدينة في تركيا على ضفتي البوسفور. هي بيزنطيا القديمة. أسسها الإغريق الأقدمون في القرن السابع قبل الميلاد. جعلها قسطنطين إمبراطور روما عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية وأسماها باسمه (القسطنطينية) عام ٣٣٠ م.

وقد استمرت بيزنطة كقاعدة للإمبراطورية البيزنطية إلى أن فتحها الأتراك العثمانيون عام ١٤٥٣، وفيها استقر السلاطين حتى نقل مصطفى كمال أتاتورك العاصمة إلى أنقرة عام ١٩٢٣.

وحين دخل محمد الفاتح القسطنطينية، أطلق عليها (إسلام بول)أو الآستانة وبدخوله صارت المدينة عاصمة السلطنة العثمانية. ثم تم تغيير اسمها في عام ١٩٣٠ إلى إسطنبول بأمر أتاتورك.

وقد تأسست المدينة عام ٦٥٨ ق.م. وكانت من قبل قرية للصيادين. وتعرف باسم بيزنطة وفي عام ٣٣٥ م جعلها الإمبراطور قسطنطين عاصمة للإمبراطورية الرومانية الشرقية (الإمبراطورية البيزنطية) وأصبح يطلق عليها القسطنطينية على اسم الإمبراطور قسطنطين مؤسس الإمبراطورية، وكان بها مقر بطريركية الكنيسة الإرثوذكسية الشرقية كنيسة آيا صوفيا.

وقد تراجعت أحوال المدينة على أثر وفاة الإمبراطور جوستنيان العظيم. وفقدت الكثير من مناعتها جراء الحملة الصليبية الرابعة التي أنهكت دفاعاتها. فالمدينةلم تستطع في مائتي عام أن تتعافى من سبي اللاتين أهلها وحرقهم بيوتها ومبانيها وساحاتها.

وإذا كان الانشقاق الكبير ما بين الكنيستين قد حصل عام ١٠٥٤ نتيجة التنافس على الأولوية بين أباطرة الشرق والغرب وأحبارهم، فإن الانشقاق قد اتسع كثيرًا في العام ١٢٠٤، مع دخول الجيوش الصليبية المدينة وحرقها مبانيها العامة والخاصة وانتهاكها حرمة كنائسها.

بعد أن فتح العثمانيون مدينة القسطنطينية،قوضوا الإمبراطورية الرومانية الشرقية، وفتحوا أراضيها في منطقة البلقان أساسًا وفي غيرها، ومازالت منطقة القسطنطينية، أي مدينة الآستانة كما أطلقوا عليها وما حولها، هي الجزء الأوربي من السلطنة التي انحصرت في تركيا الحديثة حتى الآن.

فقد انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين : الإمبراطورية الرومانية الشرقية، والإمبراطورية الرومانية الغربية.

وقام الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الأول ببناء مدينة القسطنطينية عام ٣٣٠م لتكون مقرّاً للعاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية التى عرفت فيما بعد باسم الإمبراطورية البيزنطية.

وتقع مدينة"القسطنطينية" عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) على الأراضى الأوربية بالقارة الأوربية، وقد سميت فيما بعد باسم مدينة"إستانبول" بعد غزوها واحتلالها وهى فى الجزء الأوربى من تركيا.

ويحدها من الشمال البحر الأسود ومن الشرق بحر مرمرة ومن الجنوب بحر إيجة ومن الغرب شريط ضيق من الأرض متصل بقارة أوربا.

وقد اختار قسطنطين موقع مدينته لأن لها أهمية إستراتيجية فموقعها يعد أهم نقاط الاتصال بين قارة آسيا وقارة أوربا، وكانت من أحصن المواقع الإستراتيجية فى العالم.

وتعتبر مفتاح أوربا من الشرق. وكانت هذه المنطقة هى مدخل للفرس وللقبائل الغازية إلى أوربا على مر التاريخ وحتى قبل انخراط شعوبها فى أديان.

وبنيت القسطنطينية بحيث تكون موقعًا منيعًا، حبته الطبيعة بأبدع ما تحبو به المدن العظيمة، محاطة بالمياه البحرية في ثلاث جبهات يحدها من الشرق مضيق البسفور، وبحر مرمرة، والقرن الذهبي الذي كان محميّاً بسلسلة ضخمة جدًا تتحكم في دخول السفن إليه، ويمتد على طول كل منها سور واحد.

أما الجانب الغربي فهو الذي يتصل بالقارة الأوربية ويحميه سوران طولهما أربعة أميال يمتدان من شاطئ بحر مرمرة إلى شاطئ القرن الذهبي، يتخللها نهر ليكوس.

ويبلغ ارتفاع السور الداخلي منهما نحو أربعين قدمًا ومدعوم بأبراج يبلغ ارتفاع كل منها ستين قدما.

وتبلغ المسافة بين كل برج وآخر نحو مائة وثمانين قدما. وأما السور الخارجي فيبلغ ارتفاعه قرابة خمس وعشرين قدمًا وعليه أبراج موزعة مليئة بالجند.

ولما كانت القسطنطينية قد بنيت بحيث تصد غارات الأعداء فى زمن لم تكن قد اخترعت فيه المدافع ولا البنادق ولا المتفجرات، فقد كان من المستحيل اقتحامها إلا عن طريق تمرد داخلى أوخيانة، وقد تمكن السلطان محمد الثانى من فتحها بفضل تحديث جيشه على النسق الأوربى.

أما السور الخارجي، فيبلغ ارتفاعه خمسة وعشرين قدما، ومحصن

أيضا بأبراج شبيهة بأبراج السور الأول، وبين السورين فضاء يبلغ عرضه ما بين خمسين وستين قدما.

وكانت مياه القرن الذهبي الذي يحمي ضلع المدينة الشمالي الشرقي يغلق بسلسلة حديدية هائلة يمتد طرفاها عند مدخله بين سور غلطة وسور القسطنطينية.

ويذكر المؤرخون العثمانيون أن عدد المدافعين عن المدينة المحاصرة بلغ أربعين ألف مقاتل.

وانقسمت أوربا فى صراع سياسى مع بعضها ففرنسا أكبر هذه القوى كانت منهكة فى حربها مع إنجلترا فى حرب المائة عام (١٣٤٠ - ١٤٣٣ م) فساعد العثمانيين هذا الانقسام فى القوى السياسية والعسكرية الأوربية، وساعدهم أيضا انقسامهم الدينى بسبب الصراع المذهبي بين كل من الكنيسة الأرثوذكسية والكاثوليكية.

وقد أُطلقت على المدينة أسماء عدة من بينها :

- "بيزنطيوم" : فعندما أسس اليونانيون المدينة أطلقوا عليها اسم" بيزنطيوم"، وقد اتخذها الإمبراطور قسطنطين عاصمة للجهة الشرقية للإمبراطورية الرومانية عام ٣٢٤ بعد الميلاد .
- "نوفا روم" : فقد أعاد الإمبراطور قسطنطين تسميتها وأطلق عليها اسم روما الجديدة" نوفا روم".
- "القسطنطينية" : حيث لم يلاق الاسم الذى أطلقه الإمبراطور على المدينة إقبالاً شعبيّاً. وسرعان ما تلاشى لتتخذ المدينة اسمها من الإمبراطور قسطنطين.
- "إسلام بول" : فبعد معارك شرسة وحصار طويل غزا السلطان محمد الثانى في عام ٨٥٧هـ ١٤٥٣ م القسطنطينية وأصبحت تحت حكم السلطان العثماني محمد الفاتح، الذى أطلق عليها اسم" إسلام بول"(الذى تعنى باللغة التركية مدينة الإسلام).

بعد ذلك، قام السلطان محمد الفاتح بتغيير الكثير من معالم المدينة الرومانية القديمة فحول كنيسة"آيا صوفيا" إلى مسجد ، وذلك بالاحتفاظ بها وإقامة أربع منارات إسلامية حولها، وقام ببناء مسجد عند ضريح أبى أيوب الأنصارى، وبعد ذلك أصبح تنصيب السلاطين يتم عند هذا المسجد.

وبعد وفاة بايزيد الثانى بن محمد الفاتح، تسلم السلطة سليم الأول الذى ضم المشرق الإسلامى وشمال إفريقيا إلى الدولة العثمانية وانتقلت رئاسة الحكم الإسلامي من القاهرة إلى إستانبول.

واستمرت استانبول عاصمة لدولة السلطنة العثمانية إلى أن انتقلت العاصمة من إستانبول إلى أنقرة وسط الأناضول عام (١٩٢٣).

وعودة إلى قصة البشارة سنجد أن المسلمين قد حاصروا القسطنطينية إحدى عشرة مرة قبل المرة -الأخيرة التي تم فيها فتحها، منها سبع في القرنين الأولين -للإسلام.

لكن المدينة المحصنة ظلت صامدة أمام هذه المحاولات -المتعددة التي قام بها المسلمون.

ثم تجدد الأمل في فتح -القسطنطينية في مطلع عهود العثمانيين،فحاصرها كل من -السلطان بايزيد الأول ومراد الثاني، ولكن لم تكلل جهودهما -بالنجاح، حتى شاء الله أن يكون السلطان محمد الثاني فاتح -المدينة العتيدة، ويحظى بشرف تحقيق بشارة المصطفى صلى الله عليه وسلم.

وقد كان للقسطنطينية موقع إستراتيجي حتى لقد قيل عنها :"لو كانت الدنيا مملكة واحدة لكانت القسطنطينية أصلح المدن لتكون عاصمة لها".

وشاءت الأقدار أن يكون السلطان العثماني محمد الفاتح هو صاحب البشارة التي بشّر بها النبي -صلى الله عليه وسلم- في حديثه الشريف.

وانتظر المسلمون ثمانية قرون ونصف قرن حتى تحققت البشارة، وفُتحت القسطنطينية بعد محاولات جادة بدأت منذ عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه (٣٢هـ=٦٥٢م)، وازدادت إصرارًا في عهد معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه في مرتين: الأولى سنة (٤٩هـ = ٦٦٦م) والثانية بين سنتي (٥٤-٦٠=٦٧٣-٦٧٩م)، واشتعلت رغبة وأملاً طموحًا في عهد سليمان بن عبد الملك الخليفة الأموي سنة (٩٩هـ=٧١٩م).. لكن هذه المحاولات لم يُكتب لها النجاح والتوفيق.

وقد بدأ التفكير في فتح القسطنطينية يراود خيال خلفاء المسلمين منذ بداية العصر الأموي.

فعندما ولي الخليفة "معاوية بن أبي سفيان" خلافة المسلمين كان في مقدمة الأهداف التي وضعها نصب عينيه فتح القسطنطينية، تلك المدينة الجميلة الساحرة، أشهر مدن الدولة البيزنطية وعاصمتها المتألقة.

وكان لموقع القسطنطينية المتميز أكبر الأثر في اتجاه أنظار المسلمين إلى فتحها، وانتزاعها من الإمبراطورية البيزنطية التي كانت مصدر قلق دائم للدولة الإسلامية، وضم تلك اللؤلؤة العزيزة إلى عقد الإمبراطورية الإسلامية الواعدة.

كانت مدينة القسطنطينية محط أنظار المسلمين بجمالها وبهائها، كأنها درة قد احتضنها خليج البسفور من الشرق والشمال، وامتدت من جهة الغرب لتتصل بالبر، وتطل أبراجها وحصونها في شموخ وكأنها تتحدى الطامعين فيها، وقد برزت أسوارها العالية من حولها في كل اتجاه فتتحطم عندها أحلام الغزاة وتنهار آمال الفاتحين.

وبرغم تلك الأسوار المنيعة والأبراج الحصينة التي شيدها أباطرة البيزنطيين حول المدينة، فإن ذلك لم يفتّ في عضد معاوية، ولم يثنه عن السعي إلى فتح القسطنطينية.. وبدأ معاوية يستعد لتحقيق حلمه الكبير.

استطاع معاوية في مدة وجيزة أن يجهز لأول حملة بحرية إلى القسطنطينية (سنة ٤٩ هـ = ٦٦٩م) حشد لها جيشا ضخما، وشارك فيها عدد كبير من الصحابة منهم"عبد الله بن عمر" و"عبد الله بن عباس" و"أبوأيوب الأنصاري"- رضي الله عنهم- وجعل عليها"سفيان بن عوف"، وأخرج معه ابنه"يزيد بن معاوية".

ولكن تلك الحملة لم يكتب لها النجاح؛ فقد حال سوء الأحوال الجوية وبرودة الجو الذي لم يعتدْه العرب دون استمرار المسلمين في الحصار الذي فرضوه على المدينة، بالإضافة إلى قوة تحصين المدينة التي حالت دون فتحها. وعادت الحملة مرة أخرى بعد أن استشهد عدد من المسلمين، منهم الصحابي الجليل"أبو أيوب الأنصاري".

لكن معاوية لم ييأس، ولم يخبُ حماسه وإصراره على مواجهة هذا التحدي الجديد؛ فراح يعد لحملة جديدة، ومهد لذلك بالاستيلاء على عدد من الجزر البيزنطية في البحر المتوسط، مثل: جزيرة"كريت" وجزيرة"أرواد" في سنة (٥٤هـ =٦٧٤م).

وكان معاوية يهدف من وراء ذلك إلى أن تكون هذه الجزر محطات للأسطول الإسلامي عند خروجه لغزو القسطنطينية.

فرض المسلمون الحصار على المدينة المنيعة لدفعها إلى الاستسلام، واستمر الحصار من عام (٥٤ هـ = ٦٧٤م) إلى عام (٦٠ هـ = ٦٨٠م)، وتحمل المسلمون طوال تلك السنوات السبع كثيرا من الصعاب، وواجهوا العديد من المشاق والأخطار حتى فاجأهم البيزنطيون بسلاح جديد لم يألفه المسلمون من قبل وهو"النار الإغريقية"، وهى عبارة عن مزيج كيميائي من الكبريت والنفط والقار، فكان البيزنطيون يشعلونه ويقذفون به سفن الأسطول الإسلامي فتحترق بالنار وهى في الماء؛ مما اضطر المسلمين في

النهاية إلى رفع الحصار عن المدينة والعودة مرة أخرى إلى دمشق بعد أن احترق عدد كبير من السفن واستشهد عدد كبير من الجنود.

وأحجم المسلمون فترة من الزمان عن محاولة فتح القسطنطينية لمناعتها وتحصنها، حتى جاء الخليفة الأموي "سليمان بن عبد الملك" فبدأ يجهز جيشا ضخما بلغ نحو مائة ألف جندي، وزوده بنحو ألف وثمانمائة سفينة حربية، وجعل على رأسه أخاه"مسلمة بن عبد الملك".

وانطلق مسلمة نحو القسطنطينية عام (٩٨ هـ = ٧١٧م) فحاصرها مدة طويلة، وبرغم تلك الاستعدادات الكبيرة والإمكانات الضخمة الهائلة التي توافرت للجيش، فإن تلك المدينة استعصت عليه، وعجز عن فتحها، فبعث مسلمة أحد رجاله، ويدعى سليمان على رأس جيش يستطلع الطريق عبر آسيا الصغرى.

وسار سليمان حتى بلغ عمورية فحاصرها مدة، وعلم أن "ليون" حاكم هذه المدينة يناهض الإمبراطور البيزنطي "تاود أسيوس" فأراد أن يخدعه ويستميله معه، ويغريه بعرش الإمبراطورية الرومانية.

ولكن ليون تظاهر بمساعدته وأضمر في نفسه شيئا آخر، فدخل في مفاوضات مع المسلمين وطلب منهم رفع الحصار عن عمورية، ثم صحب جيش المسلمين قاصدا القسطنطينية، وأصبح ليون موضع ثقة المسلمين، فسمحوا له بأن يسبقهم إلى القسطنطينية.

وسرعان ما كشف"ليون" عن حقيقة نواياه عندما احتل العاصمة البيزنطية واستطاع الوصول إلى العرش الإمبراطوري مستغلا وصول الحملة الإسلامية إلى القسطنطينية، فأسرع بتحصين المدينة وتدعيم أسوارها وتقويتها لمواجهة الحصار الإسلامي المرتقب.

بدأ الحصار البحري لمدينة القسطنطينية في (١٩ من المحرم ٩٩هـ = أول سبتمبر ٧١٧م) وعندما وصل إليها مسلمة بجيشه ضرب عليها حصارا

شديدا قاسيا، واستمر حتى الشتاء، وتحمل المسلمون البرد القارس؛ حيث عانوا كثيرا؛ وجاء أسطول من مصر وآخر من شمال إفريقيا، كما وصلت نجدات برية أخرى.

وأخذ المسلمون يهاجمون المدينة مستخدمين النفط، واستعانوا بسلاح جديد أشبه بالمدفع، وأظهر المقاتلون شجاعة نادرة وفدائية فريدة.

وفي تلك الفترة التي اشتد فيها حصار المسلمين لمدينة القسطنطينية توفى الخليفة سليمان بن عبد الملك، وتولى بعده الخليفة"عمر بن عبد العزيز"، واستقر رأى الخليفة الجديد على سحب القوات الإسلامية المحاصِرة للقسطنطينية للإفادة منها في تأمين الدولة الإسلامية وتنظيمها قبل الاستمرار في الفتح والتوسع.

وأرسل الخليفة في (١٢ من المحرم ١٠٠ هـ = ١٥ من أغسطس ٧١٨م) يطلب من مسلمة العودة بجيوشه وأساطيله إلى الشام بعد حصار دام اثني عشر شهرًا كاملة، بعد أن أدت دورها في إعزاز دولة الإسلام، وحمل البيزنطيين على التخلي عن أحلامهم وأطماعهم السابقة في استعادة أراضيهم التي انضوت تحت لواء الإمبراطورية الإسلامية الجديدة.

وبرغم كل تلك المحاولات لفتح القسطنطينية، والتي لم يكتب لها النجاح؛ فقد ظل الاستيلاء على هذه المدينة حلما يداعب خيال المسلمين، وأملا يراود نفوسهم، وأمنية تجيش في صدورهم حتى استطاع السلطان العثماني"محمد الفاتح" أن يحقق ذلك الحلم بعد عدة قرون من الزمان، ويفتح القسطنطينية في سنة (٨٥٧هـ = ١٤٥٣م).

وهناك قصة تاريخية - تستحق أن تروى - ترتبط بالبشارة النبوية، والصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري ومحمد الفاتح وفتح القسطنطينية.

الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه هو أحد السابقين الأولين في الإسلام من الأنصار، ورجل من أفاضل المدينة المنورة قبل

الإسلام وبعده، وقال ابن إسحاق: شهد أبو أيوب بيعة العقبة الثانية، وذكره عروة بن الزبير بن العوام والجماعة رضي الله عنهم في البدريين.

وعن ابن إسحاق: أن النبي صلى الله عليه وسلم آخى بين أبي أيوب، ومِصْعَب بن عُمَيْر رضي الله عنهما، وخصّه النبي صلى الله عليه وسلم بالنزول ضيفاً عليه في بني النجار إلى أن بُنِيَتْ للنبي حُجرة أم المؤمنين سودة بنت زمعة ، وبني المسجد النبوي الشريف.

وفي سيرة ابن عباس رضي الله عنهما: أنه كان أميرا على البصرة لعلي ابن أبي طالب رضي الله عنه ، ووفد عليه أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه، فبالغ في إكرامه، وقال له : لأجزينك على إنزالك النبي صلى الله عليه وسلم عندك، كم عليك؟ قال: عشرون ألفا فأعطاه أربعين ألفا، وعشرين مملوكا، ومتاع البيت.

وقد ورد في مسند أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه مائة وخمسة وخمسون حديثا نبويّاً شريفًا، وقد روى البخاري ومسلم : سبعة أحاديث بإسنادهما إلى أبي أيوب، وانفرد صحيح البخاري بحديث واحد، وانفرد صحيح مسلم بخمسة أحاديث، وهذا غير ما اتفقا عليه في الأحاديث السبعة.

أما جهاد أبي أيوب الأنصاري، فقد روى ابن عُلَيَّة، عن أيوب، عن محمد، قال: شهد أبو أيوب بدرًا، ثم لم يتخلَّف عن غزاة إلاّ عاماً، واستُعمِل على الجيش شابٌّ، فقعد، ثم جعل يتلهف، ويقول:"ما عليَّ مَن استُعمِلَ علَيَّ" وبعد ذلك لم يتخلف عن غزوة في سبيل الله، وجاهد في عهد الخلفاء الراشدين، وجاء عهد الأمويين، وأبو أيوب على عهده مع الله لا يغيّر ولا يبدّل، ولا يترك الجهاد في سبيل الله، رغم تقدمه في السن، حيث بلغ من العمر مائة وخمسة وثلاثين عامًا. قال ابن يونس: قدِم أبو أيوب الأنصاري مصر في البحر سنة ست وأربعين/ ٦٦٦م. وقال أبو زُرْعَة النصري: قدم دمشق زمن

معاوية بن أبي سفيان. وقال الخطيب: شهد حرب الخوارج مع علي بن أبي طالب.

أما الغزوة الأخيرة، فكانت هى أول محاولة لفتح القسطنطينية سنة ٣٤هـ / ٦٥٤ م. في عهد أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه حيث أرسل جيشا بقيادة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما فحاصرها ولم يتمكن من فتحها بسبب الأسوار المنيعة التي كانت حول القسطنطينية، ولمّا تجاسر الروم على ثغور المسلمين الشمالية أرسل الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما جيشاً برياً وبحرياً من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم لغزو الروم بقيادة يزيد بن معاوية، فعبر المسلمون الفرسان والمشاة خليج البوسفور غربًا، وخليج القرن الذهبي جنوبًا، وحاصروا القسطنطينية من الغرب.

وخرج إليهم الروم وتصافّ المسلمون صفّين عريضين لم يُرَ مثلهما، والروم ملصقون ظهورهم بسور القسطنطينية، فحمل عليهم فارس من المسلمين، فقال الناس: إنه يلقي بيده إلى تهلكة.

فقال أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه:"أيها الناس إنكم تتأولون هذه الآية هكذا أن حمل رجل يقاتل يلتمس الشهادة، وإنما أنزلت فينا معشر الأنصار.. إنّا لما نصر الله نبيَّه وأظهر الإسلام، قلنا بيننا معشر الأنصار خفياً من رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنا قد تركنا أهلنا وأموالنا أن نقيم فيها ونصلحها حتى نصر الله نبيه، هلم نقيم في أموالنا ونصلحها. فأنزل الله الخبر من السماء فقال: ﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ سورة البقرة، الآية: ١٩٥ . فالإلقاء بالأيدي إلى التهلكة:"أن نقيم في أموالنا ونصلحها، وندع الجهاد"٩.

ومرض أبو أيوب الأنصاري مرضًا شديدًا أثناء حصار القسطنطينية، فوضعه المسلمون في محفّة بناء على طلبه، وكانوا ينقلون تلك المحفة إلى

الأماكن التي تميل فيها كفة القوة لصالح الروم، فترجح كفة القوة الإسلامية جراء الحماس الذي كان يثيره في النفوس وجود أبي أيوب الذي كان يأمل الشهادة، ولو كان محمولاً بالمحفة، ولما دنا أجله أتاه يعوده قائد الجيش يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، فقال له يزيد: قل لي حاجتك يا أبا أيوب؟

قال أبو أيوب:"نعم، إذا أنا متُّ، إذا شئتَ فاركَبْ ثم سُغْ في الأَرض ما وجدْتَ مَساغاً، أَي: ادخل فيها ما وجدْت مدخلاً، فإذا لم تجد مساغا، فادفني، ثم ارجع، فإنكم سوف تعودون إليَّ، ولن تنسَوا قَبْرَ صاحب نبيكم حتى تُحرِّروا الأرض التي ثوى فيها".

"وكان يردّد قول الله عزّ وجلَّ: ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ سورة التوبة، الآية: ٤١ . وكان يقول: "لا أجدني إلاّ خفيفاً أو ثقيلا".

وانتقل أبو أيوب الأنصاري إلى رحمة الله ونفّذ المسلمون وصيته، فحملوه حتى جاؤوا به إلى الشمال الغربي من أسوار اسطنبول"القسطنطينية" وصلى عليه يزيد والناس صلاة الجنازة، ثم دفنوه على مقربة من الضفة الجنوبية لخليج القرن الذهبي.

وحينذاك أخذ الروم يسخرون من المسلمين من فوق الأسوار ويقولون: لننبشنَّ قبره، ولنلقينّ بجثته للكلاب.

فأرسل إليهم يزيد بن معاوية بن أبي سفيان: والله لو مسستم صاحبنا بسوء، أو نبشتم قبره، لننبشنّ قبور الروم في الشام كلها، والله لئن نبش، لاضُرِبَ بناقوس في بلاد العرب.

فخاف الروم على قبورهم في الشام، ونادوا من فوق الأسوار: يا معشر المسلمين إنا وحق المسيح لا نعرض لقبر صاحبكم بسوء ولا ندع أحدًا يمسه.

ولخوف الروم من أن يقوم بعض الناس بنبش قبر أبي أيوب على غير علم منهم، فقد أقاموا حُراساً يحرسون قبر أبي أيوب خشية أن ينبشه الغوغاء، وينفذ المسلمون توعدهم بنبش قبور الروم في الشام، فكانوا إذا قحطوا، كشفوا عن قبره، فأمطروا.

قال الواقدي : توفي أبو أيوب الأنصاري عام غزا يزيد في خلافة أبيه معاوية بن أبي سفيان القسطنطينية، فلقد بلغني: أن الروم يتعاهدون قبره. ويرممونه، ويستسقون به.

وروى أنه لما حضر أبا أيوب الموت دعا الصحابة والناس فقال: إذا قبضت، فلتركب الخيل ، ثم سيروا حتى تلقوا العدو ، فيردوكم ، فاحفروا لي، وادفنوني ، ثم سووه! فلتطأ الخيل والرجال عليه حتى لا يعرف. فإذا رجعتم، فأخبروا الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرني: (أنه لا يدخل النار أحد يقول : لا إله إلا الله).

تعددت الروايات في تحديد سنة وفاة أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، فقيل: سنة خمسين للهجرة/ ٦٧٠م، وقيل: سنة اثنتين وخمسين للهجرة/ ٦٧٢م، وقيل: سنة خمس وخمسين للهجرة٦٧٥/م.

ومرت القرون والقسطنطينية منيعة، وصمدت مدة طويلة بعدما فتح العثمانيون أدرنة سنة ٧٦٣ هـ/ ١٣٦١م، واتخذوها عاصمة لهم، وتوسعوا في فتوحات البلقان شمال نهر الطونة (الدانوب)، وبعد انتصار السلطان مراد الأول واستشهاده في نهاية معركة كوسوفو سنة ٧٩١ هـ/ ١٣٨٩م.

حاول العثمانيون فتح القسطنطينية في عهد السلطان «بايزيد»الأول. وفي زمن السلطان مراد الثاني.

ولكن الفتح تحقق سنة ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م بقيادة السلطان محمد الثاني (الفاتح) ابن مراد الثاني بن محمد شلبي بن «أبا يزيد» الأول بن مراد الأول ابن أورخان بن عثمان الأول (المتوفى سنة ٧٢٦ هـ/ ١٣٢٦م).

منذ طفولة السلطان محمد الفاتح، وهو يسمع من شيوخه الحديث النبوي الشريف"- لَتُفْتَحَنَّ - الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ - فَلَنِعْمَ الأَمِيرُ أَمِيرُهَا وَلَنِعْمَ الجَيْشُ ذَلِكَ الجَيْشُ "، وكثيراً ما كان يردده، ويتذكر - مَسْلَمَة بْن عَبْدِ الْمَلِكِ ابن مروان -الذي غَزَا- الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ، وبنى في شمالها جامع العرب الذي مازال قائمًا إلى الشمال من خليج إسطنبول.

وقبل الهجوم الأخير اكتشف السلطان وشيخه أق شمس الدين قبر أبي أيوب الأنصاري، فتذكر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودُعاءَه لأبي أيوب: وقوله لأبي أيوب:"حَرَسَكَ اللهُ حَيّاً وَمَيِّتاً".

و منذ ذلك الوقت أمر السلطان بتنظيم الحراسة على القبر، وما زالت مستمرة منذ الفتح حتى الآن، وكانت مراسم السلطنة العثمانية تقتضي أن يستلم السلطان الجديد سيف عثمان الأول حسب المراسم في جامع أبي أيوب الأنصاري، ويشرب من بئر الشفاء المجاورة للضريح.

ومع الأيام نشأت حول الضريح محلة كبرى تُعرف عند الأتراك باسم:"أيوب سلطان"، ومن عادات الأتراك زيارة الأطفال لجامع أبي أيوب بعد الختان، وكذلك تزوره العرائس والعرسان في أسبوع الزواج، ولا تخلو ساحة الجامع من الناس ليلاً ونهارًا.

5

الفصل الخامس

فـــتح القـــسطنطينية

فتـــح القسطنطينيـة

كانت القسطنطينية من المدن المنيعة التحصين، فهي تطل بأبراجها وحصونها في شموخ وكأنها تتحدى الطامعين فيها، وقد برزت أسوارها العالية من حولها في كل اتجاه فتتحطم عندها أحلام الغزاة ويستحيل على أي جيش أن يقتحمها بالوسائل التقليدية، فتحصيناتها كانت تشتمل على الآتي:

(١) المدينة عبارة عن مثلث، جهتان منه تحيط بهما مياه البحر والجهة الثالثة محاطة بسورين وخندق مائي.

(٢) كانت المدينة محاطةً بسورين، وخارج السورين يوجد خندق مائي عرضه ٦٠ قدمًا وعمقه ١٠ أمتار.

(٣) ثم يأتي السور الأول وارتفاعه٢٥ قدمًا وسمكه ١٠ أمتار.

(٤) ثم يأتي السور الثاني وارتفاعه٤٠ قدمًا، ويحتوي السور على عدد من أبراج الحراسة ارتفاع كل منها٦٠ قدمًا، وسمك جدار السور١٥ مترًا.

(٥) يحمي المدينة من ناحية البحر٤٠٠ سفينة.

الإعداد للفتح

وفي سبيله للإعداد للفتح العظيم، اتخذ السلطان محمد الفاتح خطوات رائعة تمهيداً لإسقاط المدينة الحصينة، والتي كان لها أكبر الأثر في ضمان تحقيق الإنجاز التاريخي الكبير.

فقد اعتنى السلطان محمد الفاتح بإقامة قلعة"روملي حصار" في الجانب الأوروبي على مضيق البسفور في أضيق نقطة منه مقابل القلعة التي أسست في عهد السلطان بايزيد في البر الآسيوي.

وقد حاول الإمبراطور البيزنطي ثني السلطان الفاتح عن بناء القلعة مقابل التزامات مالية تعهد بها إلا أن الفاتح أصر على البناء لما يعلمه من أهمية عسكرية لهذا الموقع، حتى اكتملت قلعة عالية ومحصنة، وصل ارتفاعها إلى ٨٢ متراً.

وأصبحت القلعتان متقابلتين ولا يفصل بينهما سوى ٦٦٠م تتحكمان في عبور السفن من شرقي البسفور إلى غربيه، وتستطيع نيران مدافعهما منع أية سفينة من الوصول إلى القسطنطينية من المناطق التي تقع شرقها مثل مملكة (طرابزون) وغيرها من الأماكن التي تستطيع دعم المدينة عند الحاجة.

كما اعتنى السلطان عناية خاصة بجمع الأسلحة اللازمة لفتح القسطنطينية، ومن أهمها المدافع التي أخذت اهتماماً خاصّاً منه حيث أحضر مهندساً مجرياً يدعى (أوربان) كان بارعاً في صناعة المدافع فأحسن استقباله ووفر له جميع الإمكانيات المالية والمادية والبشرية.

وقد تمكن هذا المهندس من تصميم وتنفيذ العديد من المدافع الضخمة كان على رأسها المدفع السلطاني المشهور، والذي ذكر أن وزنه كان يصل إلى مئات الأطنان وأنه يحتاج إلى مئات الثيران القوية لتحريكه، وقد أشرف السلطان بنفسه على صناعة هذه المدافع وتجريبها.

ويضاف إلى هذا الاستعداد ما بذله الفاتح من عناية خاصة بالأسطول العثماني حيث عمل على تقويته وتزويده بالسفن المختلفة ليكون مؤهلاً للقيام بدوره في الهجوم على القسطنطينية، تلك المدينة البحرية التي لايكمل حصارها دون وجود قوة بحرية تقوم بهذه المهمة،وقد ذكر أن السفن التي أعدت لهذا الأمر بلغت أكثر من أربعمائة سفينة.

كما عمل الفاتح قبل هجومه على القسطنطينية على عقد معاهدات مع أعدائه المختلفين ليتفرغ لعدو واحد.

فعقد معاهدة مع إمارة (غلطة) المجاورة للقسطنطينية من الشرق ويفصل بينهما مضيق (القرن الذهبي)، كما عقد معاهدات مع (جنوة) و(البندقية) وهما من الإمارات الأوربية المجاورة.

ولكن هذه المعاهدات لم تصمد حينما بدأ الهجوم الفعلي على القسطنطينية، حيث وصلت قوات من تلك المدن وغيرها للمشاركة في الدفاع عن القسطنطينية مشاركة لبني عقيدتهم من النصارى متناسين عهودهم ومواثيقهم مع المسلمين.

في هذه الأثناء، التي كان السلطان يعد العدة فيها للفتح، استمات الإمبراطور البيزنطي في محاولاته لثنيه عن هدفه، بتقديم الأموال والهدايا المختلفة إليه، بمحاولة رشوة بعض مستشاريه ليؤثروا على قراره.

ولكن السلطان كان عازماً على تنفيذ مخططه ولم تثنه هذه الأمور عن هدفه، ولما رأى الإمبراطور البيزنطي شدة عزيمة السلطان على تنفيذ هدفه عمد إلى طلب المساعدات من مختلف الدول والمدن الأوربية وعلى رأسها البابا زعيم المذهب الكاثوليكي في الوقت الذي كانت فيه كنائس الدولة البيزنطية وعلى رأسها القسطنطينية تابعة للكنيسة الأرثوذكسية وكان بينهما عداء شديد.

وقد اضطر الإمبراطور لمجاملة البابا بأن يتقرب إليه ويظهر له استعداده للعمل على توحيد الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية لتصبح خاضعة له، في الوقت الذي لم يكن الأرثوذكس يرغبون في ذلك.

وقد قام البابا بناءً على ذلك بإرسال مندوب منه إلى القسطنطينية، خطب في كنيسة آيا صوفيا ودعا للبابا وأعلن توحيد الكنيستين، مما أغضب الجمهور الأرثوذكسي في المدينة، وجعلهم يقومون بحركة مضادة

لهذا العمل الإمبراطوري الكاثوليكي المشترك، حتى قال بعض زعماء الأرثوذكس: (إنني أفضل أن أشاهد في ديار البيزنط عمائم الترك على أن أشاهد القبعة اللاتينية).

الهجوم الكبير

كانت القسطنطينية محاطة بالمياه البحرية في ثلاث جبهات، مضيق البسفور، وبحر مرمرة، والقرن الذهبي الذي كان محمياً بسلسلة ضخمة جدّاً تتحكم في دخول السفن إليه.

وبالإضافة إلى ذلك فإن خطين من الأسوار كانت تحيط بها من الناحية البرية من شاطئ بحر مرمرة إلى القرن الذهبي، يتخللها نهر ليكوس، وكان بين السورين فضاء يبلغ عرضه ٦٠ قدماً ويرتفع السور الداخلي منها ٤٠ قدماً وعليه أبراج يصل ارتفاعها إلى ٦٠ قدماً.

وأما السور الخارجي فيبلغ ارتفاعه قرابة خمس وعشرين قدماًوعليه أبراج موزعة مليئة بالجند، وبالتالي فإن المدينة من الناحية العسكرية تعد من أفضل مدن العالم تحصيناً، لما عليها من الأسوار والقلاع والحصون إضافة إلى التحصينات الطبيعية، وبالتالي فإنه يصعب اختراقها، ولذلك فقد استعصت على عشرات المحاولات العسكرية لاقتحامها ومنها إحدى عشرة محاولة إسلامية سابقة.

كان السلطان الفاتح يكمل استعدادات القسطنطينية ويعرف أخبارها ويجهز الخرائط اللازمة لحصارها.

كما كان يقوم بنفسه بزيارات استطلاعية يشاهد فيها استحكامات القسطنطينية وأسوارها، وقد عمل السلطان على تمهيد الطريق بين أدرنة والقسطنطينية لكي تكون صالحة لجر المدافع العملاقة خلالها إلى القسطنطينية.

وقد تحركت المدافع من أدرنة إلى قرب القسطنطينية، في مدة شهرين

حيث تمت حمايتها بقسم من الجيش حتى وصلت الأجناد العثمانية يقودها الفاتح بنفسه إلى مشارف القسطنطينية في يوم الخميس ٢٦ ربيع الأول ٨٥٧هـ الموافق ٦ أبريل ١٤٥٣م.

وجمع الفاتح الجند وكانوا قرابة مائتين وخمسين ألف جندي، فخطب فيهم خطبة قوية حثهم فيها على الجهاد وطلب النصر أو الشهادة، وذكرهم فيها بالتضحية وصدق القتال عند اللقاء.

وقرأ الفاتح عليهم الآيات القرآنية التي تحث على ذلك، كما ذكر لهم الأحاديث النبوية التي تبشر بفتح القسطنطينية وفضل الجيش الفاتح لها وأميره، وما في فتحها من عز الإسلام والمسلمين، وقد بادر الجيش بالتهليل والتكبير والدعاء.

وكان العلماء مبثوثين في صفوف الجيش مقاتلين ومجاهدين مما أثر في رفع معنوياتهم حتى كان كل جندي ينتظر القتال بفارغ الصبر ليؤدي ما عليه من واجب.

وفي اليوم التالي، قام السلطان بتوزيع جيشه البري أمام الأسوار الخارجية للمدينة، مشكلاً ثلاثة أقسام رئيسية تمكنت من إحكام الحصار البري حول مختلف الجهات.

كما أقام الفاتح جيوشاً احتياطية خلف الجيوش الرئيسية، وعمل على نصب المدافع أمام الأسوار، ومن أهمها المدفع السلطاني العملاق، الذي أقيم أمام"باب طب قابي ".

كما وضع فرقاً للمراقبة في مختلف المواقع المرتفعة والقريبة من المدينة، وفي الوقت نفسه انتشرت السفن العثمانية في المياه المحيطة بالمدينة، إلا أنها لم تستطع الوصول إلى القرن الذهبي بسبب وجود السلسلة الضخمة التي منعت أية سفينة من دخوله بل وتدمر كل سفينة تحاول الدنو والاقتراب، واستطاع الأسطول العثماني أن يستولي على جزر الأمراء في بحر مرمرة.

وحاول البيزنطيون أن يبذلوا قصارى جهدهم للدفاع عن القسطنطينية ووزعوا الجنود على الأسوار، وأحكموا التحصينات، وأحكم الجيش العثماني قبضته على المدينة، ولم يخلُ الأمر من وقوع قتال بين العثمانيين المهاجمين والبيزنطيين المدافعين منذ الأيام الأولى للحصار، وفتحت أبواب الشهادة وفاز عدد كبير من العثمانيين بها خصوصاً من الأفراد الموكلين بالاقتراب من الأبواب.

وكانت المدفعية العثمانية تطلق مدافعها من مواقع مختلفة نحو المدينة، وكان لقذائفها ولصوتها الرهيب دور كبير في إيقاع الرعب في قلوب البيزنطيين، وقد تمكنت من تحطيم بعض الأسوار حول المدينة، ولكن المدافعين كانوا سرعان ما يعيدون بناء الأسوار وترميمها.

ولم تنقطع المساعدات المسيحية من أووبا، ووصلت إمدادات من (جنوة) مكونة من خمس سفن وكان يقودها القائد الجنوي (جستنيان) يرافقه سبعمائة مقاتل متطوع من دول أوربية متعددة.

واستطاعت سفنهم أن تصل إلى العاصمة البيزنطية العتيقة بعد مواجهة بحرية مع السفن العثمانية المحاصرة للمدينة.

وكان لوصول هذه القوات أثر كبير في رفع معنويات البيزنطيين، وعين قائدها"جستنيان"قائداً عاماً للقوات المدافعة عن المدينة.

وقد حاولت القوات البحرية العثمانية تخطي السلسلة الضخمة التي تتحكم في مدخل القرن الذهبي والوصول بالسفن الإسلامية إليه، وأطلقوا سهامهم على السفن الأوروبية والبيزنطية ولكنهم فشلوا في تحقيق مرادهم في البداية وارتفعت الروح المعنوية للمدافعين عن المدينة.

ولم يكل القسس ورجال الدين النصارى، فكانوا يطوفون بشوارع المدينة، وأماكن التحصين ويحرضون المسيحيين على الثبات والصبر، ويشجعون الناس على الذهاب إلى الكنائس ودعاء المسيح والسيدة العذراء أن يخلصا

المدينة، وأخذ الإمبراطور قسطنطين يتردد بنفسه على كنيسة أيا صوفيا لهذا الهدف.

مفاوضات مع قسطنطين

استبسل العثمانيون المهاجمون على المدينة وعلى رأسهم محمد الفاتح، وصمد البيزنطيون بقيادة قسطنطين صمودًا بطوليًا في الدفاع، وحاول الإمبراطور البيزنطي أن يخلص مدينته وشعبه بكل ما يستطيع من حيلة، فقدم عروضًا مختلفة للسلطان ليغريه بالانسحاب مقابل الأموال أو الطاعة، أو غير ذلك من العروض التي قدمها.

ولكن الفاتح - رحمه الله - يرد بالمقابل طالبًا تسليم المدينة تسليمًا، وأنه في هذه الحالة لن يتعرض أحد من أهلها ولا كنائسها للأذى، وكان مضمون الرسالة: (فليسلم لي إمبراطوركم مدينة القسطنطينية وأقسم بأن جيشي لن يتعرض لأحد في نفسه وماله وعرضه، ومن شاء بقي في المدينة وعاش فيها في أمن وسلام، ومن شاء رحل عنها حيث أراد في أمن وسلام أيضًا).

كان الحصار لا يزال ناقصاً ببقاء مضيق القرن الذهبي في أيدي البحرية البيزنطية، ومع ذلك فإن الهجوم العثماني كان مستمراً دون هوادة حيث أظهر جنود الانكشارية شجاعة فائقة، وبسالة نادرة، فكانوا يقدمون على الموت دون خوف في أعقاب كل قصف مدفعي.

وفي يوم ١٨ أبريل، تمكنت المدافع العثمانية من فتح ثغرة في الأسوار البيزنطية عند (وادي ليكوس) في الجزء الغربي من الأسوار، فاندفع إليها الجنود العثمانيون بكل بسالة محاولين اقتحام المدينة من الثغرة، كما حالوا اقتحام الأسوار الأخرى بالسلالم التي ألقوها عليها، ولكن المدافعين عن المدينة بقيادة (جستنيان) استماتوا في الدفاع عن الثغرة والأسوار.

واشتد القتال بين الطرفين، وكانت الثغرة ضيقة وكثرت السهام والنبال والمقذوفات على الجنود المسلمين.

ومع ضيق المكان وشدة مقاومة الأعداء وحلول الظلام، أصدر الفاتح أوامره للمهاجمين بالانسحاب بعد أن أثاروا الرعب في قلوب أعدائهم متحينين فرصة أخرى للهجوم.

وفي اليوم نفسه، حاولت بعض السفن العثمانية اقتحام القرن الذهبي بتحطيم السلسلة الحاجزة عنه، ولكن السفن البيزنطية والأوربية المشتركة، إضافة إلى الفرق الدفاعية المتمركزة خلف السلسلة الضخمة من المدافعين عن مدخل الخليج، استطاعوا جميعاً صد السفن الإسلامية وتدمير بعضها، فاضطرت بقية السفن إلى العودة بعد أن فشلت في تحقيق مهمتها.

عزل قائد الأسطول

بعد هذه المعركة بيومين، وقعت معركة أخرى بين البحرية العثمانية وبعض السفن الأوروبية التي حاولت الوصول إلى الخليج، حيث بذلت السفن الإسلامية جهوداً كبيرة لمنعها، أشرف الفاتح بنفسه على المعركة من على الساحل وكان قد أرسل إلى قائد الأسطول وقال له: (إما أن تستولي على هذه السفن وإما أن تغرقها، إذا لم توفق في ذلك فلا ترجع إلينا حيّا).

لكن السفن الأوروبية نجحت في الوصول إلى هدفها ولم تتمكن السفن العثمانية من منعها، رغم الجهود العظيمة المبذولة لذلك، وبالتالي غضب السلطان محمد الفاتح غضبًا شديدًا فعزل قائد الأسطول بعد ما رجع إلى مقر قيادته واستدعاه وعنف محمد الفاتح قائد الأسطول (بالطه أوغلي) وعنفه واتهمه بالجبن، وتأثر"بالطة أوغلي"لهذا قال:

"إني أستقبل الموت بجنان ثابت، ولكن يؤلمني أن أموت وأنا متهم بمثل هذه التهمة.. لقد قاتلت أنا ورجالي بكل ما كان في وسعنا من حيلة وقوة".. ورفع طرف عمامته عن عينه المصابة.

وأدرك محمد الفاتح عند ذلك أن الرجل قد أعذر، فتركه ينصرف واكتفى بعزله من منصبه، وجعل مكانه حمزة باشا.

عبقرية عسكرية فذة

لاحت للسلطان فكرة بارعة وهى نقل السفن من مرساها في "بشكطاش"إلى القرن الذهبي، وذلك بجرها على الطريق البري الواقع بين الميناءين مبتعدًا عن (حي غلطة) خوفاً على سفنه من الجنوبيين، وقد كانت المسافة بين الميناء نحو ثلاثة أميال، ولم تكن أرضاً مبسوطة سهلة ولكنها كانت وهادًا وتلالاً غير ممهدة.

جمع محمد الفاتح أركان حربه وعرض عليهم فكرته، وحدد لهم مكان معركته القادمة، فتلقى منهم كل تشجيع، وأعربوا عن إعجابهم بها.

بدأ تنفيذ الخطة، وأمر السلطان محمد الثاني فمهدت الأرض وسويت في ساعات قليلة، وأتى بألواح من الخشب دهنت بالزيت والشحم، ثم وضعت على الطريق الممهد بطريقة يسهل بها انزلاج السفن وجرها، وكان أصعب جزء من المشروع هو نقل السفن على انحدار التلال المرتفعة، إلا أنه بصفة عامة كانت السفن العثمانية صغيرة الحجم خفيفة الوزن.

وجرت السفن من البسفور إلى البر حيث سحبت على تلك الأخشاب المدهونة بالزيت مسافة ثلاثة أميال، حتى وصلت إلى نقطة آمنة فأنزلت في القرن الذهبي، وتمكن العثمانيون في تلك الليلة من سحب أكثر من سبعين سفينة وإنزالها في القرن الذهبي على حين غفلة من العدو، بطريقة لم يُسبق إليها السلطان الفاتح قبل ذلك، وقد كان يشرف بنفسه على العملية التي جرت في الليل بعيداً عن أنظار العدو ومراقبته.

وقد تم كل ذلك في ليلة واحدة، واستيقظ أهل المدينة البائسة صباح يوم ٢٢ أبريل على تكبيرات العثمانيين المدوية، وهتافاتهم المتصاعدة، وأناشيدهم الإيمانية العالية، في القرن الذهبي، وفوجئوا بالسفن العثمانية وهي تسيطر على ذلك المعبر المائي.

ولم يعد هناك حاجز مائي بين المدافعين عن القسطنطينية وبين الجنود

العثمانيين، ولقد عبر أحد المؤرخين البيزنطيين عن عجبهم من هذا العمل فقال: (ما رأينا ولا سمعنا من قبل بمثل هذا الشيء الخارق، محمد الفاتح يحول الأرض إلى بحار وتعبر سفنه فوق قمم الجبال بدلاً من الأمواج، لقد فاق محمد الفاتح بهذا العمل الإسكندر الأكبر).

وظهر اليأس في أهل القسطنطينية وكثرت الإشاعات والتنبؤات بينهم، وانتشرت شائعة تقول: ستسقط القسطنطينية عندما ترى سفن تمخر اليابسة.

وكان لوجود السفن الإسلامية في القرن الذهبي دور كبير في إضعاف الروح المعنوية لدى المدافعين عن المدينة، الذين اضطروا لسحب قوات كبيرة من المدافعين عن الأسوار الأخرى، لكي يتولوا الدفاع عن الأسوار الواقعة على القرن الذهبي إذ إنها كانت أضعف الأسوار، ولكنها في السابق تحميها المياه، مما أوقع الخلل في الدفاع عن الأسوار الأخرى.

وقد حاول الإمبراطور البيزنطي تنظيم أكثر من عملية لتدمير الأسطول العثماني في القرن الذهبي إلا أن محاولته المستميتة كان العثمانيون لها بالمرصاد حيث أفشلوا كل الخطط والمحاولات.

واستمر العثمانيون في دك نقاط دفاع المدينة وأسوارها بالمدافع، وحاولوا تسلق أسوارها، وفي الوقت نفسه انشغل المدافعون عن المدينة في بناء وترميم ما يتهدم من أسوار مدينتهم ورد المحاولات المكثفة لتسلق الأسوار مع استمرار الحصار عليهم مما زاد في مشقتهم وتعبهم وإرهاقهم وشغل ليلهم مع نهارهم وأصابهم اليأس.

كما وضع العثمانيون مدافع خاصة على الهضاب المجاورة للبسفور والقرن الذهبي، مهمتها تدمير السفن البيزنطية والمتعاونة معها في القرن الذهبي والبسفور والمياه المجاورة مما عرقل حركة سفن الأعداء وأصابها بالشلل تماماً.

وشرع السلطان محمد الفاتح في نصب المدافع القوية على الهضاب الواقعة خلف (غلطة)، وبدأت هذه المدافع في دفع قذائفها الكثيفة نحو الميناء وأصابت إحدى القذائف سفينة تجارية فأغرقتها في الحال، فخافت السفن الأخرى واضطرت للفرار، واتخذت من أسوار (غلطة) ملجأ لها، وظل الهجوم العثماني البري في موجات خاطفة وسريعة هجمة تلو الأخرى.

وكان السلطان محمد الفاتح يوالي الهجمات وإطلاق القذائف في البر والبحر دون انقطاع ليلاً ونهاراً من أجل إنهاك قوى المحاصرين، وعدم تمكينهم من أن ينالوا أي قسط من راحة وهدوء بال، وهكذا أصبحت عزائمهم ضعيفة ونفوسهم مرهقة كليلة، وأعصابهم متوترة مجهدة تثور لأي سبب.

واضطر الإمبراطور (قسطنطين) إلى عقد مؤتمر ثانٍ، اقترح فيه أحد القادة مباغتة العثمانيين بهجوم شديد عنيف لفتح ثغرة توصلهم بالعالم الخارجي وبينما هو في مجلسهم يتدارسون هذا الاقتراح، قطع عليهم أحد الجنود اجتماعهم وأعلمهم بأن العثمانيين شنوا هجوماً شديداً مكثفاً على وادي (ليكونس)، فترك قسطنطين الاجتماع ووثب على فرسه، واستدعى الجند الاحتياطي ودفع بهم إلى مكان القتال، واستمر القتال إلى آخر الليل حتى انسحب العثمانيون.

لجأ العثمانيون إلى طريقة عجيبة في محاولة دخول المدينة حيث عملوا على حفر أنفاق تحت الأرض من مناطق مختلفة إلى داخل المدينة وسمع سكانها ضربات شديدة تحت الأرض أخذت تقترب من داخل المدينة بالتدريج، فأسرع الإمبراطور بنفسه ومعه قواده ومستشاروه إلى ناحية الصوت وأدركوا أن العثمانيين يقومون بحفر أنفاق تحت الأرض، للوصول إلى داخل المدينة، فقرر المدافعون الإعداد لمواجهتها بحفر أنفاق مماثلة مقابل أنفاق المهاجمين دون أن يعلموا، حتى إذا وصل العثمانيون إلى الأنفاق

التي أعدت لهم ظنوا أنهم وصلوا إلى سراديب خاصة وسرية تؤدي إلى داخل المدينة ففرحوا بهذا.

ولكن الفرحة لم تطل إذ فاجأهم الروم، فصبوا عليهم ألسنة النيران والنفط المحترق والمواد الملتهبة، فاختنق كثير منهم واحترق قسم آخر وعاد الناجون منهم أدراجهم من حيث أتوا.

لكن هذا الفشل لم يفت في عضد العثمانيين، فعاودوا حفر أنفاق أخرى، وفي مواضع مختلفة، من المنطقة الممتدة بين"أكرى فبو"وشاطئ القرن الذهبي وكانت مكاناً ملائماً للقيام بمثل هذا العمل، وظلوا على ذلك حتى أواخر أيام الحصار.

وقد أصاب أهل القسطنطينية من جراء ذلك خوف عظيم وفزع لا يوصف حتى صاروا يتوهمون أن أصوات أقدامهم وهم يمشون إن هي أصوات خفية لحفر يقوم به العثمانيون ويملأون بها المدينة، فكانوا يتلفتون يمنة ويسرة، ويشيرون هنا وهناك في فزع ويقولون : (هذا تركي، ... هذا تركي) ويجرون هربًا من أشباح يحسبونها أنها تطاردهم.

مفاجأة عسكرية كبرى

لجأ العثمانيون إلى أسلوب جديد في محاولة الاقتحام وذلك بأن صنعوا قلعة خشبية ضخمة شامخة متحركة تتكون من ثلاثة أدوار، وبارتفاع أعلى من الأسوار، وقد كسيت بالدروع والجلود المبللة بالماء لتمنع عنها النيران، وأعدت تلك القلعة بالرجال في كل دور من أدوارها، وكان الذين في الدور العلوي من الرماة يقذفون بالنبال كل من يطل برأسه من فوق الأسوار.

وقد وقع الرعب في قلوب المدافعين عن المدينة حينما زحف العثمانيون بهذه القلعة واقتربوا بها من الأسوار عن باب(رومانوس)، فاتجه الإمبراطور بنفسه ومعه قواده ليتابع صد تلك القلعة ودفعها عن الأسوار، وقد تمكن

العثمانيون من لصقها بالأسوار ودار بين من فيها وبين النصارى عند الأسوار قتال شديد.

واستطاع بعض المسلمين ممن في القلعة تسلق الأسوار ونجحوا في ذلك، وقد ظن قسطنطين أن الهزيمة حلت به، إلا أن المدافعين كثفوا من قذف القلعة بالنيران حتى أثرت فيها وتمكنت منها النيران فاحترقت، ووقعت على الأبراج البيزنطية المجاورة لها فقتلت من فيها من المدافعين، وامتلأ الخندق المجاور لها بالحجارة والتراب.

المفاوضات الأخيرة

أيقن محمد الفاتح أن المدينة على وشك السقوط، ومع ذلك حاول أن يكون دخولها بسلام، فكتب إلى الإمبراطور رسالة دعاه فيه إلى تسليم المدينة دون إراقة دماء، وعرض عليه تأمين خروجه وعائلته وأعوانه وكل من يرغب من سكان المدينة إلى حيث يشاؤون بأمان، وأن تحقن دماء الناس في المدينة ولا يتعرضون لأي أذى ويكونون بالخيار في البقاء في المدينة أو الرحيل عنها.

ولما وصلت الرسالة إلى الإمبراطور جمع المستشارين وعرض عليهم الأمر، فمال بعضهم إلى التسليم وأصر آخرون على استمرار الدفاع عن المدينة حتى الموت، فمال الإمبراطور إلى رأي القائلين بالقتال حتى آخر لحظة، فرد الإمبراطور رسول الفاتح برسالة قال فيها :"إنه يشكر الله إذ جنح السلطان إلى السلم وأنه يرضى أن يدفع له الجزية أما القسطنطينية فإنه أقسم أن يدافع عنها إلى آخر نفس في حياته فإما أن يحفظ عرشه أو يدفن تحت أسوارها".

فلما وصلت الرسالة إلى الفاتح قال :"حسناً عن قريب سيكون لي في القسطنطينية عرش أو يكون لي فيها قبر".

وعمد السلطان بعد اليأس من تسليم المدينة صلحًا إلى تكثيف الهجوم

وخصوصًا القصف المدفعي على المدينة، حتى أن المدفع السلطاني الضخم انفجر من كثرة الاستخدام، وقتل المشتغلين عليه وعلى رأسهم المهندس المجري " أوربان"الذي تولى الإشراف على تصميم المدفع.

ومع ذلك، فقد وجه السلطان بإجراء عمليات التبريد للمدافع بزيت الزيتون، وقد نجح الفنيون في ذلك، وواصلت المدافع قصفها للمدينة مرة أخرى، بل تمكنت من توجيه القذائف بحيث تسقط وسط المدينة بالإضافة إلى ضربها للأسوار والقلاع.

وفي يوم الأحد ١٨ جمادى الأول ٢٧ من مايو، وجه السلطان محمد الفاتح الجنود إلى الخشوع وتطهير النفوس والتقرب إلى الله تعالى بالصلاة وعموم الطاعات والتذلل والدعاء بين يديه، لعل الله أن ييسر لهم الفتح، وانتشر هذا الأمر بين عامة المسلمين.

كما قام الفاتح بنفسه ذلك اليوم بتفقد أسوار المدينة ومعرفة آخر أحوالها، وما وصلت إليه وأوضاع المدافعين عنها في النقاط المختلفة، وحدد مواقع معينة يتم فيها تركيز القصف العثماني، وحث جنوده على الجد والتضحية في قتال الأعداء.

وفي مساء اليوم نفسه، أوقد العثمانيون نارًا كثيفة حول معسكرهم وتعالت صيحاتهم وأصواتهم بالتهليل والتكبير، حتى خيل للروم أن النار قد اندلعت في معسكر العثمانية، فإذا بهم يكتشفون أن العثمانيين يحتفلون بالنصر مقدماً، مما أوقع الرعب في قلوب الروم.

وفي اليوم التالي ٢٨ مايو، كانت الاستعدادات العثمانية على أشدها والمدافع ترمي البيزنط بنيرانها، والسلطان يدور بنفسه على المواقع العسكرية المختلفة متفقدًا موجهًا ومذكرًا بالإخلاص والدعاء والتضحية والجهاد.

وبعد أن عاد الفاتح إلى خيمته ودعا إليه كبار رجال جيشه أصدر إليهم

التعليمات الأخيرة، ثم ألقى عليهم الخطبة التالية: إذا تم لنا فتح القسطنطينية تحقق فينا حديث من أحاديث رسول الله ومعجزة من معجزاته، وسيكون من حظنا ما أشاد به هذا الحديث من التمجيد والتقدير فأبلغوا أبناءنا العساكر فردًا فردًا، أن الظفر العظيم الذي سنحرزه سيزيد الإسلام قدرًا وشرفاً، ويجب على كل جندي أن يجعل تعاليم شريعتنا الغراء نصب عينيه، فلا يصدر عن أحد منهم ما يجافي هذه التعاليم، وليتجنبوا الكنائس والمعابد ولا يمسوها بأذى ويدعوا القسس والضعفاء والعجزة الذين لا يقاتلون.

وتوجه قسطنطين نحو صورة -يزعمون أنها صورة المسيح- معلقة في إحدى الغرف فركع تحتها وهمهم ببعض الدعوات ثم نهض ولبس المغفر على رأسه وخرج من القصر نحو منتصف الليل مع زميله ورفيقه وأمينه المؤرخ"فرانتزتس"ثم قاما برحلة تفقدية لقوات النصارى المدافعة ولاحظوا حركة الجيش العثماني النشطة المتوثبة للهجوم البري والبحري.

اللحظة التاريخية

عند الساعة الواحدة صباحا من يوم الثلاثاء ٢٠ جمادى الأولى سنة ٨٥٧هـ الموافق ٢٩ مايو ١٤٣٥م، بدأ الهجوم العام على المدينة بعد أن صدرت الأوامر للمجاهدين الذين علت أصواتهم بالتكبير وانطلقوا نحو الأسوار، وخاف البيزنطيون خوفا عظيما، وشرعوا في دق نواقيس الكنائس والتجأ إليها كثير من النصارى، وكان الهجوم النهائي متزامنا بريا وبحرياً في وقت واحد حسب خطة دقيقة أعدت بإحكام، وكان المجاهدون يرغبون في الشهادة، ولذلك تقدموا بكل شجاعة وتضحية وإقدام نحو الأعداء ونال الكثير من المجاهدين الشهادة.

وكان الهجوم موزعا على كثير من المناطق، ولكنه مركز بالدرجة الأولى في منطقة وادي ليكوس، بقيادة السلطان محمد الفاتح نفسه، وكانت

الكتائب الأولى من العثمانيين تمطر الأسوار والنصارى بوابل من القذائف والسهام محاولين شل حركة المدافعين، ومع استبسال البيزنطيين وشجاعة العثمانيين كان الضحايا من الطرفين يسقطون بأعداد كبيرة.

وبعد أن انهكت الفرقة الأولى الهجومية كان السلطان قد أعد فرقة أخرى فسحب الأولى ووجه الفرقة الثانية، وكان المدافعون قد أصابهم الإعياء، وتمكنت الفرقة الجديدة، من الوصول إلى الأسوار وأقاموا عليها مئات السلالم في محاولة جادة للاقتحام، ولكن النصارى استطاعوا قلب السلالم واستمرت تلك المحاولات المستميتة من المهاجمين، والبيزنطيون يبذلون قصارى جهودهم للتصدي لمحاولات التسلق.

وبعد ساعتين من تلك المحاولات أصدر الفاتح أوامره للجنود لأخذ قسط من الراحة، بعد أن أرهقوا المدافعين في تلك المنطقة.

وفي الوقت نفسه أصدر أمرا إلى قسم ثالث من المهاجمين بالهجوم على الأسوار من نفس المنطقة، وفوجئ المدافعون بتلك الموجة الجديدة بعد أن ظنوا أن الأمر قد هدأ وكانوا قد أرهقوا، في الوقت الذي كان المهاجمون دماء جديدة معدة ومستريحة وفي رغبة شديدة لأخذ نصيبهم من القتال.

كما كان القتال يجري على قدم وساق في المنطقة البحرية مما شتت قوات المدافعين وأشغلهم في أكثر من جبهة في وقت واحد.

ومع بزوغ نور الصباح أصبح المهاجمون يستطيعون أن يحددوا مواقع العدو بدقة أكثر، وشرعوا في مضاعفة جهودهم في الهجوم.

وكان المسلمون في حماسة شديدة وحريصين على إنجاح الهجوم، ومع ذلك أصدر السلطان محمد الأوامر إلى جنوده بالانسحاب لكي يتيحوا الفرصة للمدافع لتقوم بعملها مرة أخرى، حيث أمطرت الأسوار والمدافعين عنها بوابل من القذائف، وأتعبتهم بعد سهرهم طوال الليل.

وبعد أن هدأت المدفعية جاء قسم جديد من شجعان الإنكشارية يقودهم

السلطان نفسه تغطيهم نبال وسهام المهاجمين التي لا تنفك عن محاولة منع المدافعين عنها.

وأظهر جنود الإنكشارية شجاعة فائقة وبسالة نادرة في الهجوم واستطاع ثلاثون منهم تسلق السور أمام دهشة الأعداء، ورغم استشهاد مجموعة منهم بمن فيهم قائدهم فقد تمكنوا من تمهيد الطريق لدخول المدينة عند"طوب قابي"ورفعوا الأعلام العثمانية مما زاد في حماس بقية الجيش للاقتحام كما فتوا في عضد الأعداء.

وفي الوقت نفسه، أصيب قائد المدافعين"جستنيان"بجراح بليغة دفعته إلى الانسحاب من ساحة المعركة مما أثر في بقية المدافعين، وقد تولى الإمبراطور قسطنطين قيادة المدافعين بنفسه محل جستنيان الذي ركب أحد السفن فارّاً من أرض المعركة.

وقد بذل الإمبراطور جهودا كبيرة في تثبيت المدافعين الذين دب اليأس في قلوبهم من جدوى المقاومة، في الوقت الذي كان فيه الهجوم بقيادة السلطان شخصيّاً على أشده، محاولاً استغلال ضعف الروح المعنوية لدى المدافعين.

وقد واصل العثمانيون هجومهم في ناحية أخرى من المدينة حتى تمكنوا من اقتحام الأسوار والاستيلاء على بعض الأبراج والقضاء على المدافعين في باب أدرنة ورفعت الأعلام العثمانية عليها، وتدفق الجنود العثمانيون نحو المدينة من تلك المنطقة.

ولما رأى قسطنطين الأعلام العثمانية ترفرف على الأبراج الشمالية للمدينة، أيقن بعدم جدوى الدفاع وخلع ملابسه حتى لا يعرف، ونزل عن حصانه وقاتل حتى قتل في ساحة المعركة.

وكان لانتشار خبر موته دور كبير في زيادة حماس المجاهدين العثمانيين

وسقوط عزائم النصارى المدافعين، وتمكنت الجيوش العثمانية من دخول المدينة من مناطق مختلفة وفر المدافعون بعد انتهاء قيادتهم.

وهكذا تمكن المسلمون من الاستيلاء على المدينة، وكان الفاتح رحمه الله مع جنده في تلك اللحظات يشاركهم فرحة النصر، ولذة الفوز بالغلبة على الأعداء من فوق صهوة جواده، وكان قواده يهنئونه وهو يقول :"الحمد لله ليرحم الله الشهداء ويمنح المجاهدين الشرف والمجد ولشعبي الفخر والشكر".

كانت هناك بعض الجيوب الدفاعية داخل المدينة التي تسببت في استشهاد عدد من المجاهدين، وقد هرب أغلب أهل المدينة إلى الكنائس، ولم يأت ظهيرة ذلك اليوم الثلاثاء ٢٠ جمادى الأولى ٨٥٧هـ الموافق ٢٩ من مايو ١٤٥٣م، إلا والسلطان الفاتح في وسط المدينة يحف به جنده وقواده وهم يرددون ما شاء الله، فالتفت إليهم وقال : لقد أصبحتم فاتحي القسطنطينية الذي أخبر عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهنأهم بالنصر ونهاهم عن القتل والنهب والسلب، وأمرهم بالرفق بالناس والإحسان إليهم، ثم ترجل عن فرسه واستقبل القبلة وسجد لله على الأرض شكرًا وحمدًا وتواضعًا لله تعالى.

وتوجه محمد الفاتح إلى كنيسة(آيا صوفية) وقد اجتمع فيها خلق كبير من الناس ومعهم القسس والرهبان الذين كانوا يتلون عليهم صلواتهم وأدعيتهم، وعندما اقترب من أبوابها خاف النصارى داخلها خوفاً عظيماً، وقام أحد الرهبان بفتح الأبواب له فطلب من الراهب تهدئة الناس وطمأنتهم والعودة إلى بيوتهم بأمان، فاطمأن الناس وكان بعض الرهبان مختبئين في سراديب الكنيسة، فلما رأوا تسامح الفاتح وعفوه خرجوا وأعلنوا إسلامهم، وصلى فيها الفاتح صلاة العصر، وقد أمر الفاتح بعد ذلك بتحويل الكنيسة إلى مسجد وأن يعد لهذا الأمر حتى تقام بها أول جمعة قادمة، وقد أخذ العمال يعدون لهذا الأمر، فأزالوا الصلبان والتماثيل

وطمسوا الصور بطبقة من الجير وعملوا منبرًا للخطيب، وقد يجوز تحويل الكنسية إلى المسجد لأن البلد فُتح عنوة والعنوة لها حكمها في الشريعة الإسلامية.

ثم أمر بدفن الإمبراطور بما يليق بمكانته، وقد أعطى السلطان للنصارى حرية إقامة الشعائر الدينية واختيار رؤسائهم الدينيين الذين لهم حق الحكم في القضايا المدنية، كما أعطى هذا الحق لرجال الكنيسة في الأقاليم الأخرى ولكنه في الوقت نفسه فرض الجزية على الجميع.

وقد حاول المؤرخ الإنجليزي"ادوارد شيبرد كريسي"في كتابه"تاريخ العثمانيين الأتراك"أن يشوه صورة الفتح العثمانية للقسطنطينية، ووصف السلطان محمد الفاتح بصفات قبيحة حقدًا منه وبغضًا للفتح الإسلامي المجيد.

وسارت الموسوعة الأمريكية المطبوعة في عام ١٩٨٠م في حمأة الحقد الصليبي ضد الإسلام، فزعمت أن السلطان محمد قام باسترقاق غالبية نصارى القسطنطينية، وساقهم إلى أسواق الرقيق في مدينة دارنة حيث تم بيعهم هناك.

إن الحقيقة التاريخية الناصعة تقول : إن السلطان محمد الفاتح عامل أهل القسطنطينية معاملة رحيمة وأمر جنوده بحسن معاملة الأسرى والرفق بهم، وافتدى عددًا كبيرًا من الأسرى من ماله الخاص وخاصة أمراء اليونان، ورجال الدين، واجتمع مع الأساقفة وهدأ من روعهم، وطمأنهم إلى المحافظة على عقائدهم وشرائعهم وبيوت عبادتهم، وأمرهم بتنصيب بطريرك جديد فانتخبوا"أجناديوس"بطريركا، وتوجه هذا بعد انتخابه في موكب حافل من الأساقفة إلى مقر السلطان، فاستقبله السلطان محمد الفاتح بحفاوة بالغة وأكرمه أيما تكريم، وتناول معه الطعام وتحدث معه في موضوعات شتى، دينية وسياسية واجتماعية.

وخرج البطريريك من لقاء السلطان، وقد تغيرت فكرته تماماً عن

السلاطين العثمانيين وعن الأتراك، بل والمسلمين عامة، وشعر أنه أمام سلطان مثقف صاحب رسالة وعقيدة دينية راسخة وإنسانية رفيعة، ورجولة مكتملة.

ولم يكن الروم أنفسهم أقل تأثرًا ودهشة من بطريكهم، فقد كانوا يتصورون أن القتل العام لا بد لاحقهم، فلم تمض أيام قليلة حتى كان الناس يستأنفون حياتهم المدنية العادية في اطمئنان وسلام.

وهكذا فتحت مدينة الروم، وكان عمر الفاتح آنذاك الخامسة والعشرين عاماً، وبعد حصار دام خمسين يوماً، وهى المدينة التي حوصرت تسعاً وعشرين مرة، وكان بها من السكان آنذاك أزيد من ٣٠٠ ألف نسمة.

محمد الفاتح يقود جيش المسلمين في حصار القسطنطينية.

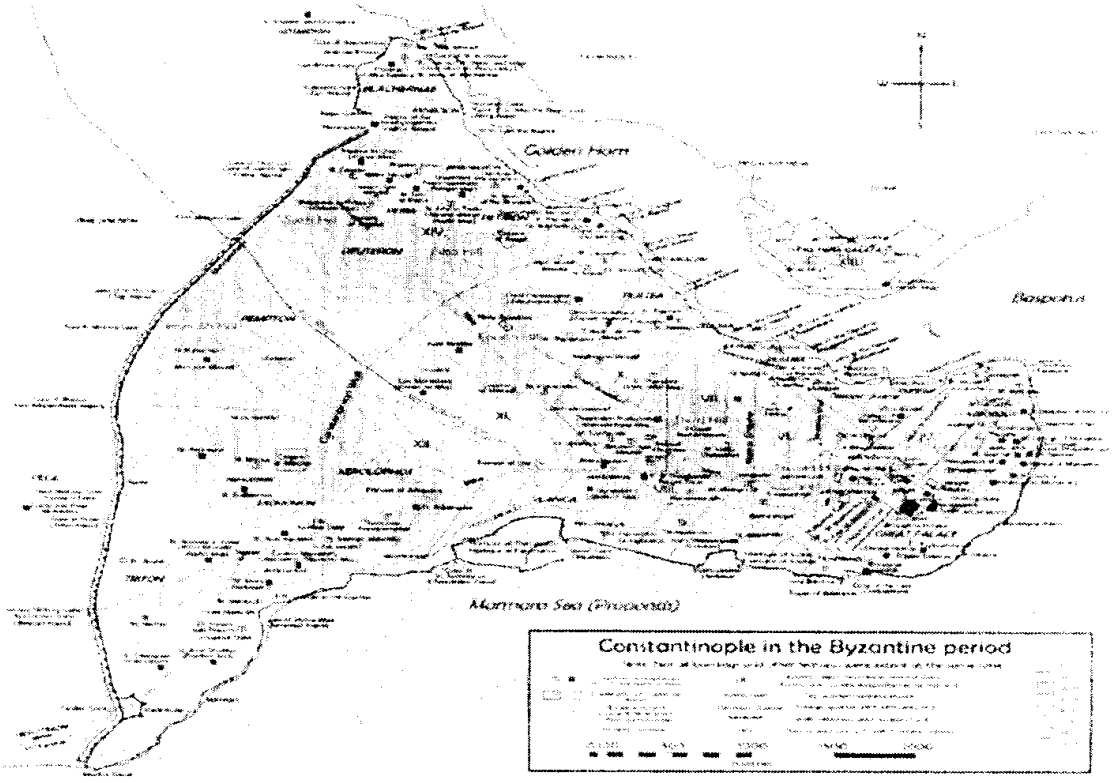

6

الفصل السادس

أوراق من دفـــاتر الفـــتح

(١)

الفتح يعيد تشكيل العالم

سقطت القسطنطينية في يد العثمانيين وتحقق النصر للسلطان العثماني محمد الثاني, ودخل المدينة من باب القديس رومانوس.

كان سقوطها أهم أحداث القرن الخامس عشر الميلادي، بل ويعتبر ذلك الحدث، نهاية العصور الوسطى في أوربا، وبداية للعصر الحديث.والقسطنطينية كانت عاصمة الدولة البيزنطية.

لقد تأثر الغرب بنبأ هذا الفتح، وانتاب النصارى شعور بالفزع والألم والخزي، وتجسم لهم خطر جيوش الإسلام القادمة من اسطنبول، وبذل الشعراء والأدباء ما في وسعهم لتأجيج نار الحقد وبراكين الغضب في نفوس النصارى ضد المسلمين، وعقد الأمراء والملوك اجتماعات طويلة ومستمرة تنادى النصارى إلى نبذ الخلافات والحزازات وكان البابا نيقولا الخامس أشد الناس تأثراً بنبأ سقوط القسطنطينية، وعمل جهده وصرف وقته في توحيد الدول الإيطالية وتشجيعها على قتال المسلمين، وترأس مؤتمراً عقد في روما أعلنت فيه الدول المشتركة عن عزمها على التعاون فيما بينها وتوجيه جميع جهودها وقوتها ضد العدو المشترك. وأوشك هذا الحلف أن يتم إلا أن الموت عاجل البابا بسبب الصدمة العنيفة الناشئة عن سقوط القسطنطينية في يد العثمانيين والتي تسببت في همه وحزنه فمات كمداً في ٢٥ مارس سنة ١٤٥٥م.

حاول البابا بيوس الثاني دفع السلطان العثماني إلى اعتناق المسيحية.

وكان البابا ساذجًا إلى درجة أنه اعتقد أنه يمكنه تحويل السلطان من عقيدة التوحيد المحمدية إلى العقيدة المسيحية بمجرد دعوة السلطان ذلك، إلا أن تلك المحاولة انتهت بموت زعيمها البابا.

أما آثار هذا الفتح على العالم الإسلامي فقد عم الفرح والابتهاج في ربوع آسيا وإفريقيا لهذا الفتح الإسلامي العظيم الذي حقق حلم المسلمين.

أرسل السلطان إلى حكام بلاد الإسلام يخبرهم نبأ هذه الفتح حتى هلل المسلمون، وكبروا وأذيعت البشائر من منابر المساجد وأقيمت صلوات الشكر وزينت المنازل والدكاكين والحوانيت وعلقت على الجدران والحوائط الأعلام والأقمشه المزركشة بألوانها المختلفة.

يقول ابن إياس صاحب كتاب بدائع الزهور في هذه الواقعة : فلما بلغ ذلك، ووصل وفد الفاتح، دقت البشائر بالقلعة، ونودي في القاهرة بالزينة، ثم إن السلطان عين برسباي أمير آخور ثاني رسولاً إلى ابن عثمان يهنئه بهذا الفتح.

وندع المؤرخ أبا المحاسن بن تغري بردي يصف شعور الناس وحالهم في القاهرة عندما وصل إليها وفد الفاتح ومعهم الهدايا وأسيران من عظماء الروم، قال: قلت ولله الحمد والمنة على هذا الفتح العظيم وجاء القاصد المذكور ومعه أسيران من عظماء إسطنبول وطلع بهما إلى السلطان سلطان مصر أينال وهما من أهل القسطنطينية وهى الكنيسة العظيمة بإسطنبول، فسرَّ السلطان والناس قاطبة بهذا الفتح العظيم ودقت البشائر لذلك وزينت القاهرة بسبب ذلك أيامًا ثم طلع القاصد المذكور وبين يديه الأسيران إلى القلعة في يوم الاثنين خامس وعشرين شوال بعد أن اجتاز القاصد المذكور ورفقته بشوارع القاهرة.

وقد احتفل الناس بزينة الحوانيت والأماكن وأمعنوا في ذلك إلى الغاية وعمل السلطان الخدمة بالحوش السلطاني من قلعة الجبل.

وهذا الذي ذكره ابن تغري بردي من وصف احتفال الناس وأفراحهم في القاهرة بفتح القسطنطينية ما هو إلا صورة لنظائر لها قامت في البلاد الإسلامية الأخرى. وقد بعث السلطان محمد الفاتح برسائل الفتح إلى سلطان مصر وشاه إيران وشريف مكة وأمير القرمان، كما بعث بمثل هذه الرسائل إلى الأمراء المسيحيين المجاورين له في المورة والأفلاق والمجر والبوسنة وصربيا وألبانيا والى جميع أطراف مملكته.

(٢)

من رسائل محمد الفاتح

رسالته إلى سلطان مصر

فيما يلي نص رالسلطان محمد الفاتح إلى سلطان مصر الأشرف إينال وهى من إنشاء المولى الكورانى:

بسم الله الرحمن الرحيم متيمنا بذكره القديم (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شي قدير) يحمد الله ويثنى عليه عبده المستبشر بالمبشرات المتواترة اللاتى ينبئن عن استقرار القدم المقدام على سريرالسلطنة السامية الباهرة بالدولة العلية القاهرة، ألا وهو السلطان الوالى العالى العالمى المؤيدى المظفرى الظهيرى الهمامى العونى الغوثى الغياثى الإمامى النظامى الذى أشرقت من أفق التوفيق شمس سلطنته، وخفقت راية الإقبال من هبوب نسيم خلافته تتطأطأ أعناق الجبابرة نحو سدته السنية ويتكأكأ أقيال الأكاسرة على عتبته العلية وبه أضحت عقود حكمه منتظمة وأمور السلطنة ملتئمة ويتفاخربوصفه المآثر ويختال بذكره المفاخرأعنى الملكى الألطفى السلطان الأشرف ,الأبوى الأعطفى ضاعف الله -تعالى- ملكه وسلطانه وأفاض على العالمين بره وإحسانه ولابرح فى دولة لاتنهدم دارها ونعمة لاتنفصم آثارها وسعادة لاتصفر أوراقها وسيادة لاتتغير آفاقها وما انفك بنود الدين بباهر صولته مرفوعة وأسنة الحوادث فى نحو أعدائه مكسورة، وجماجم حساده على رءوس الأسنة منصوبة وتحت الأقدام مخفوضة ونقول لما تتابعت عندنا الأخبار التى تشتمل على صعود شمس السلطنة على أوج سرير الخلافة أدامه الله وأعلاه وبارك فيه وأبقاه ببركة نبيه المجتبَى ورسوله المصطفى عليه وعلى من صلة الصلوات

أزكاها .ملئنا بهجة وسرورا وغبطة وحبورا وأنشدنا بلسان صدق شعرا:

هنيئـا لمصر أنت صرت عزيزة

بلـوغ الأمانى وابتغـاء المحامـد

وتعتدل الأيـام فيها ويقتنى

صنوف البرايا منه طرف الفوائد

فمذ ظهرت فيه علايم بأسكم

قد التطمت منها رسوم المفاسد

هذا وإن الولاء والمواصلة من تكفل بمؤنه إحياء نسك الحج للعباد والعباد وبين من تحمل بمشاق تجهيز أهل الغزو والجهاد كما هو المتوارث من الآباء والأجداد أنعمهم الله بنعمة الموعود فى المعاد، فالقلب مصمم على تأييد تلك القديمة بسلوك طرايق تنسى لطائف أخريها بطيب نعيمها لذايذ أوليها، فبهذا الحبل المتين نحن ماسكون وعلى هذا الصراط المستقيم المستبين سالكون فشددنا وثاق صدق ذلك المقر العالى أعلاه الله وأسماه وفتحنا أبواب المراسلة وقدمنا أسباب المواصلة وأهدينا طرايف التسليمات السليمات عن شوايب الرياء والرعونات وأتحفنا لطايف التحيات المنورات بنور الإخلاص المجلاة بالولاء والاختصاص المزهرات بصدق الطوية رياضها المترعات من زلال المحبة حياضها ورفعنا الأدعية الصالحة المستجابة والأثنية الفايحة المستطابة والأشواق البالغة ذروة والأتوق المتوالية بالغدو والآصال وأنهينا إلى العلم الكريم محفوفا بما يسره الله -تعالى -من المطالب البهية والمآرب السنية إن من أحسن سنن أسلافنا -رحمهم الله- أنهم مجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ونحن على تلك السنة قائمون وعلى تيك الأمنية دائموان ممتثلين بقوله تعالى: ﴿قاتلوا الذين

لايؤمنون بالله﴾ ومتمسكين بقوله:من اغبرت قدماه فى سبيل الله حرمه الله على النار فهممنا فى هذا العام عممه الله بالبركة والإنعام معتصمين بحبل ذى الجلال والإكرام ومتمسكين بفضل الملك العلام إلى أداء فرض الغزاة فى الإسلام مؤتمرين بأمرة تعالى (قاتلوا الذين يلونكم من الكفار) وجهزنا عساكر الغزاة والمجاهدين من البر و البحر لفتح مدينة ملئت فجورا وكفرا التى بقيت وسط الممالك الإسلامية تباهي بكفر فخرا:

فكأنهـــا حـــصف على الخـــد الأغـــر

وكـــأنهـــا كلف على وجـــه القـــمـــر

وهى محصنة صعب المرام شامخة الاركان راسخة البنيان مملوءة من المشركين الشجعان خذلهم أينما كانوا وهم مستكبرون على أهل الشرك والطغيان وحصن محصن مسدد مشدد مشيد منسق النظام ماظفر به أسلافنا العظماء هؤلاء السلاطين الأساطين الفخام، مع أنهم جاهدوا حق الجهاد ولم ينالوا بها نيلا وهى قلعة عظيمة مشتهرة فى ألسنة الأرض باسم القسطنطينية ولا يبعد من أن تكون هى التى نطق بها صحاح الأحاديث النبوية والأخبار المصطفوية عليه وعلى آله أتم الصلاة والتحية.فيفتحون قسطنطينية فبينما هم يقتسمون الغنايم قد علقوا سيوفهم بالزيتون. .. الحديث. وغير هذا من الصحاح المشهورة هى هذه المدينة الواقع جانب منها فى البحر وجانب منها فى البر فأعددنا لها كما أمرنا الله بقوله: (وأعدوالهم ما استطعتم من قوة) كل أهبة يعتد بها وجميع أسلحة يعتمد من البرق والرعد والمنجنيق والنقب والجحور وغيرها من جانب البر والفلك المشحون والجوار المنشآت فى البحر كالأعلام من جانب البحر ونزلنا عليها فى السادس والعشرين من ربيع الأول من شهور سنة سبع وخمسين وثمانمائة .

فـقلت للنفس جـدى الآن فـاجـتـهـدى

وسـاعـدينى فـهـذا مـاتمنيت

فكلما دُعوا إلى الحق أصروا واستكبروا وكانوا من الكافرين فأحطنا بها محاصرة وحاربناهم وحاربونا، وقاتلناهم، وقاتلونا، وجرى بيننا وبينهم القتال أربعة وخمسين يوما وليلة .

إذا جـاء نصـرالله والفـتح هين

على المرء معسور الأمور وصعبها

(٣)

رسالة الفاتح إلى شريف مكة

"الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى أدام الله علو المقر الكريم السيدى السندى الشريفى الأشرفي الأكرمي الأعلمى الأروعي النظامي الأمامي الهمامي الأوحدي الأمجدي العالى العاملى الأعظمى الأولوى الأعلوى العلوى المشيدى المؤيدى النصيرى الظهيرى الطاهرى، معلى قواعد الموسم والحرمين، حامى مشاهد البقاع الشريفة والمروتين، مؤسس مواسم العظمة والجلال، مؤكد معاقد المقاصد والآمال مطلع لوامع العز والتمكين مظهر مآثر الملك والدين فلذة أكباد الرسول زبدة أحفاد البتول، أمير المسلمين وولى المؤمنين خلاصة أولاد شفيع المذنبين وهو السيد الشريف والقرم المنيف سلطان بيت الله -تعالى -شرفه الله وحواليه علاء الدولة والملة والدين السيد الأحسنى العجلاني الحسني زاد الله -تعالى-سعادته وأدام سيادته، ولاخلا فى دولة لاينهدم دارها، ونعمة لا ينفصم آثارها ولازالت أسباب مودته ومحبته مؤكدة وعقود موالاته وهمته منظمة منضدة مدى الدهور والأعوام بحرمة سيد الأولين والآخرين وآله وصحبه أجمعين الطيبين الطاهرين عليه أفضل الصلاة والسلام .وبعد فقد أرسلنا هذا الكتاب مبشراً بما رزق الله لنا في هذه السنة من الفتوح التي لاعين رأت ولا أذن سمعت وهى تسخير البلدة المشهورة بقسطنطينية الملاصقة بمرج البحرين وفى مقابلتها مدينة أخرى موسومة بغلطة وفى جانبها الشرقي بلدة أخرى معلمة باسكدار . أما الأولى فكأنها ثعبان له سبع رؤوس من قللها المشتهرة وتلك القلل سبع رواسي شامخات حصينة رفيعة مهيأة بأمر الله -عز وجل-لمقر الخلافة الإسلامية ومرزوقة لنا بتقدير الحكم السبحانية ولا شك أنها سلطان البلاد والأخريان من جنبيها يميناً وشمالا

كخادمين في طرفي السلطان فلما توجهنا وعزمنا عليها هجم علينا الكفار المملوءة فيها خارجا وداخلا وحاربوا معنا فقلم المحاربة بيننا وبينهم قريب شهرين بعد إبائهم عن إعطاء الجزية الشرعية ثم عجزوا عن القتال وهربوا من الجدال فازدحم أهل الإسلام وجاهد كل من المجاهدين عن البر والبحر حق الجهاد فقربوا من السور وصعد جم كثير من الكماة الموحدين فوق منافذ جدرانها المندرسة من المنجنيق والعرادة فدخلوا في نفس هذه البلدة المتبركة المنورة بقدوم الموحدين بالتكبير والتهليل يوم الثالث والعشرين من شهر جمادى الأولى، فقطع في مبدأ الأول رأس هذه الملاعين أعنى التكفور اللعين أو لحق بجهنم مع سائر المقتولين من المشركين، فخربوا دورهم وكسروا صلبانهم وأغاروا على خزانيهم وأموالهم وأسروا ذراريهم وصبيانهم وجعلوا معابدهم القسيسية مساجد الأمة المحمدية وجمع الملة الأحمدية وطهر تلك المواقع عن الأرجاس الرهبانية والأنجاس النصرانية (فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) وأما بقية السيوف فعفونا عنهم وقطعنا عليهم الجزية السنوية سعيا لبيت المال فلما تشرف مناب الخطب بشرف ألقابنا العلية الباهرة وتزين وجوه الدراهم والدنانير المسكوكة بزينة أسمائنا الجلية الطاهرة جهزنا إلى خدمتكم الشريفة فخر المقربين وزين حجاج الحرمين خواجة حاجى محمد الزيتوني حفظه الله في الذهاب والإياب ورزقه الوصول والمعاودة بالخير والصواب لتبليغ الرسالة وترسيل البشارة ,فالمأمول من مقر عزكم الشريف أن يبشش بقدوم هذه المسرة العظمى والموهبة الكبرى مع سكان الحرمين الشريفين والعلماء والسادات والمهتدين والزهاد والعباد الصالحين والمشايخ الأمجاد الواصلين والأئمة الأخيار المتقين والصغار والكبار أجمعين المتمسكين بأذيال سرادقات بيت الله الحرام التي كالعروة الوثقى لا انفصام لها، والمشرفين بزمزم والمقام والمعتكفين في قرب جوار رسول الله م داعين لدوام دولتنا في العرفات متضرعين من الله نصرتنا أفاض الله علينا بركاتهم ورفع درجاتهم بالنبي

وآله وذويه وبعثنا مع المشار إليه هدية لكم خاصة ألفى فلورين من الذهب الخالص التام الوزن والعيار المأخوذ من تلك الغنيمة وسبعة الآف فلورين أخرى للفقراء منها ألفان للسادات والنقباء والألف للخدام المخصوصة بالحرمين والباقي للمتمكنين المحتاجين في مكة المعظمة والمدينة المكرمة زادهما الله شرفا، فالمرجو منكم التقسيم بينهم بمقتضى احتياجهم وفقرهم وإشعار كيفية السير إلينا وتحصيل الدعاء منهم لنا دائما باللطف والإحسان إن شاء الله -تعالى -والله يحفظكم ويبقيكم بالسعادة الأبدية والسيادة السرمدية إلى يوم الدين آمين يا رب العالمين. وصلى الله على خاتم الأنبياء والمرسلين وآله وصحبه أجمعين.

٣

تسامح المنتصر

دخل محمد الفاتح القسطنطينية، وغير اسم القسطنطينية إلى "إسلام بول" (أي عاصمة الإسلام)، ولكنها حرفت إلى إستامبول، كما جعل أكبر كنائس المدينة (أيا صوفيا) مسجدًا بعد أن صلى فيه الجيش الفاتح بعد النصر، أما المسيحيون فلم يعاملهم بما كانوا يعاملون به المسلمين، لقد ترك لهم حرية العبادة، وترك لهم بطريقَهُم يشرف على أمورهم الدينية.

وقد وصف فولتير الفيلسوف الفرنسي الشهير موقف المنتصر المسلم من المهزوم المسيحي بقوله: إن الأتراك لم يسيئوا معاملة المسيحيين كما نعتقد نحن، والذي يجب ملاحظته أن أمة من الأمم المسيحية لا تسمح أن يكون للمسلمين مسجد في بلادها بخلاف الأتراك، فإنهم سمحوا لليونان المقهورين بأن تكون لهم كنائسهم، ومما يدل على أن السلطان محمد الفاتح كان عاقلا حكيمًا تركه للنصارى المقهورين الحرية في انتخاب البطريق، ولما انتخبوه ثبته السلطان وسلمه عصا البطارقة، وألبسه الخاتم حتى صرح البطريق عند ذلك بقوله: إني أخجل مما لقيته من التبجيل والحفاوة، الأمر الذي لم يعمله ملوك النصارى مع أسلافي.

هذه هي حضارة الإسلام ومبادئه في ميدان الحرب والتسامح مع أهل الأديان الأخرى، على خلاف النصارى في حروبهم مع المسلمين سواء في الحروب الصليبية أو في الأندلس أو في العصر الحديث في كل مكان، فإنهم يقتلون الأبرياء، ويحرقون الأخضر واليابس، ويخربون بيوت الله، ولا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة.

وكما ذكرنا من قبل فقد توجه محمد الفاتح الى كنيسة آيا صوفيا وقد اجتمع فيها خلق كثير من الناس ومعهم القسس والرهبان الذين كانوا يتلون

عليهم صلواتهم وأدعيتهم، وعندما اقترب من أبوابها خاف النصارى داخلها خوفاً عظيماً، وقام أحد الرهبان بفتح الأبواب له فطلب من الراهب تهدئة الناس وطمأنتهم والعودة الى بيوتهم بأمان، فاطمأن الناس وكان بعض الرهبان مختبئين في سراديب الكنيسة فلما رأوا تسامح الفاتح وعفوه خرجوا وأعلنوا إسلامهم، وقد أمر الفاتح بعد ذلك بتحويل الكنيسة الى مسجد وأن يعد لهذا الأمر حتى تقام بها أول جمعة قادمة، وقد أخذ العمال يعدون لهذا الأمر، فأزالوا الصلبان والتماثيل وطمسوا الصور بطبقة من الجير وعملوا منبراً للخطيب، وقد يجوز تحويل الكنيسة إلى المسجد لأن البلد فتح عنوة والعنوة لها حكمها في الشريعة الاسلامية.

وقد أعطى السلطان للنصارى حرية إقامة الشعائر الدينية واختيار رؤسائهم الدينيين الذين لهم حق الحكم في القضايا المدنية، كما أعطى هذا الحق لرجال الكنيسة في الأقاليم الأخرى ولكنه في الوقت نفسه فرض الجزية على الجميع.

كان العثمانيون حريصين على الالتزام بقواعد الإسلام، ولذلك كان العدل بين الناس من أهم الأمور التي حرصوا عليها، وكانت معاملتهم للنصارى خالية من أي شكل من أشكال التعصب والظلم، ولم يخطر ببال العثمانيين أن يضطهدوا النصارى بسبب دينهم.

إن ملل النصارى تحت الحكم العثماني تحصلت على جميع حقوقها الدينية، وأصبح لكل ملة رئيس ديني لا يخاطب غير حكومة السلطان ذاتها مباشرة، ولكل ملة من هذه الملل مدارسها الخاصة وأماكن للعبادة والأديرة، كما أنه كان لا يتدخل أحد في ماليتها وكانت تطلق لهم الحرية في تكلم اللغة التي يريدونها.

إن السلطان محمد الفاتح لم يظهر ما أظهره من التسامح مع نصارى القسطنطينية إلا بدافع التزامه الصادق بالإسلام العظيم، وتأسياً بالنبي

الكريم صلى الله عليه وسلم، ثم بخلفائه الراشدين من بعده، الذين امتلأت صحائف تاريخهم بمواقف التسامح الكريم مع أعدائهم.

أما حرية رجال الدين في طقوسهم، وإبقاء سلطتهم على رعاياهم دون تدخل الدولة في ذلك، فقد شعر المسيحيون من سكان البلاد بالحرية في ذلك ما لم يشعروا ببعضه في حكم الروم. ولعل أحداً منا لا ينسى موقف السلطان محمد الفاتح حين استولى على القسطنطينية مقر البطريركية الأرثوذكسية في الشرق كله، فقد أعلن يومئذ تأمين سكانها - وكلهم نصارى - على أموالهم وأرواحهم وعقائدهم وصلبانهم وأعفاهم من الجندية، ومنح رؤساءهم سلطة التشريع والفصل في الخصومات التي تقع بين رعاياهم، دون أن تتدخل الدولة فيها! فرأى في ذلك سكان القسطنطينية فرقاً كبيراً بين ما كانوا يعامَلون به في عهد البيزنطيين وبين معاملة السلطان محمد الفاتح لهم، إذ كان البيزنطيون يتدخلون في الخلافات المذهبية ويفضلون أتباع كنيستهم على أتباع الكنائس الأخرى.

وعندما دخل السلطان العثماني محمد الفاتح القسطنطينية فاتحًا (٨٥٧هـ - ١٤٥٣م) وكان معظم سكان المدينة قد لجأوا إلى كنيستها (أياصوفيا) وعندما اقترب السلطان من الكنيسة بعد جولته في أرجاء المدينة سمع أصواتًا خافتة حزينة تعج بالصلوات والدعاء من داخل الكنيسة، وكان نصارى القسطنطينية يتوقعون من المسلمين الفاتحين استئصال المسيحية من المدينة، كما صنع الكاثوليك بهم قبل قرنين تقريبًا.

وعندما علم الراهب الذي يقود القداس بقدوم محمد الفاتح فتح باب الكنيسة على مصراعيه ودخل السلطان وطالب الراهب بإتمام صلاته بالناس في هدوء وأمان، ثم أعطى السلطان الأمان للناس كي يذهبوا إلى منازلهم آمنين على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم.

وكما ذكرنا فقد أمر السلطان جنوده بحسن معاملة الأسرى والرفق بهم

وحض على تحريرهم وفدائهم ثم رعى الفاتح تعيين (جناديوس) بطريركًا للقسطنطينية (الأرثوذكسية) فاحتفى به وبالغ في تكريمه وتناول معه الطعام على مائدته ثم قدم له عصا البطريركية وودعه ورافقه إلى باب القصر وأعانه على ركوب الجواد المطهّم الذي أعد له وأمر وزراءه باصطحابه إلى مقره الرسمي.

فقال البطريرك في خجل من السلطان: «إن الأباطرة النصارى لم يفعلوا قط مثل هذا لمن سبقني من البطاركة».

ثم أصدر الفاتح «فرمانًا» بمعاملة البطريرك معاملة وزراء الدولة وأمره بالنظر في أمور رعيته الروم في القضايا الدينية والمدنية.

وقد عاشت الجماعات اليهودية في خوف من الهجمات ضد السامية في البلاد الأوربية ولعدة قرون، بينما عاشوا في تركيا بأمن وسلام . ويكفي هذا المثال وحده لإثبات التسامح والعدل اللّذيْن أوصى بهما الإسلام.

الرحمة والتسامح والأخلاق الكريمة التي أظهرها السلطان بايزيد الثاني تميز جميع السلاطين العثمانيين. فعندما فتح السلطان محمد الفاتح القسطنطينية سمح لليهود والمسيحيين بالعيش بحرية تامة.

كتب "اندر ميكول" صاحب العديد من الأعمال القيمة، عن فضائل الإسلام قائلا:

"وقد عاشت الجماعات المسيحية تحت حكم عادل لم تتمتع به خلال الحكم البيزنطي اللاتيني، بل إنهم تعرضوا للاضطهاد على يد إخوانهم. وفي المقابل أصبحت الإمبراطورية العثمانية وخاصة إسطنبول مأوى لليهود الإسبان المضطهدين. ولم يجبر الناس على اعتناق الإسلام، ولكن انتشار الإسلام جاء نتيجة طبيعية للتطورات الاجتماعية ."

وكما يتضح من هذه الحقائق، لم يكن المسلمون ظالمين في أية فترة من

فترات التاريخ . بل إنهم رسخوا قيم السلام أينما ذهبوا مع كل البلاد والعقائد وسلكوا سلوكا طيبا تجاه كل الناس، والتزموا بقول الله تعالى:

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا﴾ (النساء: ٣٦)

"كان فتح السلطان محمد الفاتح لاسطنبول عهدا جديدا يتميز بالحرية لليهود والمسيحيين الذين تعرضوا للظلم عدة قرون على يد الحكام الرومان والبيزنطيين."

وباختصار فإنّ الصداقة والأخوة والسلام والحب هى القواعد الأساسية للمبادئ والأخلاقيات القرآنية التي يحاول المسلمون التمسك بها.

نظام الملة

وابتداء من عام ١٥١٦ غدا المسيحيون العرب جزءاً من رعايا الدولة العثمانية التي عاملتهم وفقا لنظام الله، المستنبطة قواعده من أحكام الشريعة الاسلامية. اذ تألفت الرعية في الدولة العثمانية من فئتين هما فئة المسلمين وفئة غير المسلمين، واعتبرت الفئة الثانية، لاسيما المسيحيون من أهل الذمة، وهم الذين يتعهدهم السلطان بالحماية، وذلك بالمحافظة على حياتهم وحرياتهم وأموالهم، والسماح لهم بممارسة طقوس دياناتهم وإعفائهم من الخدمة العسكرية، وفي المقابل، يتعهد الذميون بدفع الجزية والالتزام ببعض القيود التي تجعل منهم طبقة من المواطنين، ولكنهم في درجة أدنى من المسلمين والمسيحيون العرب في بلاد الشام ومصر ينقسمون الي العديد من الطوائف الدينية أبرزها:

أ ـ الروم الأرثوذكس: كانت تسميتهم تطلق على مجموعتين من الكنائس المسيحية، الأولى هى: الكنائس المسيحية البيزنطية المنشقة عن الكنيسة الرومانية، وبرز أتباعها منذ القرن الحادي عشر للميلاد في كل من روسيا

واليونان ودول البلقان والبلاد العربية، ثم المجموعة الثانية وتشمل أربع طوائف مسيحية تقول أيضا بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح، وتتكون من السريان والأقباط والاحباش والأرمن. ولقد انتشر الروم الأرثوذكس في سوريا ولبنان وفلسطين ومصر، وكانوا يؤلفون ثلاث بطركيات هي: بطركيات أنطاكية، والقدس، والإسكندرية. وكانت تقام الطقوس الدينية باللغة اليونانية، وظلت المقامات الرئيسية في البطركيات الثلاث تحت احتكار اليونانيين مما جعل الأرثوذكس العرب يسعون إلى التخلص من هذا النفوذ، الأمر الذي كان عاملا في إذكاء الروح القومية لديهم.

وأقدم السلطان محمد الفاتح على تنظيم شؤون الكنيسة الأرثوذكسية بأن جعلها كلها ملة تحت سلطة البطريرك وباسم (روم ملتي) أي ملة الروم، وتعني كلمة الروم في الاصطلاح الإسلامي روما الشرقية أي بيزنطة.، وقد تم منح البطريرك رتبة باشا، وخصص له محكمة وسجن في حي الفنار، ومنح كل الصلاحيات على رعاياه حتى غدا مسؤولا عنهم، كما ألقى عليه عبء الإشراف على جمع أموال الجزية ومسؤولية دفعها للخزينة، وترك له أمر توزيع مقدارها بين أفراد الطائفة.

ب ـ طائفة الكاثوليك: وبرزت بوفاة تيودرسيوس الكبير عام ٢٩٥ حيث تأصل الانقسام في الكنيسة المسيحية، وبدا النفور بين الكنيسة الشرقية في القسطنطينية والكنيسة الغربية في روما في القرن الحادي عشر، وبقي الكاثوليك ملة ملحقة بإحدى الكنائس الأرثوذكسية أو الأرمنية في ظل الدولة العثمانية، ولم يكن تعداد الكاثوليك كبيرا بين المسيحيين حتى الربع الأول من القرن الثامن عشر، مع بداية حركة التبشير الأوربية، وتم تحويل العديد من أبناء الطائفة الأرثوذكسية إلى صف الكاثوليكية، ولقد انقسم الكاثوليك في الولايات العربية إلى أربع طوائف أو كنائس أساسية، لكل منها بطريرك خاص بها وهم الموارنة والروم الكاثوليك والسريان الكاثوليك

والكلدان الكاثوليك، وقد كانوا مستقلين عن الكنائس الأوربية وجميع رؤسائها من أهل البلاد.

ج ـ طائفة الأرمن: لم تعترف الدولة العثمانية بالأرمن ملة إلا في عام ١٦٤١ وذلك لأن زعيمها الروحي كان يقيم خارج حدود الدولة العثمانية. ولقد ضمت الملة الأرمنية بين أطرافها جميع رعايا السلطان الآخرين غير المعترف بهم كملة مستقلة (السريان والأحباش والأقباط) . وانقسم الأرمن في سوريا إلى أرثوذكس وكاثوليك بعد أن كانوا حتى القرن السابع عشر من اتباع الكنيسة اليعقوبية (اليعاقبة)، ثم انشق بعضهم بعد ذلك ونصبوا بعد عام ١٧٣٩ بطريركا كاثوليكيا، وقد كان لطائفة الأرمن القديمة كنيسة صغيرة في دمشق (مار سركيس) وألحقت بالكنيسة الأرثوذكسية مدرسة ابتدائية تدرس الأرمنية. أما الأرمن الكاثوليك، فقد أنشأوا لهم كنيسة صغيرة بعد عام ١٨٦٠ بالقرب من دير الرهبان اللعازريين، وكان بطريرك الأرمن اليعاقبة يقيم في القدس، بينما استقر بطريرك الأرمن الكاثوليك في بيروت.

د ـ الموارنة: وهم جماعة من السريان السوريين، ينتسبون إلى الراهب (مار مارون) وكان الموارنة يتبعون الكنيسة الشرقية، ثم تحولوا إلى الكنيسة الغربية ولكنهم احتفظوا بطقوسهم الشرقية وظلوا يؤدون عباراتهم باللغة السريانية، ثم أخذت الجمعيات الكاثوليكية تهتم بتعليمهم اللغة الفرنسية عن طريق مدارسهم المنتشرة في جبل لبنان، الأمر الذي جعلهم فيما بعد أكثر ميلا نحو فرنسا، وكان للموارنة أسقفيتان الأولى في دمشق والثانية في بعلبك.

هـ ـ البروتستانت: بدأ نشاط البعثات البروتستانتية في بلاد الشام على نطاق واسع منذ عام ١٨٢٠ حين أسس الأمريكان أول مركز إرسالي لهم في بيروت، رأى فيه المسلمون والسلطات العثمانية بوادر تسلل استعماري إفرنجي، بالإضافة إلى صفتهم التبشيرية، وكذلك رأى الأرثوذكس والكاثوليك فيهم تهديدا خطيرا لوحدة كنائسهم لكن البروتستانت ثابروا

على عملهم، وامتد نشاطهم إلى دمشق، وحلب وحمص، وحماة، وجبال النصيرية. وتمتعوا بحماية قناصل بريطانيا والولايات المتحدة.

هذا ولم تعترف السلطات العثمانية رسميا بالطائفة البروتستانتية إلا عام ١٨٥٠ . أسست الطائفة البروتستانتية أسقفية في القدس وسائر البلاد العربية، كما انشأت كنيستين في دمشق بنيت الأولى عام ١٨٦٤ والثانية عام ١٨٦٨ .

ومن المعلوم أن هذا المذهب قام على أساس تلاوة الإنجيل باللغات التي يفهمها الناس، ولذلك سعى أتباع هذا المذهب ـ منذ نشأته ـ إلى ترجمة الكتاب المقدس إلى مختلف لغات العالم، ومنها العربية، وبذلوا جهودا جبارة لتعلم اللغة العربية، حتى صارت الصلوات والتراتيل والمواعظ الدينية تقام باللغة العربية فقط في جميع الكنائس والمدارس البروتستانتية.

و ـ الأقباط: ينتمي هؤلاء إلى الكنيسة المونوفوستية أو الأحادية الطبيعية، وتؤمن بعقيدة أن للمسيح شخصا وطبيعة واحدة، وقد انقسمت هذه الكنيسة إلى فرعين هما: اليعاقبة في سوريا والأقباط في مصر، وقد تعرضت الطائفتان إلى الكثير من أذى الارثوذكس واضطهادهم، وكان عدد اليعاقبة في بلاد الشام يقرب من ٥٠ ألف عائلة في القرن السادس عشر أما الأقباط (الكنيسة القبطية) فلم يقتصر وجودهم على مصر، بل امتدوا إلى القدس والحبشة وبلاد النوبة، وكانت رئاستها منوطة ببطريكيتهما في القاهرة، لكن بعد الفتح العثماني للبلاد العربية، أخذ أتباعها بالتناقص تدريجيا نتيجة دخول أعداد كبيرة منهم في الإسلام،

أطلق العثمانيون على هذه الجماعات أو الطوائف اسم (ملة) وعلى الشخص المسؤول عن إدارتها لقب (ميليت باشي) وبالتالي كان على كل طائفة أن تخضع لرئيسه الروحي كالبطريرك الذي أعطي سلطات واسعة

في إدارة امـلاك وأمـوال الكنائس والأديرة، وهو مـا أدى إلى اتسـاع نطاق إشـرافه على شـؤون الكنيسـة ورعـاياها الدينيـة والمدنيـة والاجـتمـاعيـة والثقافية والقضائية.

ظهر نظام الملة هذا تدريجيا نتيجة جهود الإدارة العثمانية الآخذة بعين الاعتبار بنية وثقافة المجموعات الإثنية الدينية العديدة التي حكمتها، إذ تركت الدولة العثمانية المجال مفتوحا أمام التعددية الدينية والثقافية والإثنية في نطاق هذه الجاليات، ومنحتهم حقوقا مدنية ودينية لم يكونوا يتمتعون بها قبل العهد العثماني، ومن جهة أخرى سمحت باندماجها في النظام السياسي والاقتصادي والإداري العثماني، وعليه فإن الدولة كانت نادرا مـا تتدخل في شـؤون أهل الذمـة مـادامـوا يؤدون الضـرائب بانتظام وملتزمين بالمنظومة الأخلاقية العامة للمجتمع الإسلامي.

وإذا أضفنا إلى هذه الحرية النسبية التي كانت تعطى مقابل دفع الجزية عنصر إبعاد هذه الطوائف عن مواقع الهيئة الحاكمة، ادركنا سبب توجه هذه الطوائف نحو الاعتماد على التجارة والخدمة المالية للدولة وهي التوجهات التي برزت في سياق عاملين اثنين:

أولهما: عودة التجارة الغربية إلى حوض البحر الأبيض المتوسط ابتداء من أواخر القرن السادس عشر محمولة ومدعومة بالامتيازات الأجنبية، التي كان من شأنها تسهيل التجارة الغربية في الداخل ومد شبكة التسويق الداخلي وتوسيع حلقات التبعية عبر المدارس ومعرفة اللغات الأجنبية الأمر الذي احتلت معه نخب الطوائف المسيحية وشرائح التجار فيها، وذلك من خلال عملهم كمترجمين ووكلاء محليين ودائنين ووسطاء، مواقع مهمة في هرم الثروة والسلطة. وفي مصر كان الأقباط يقومون بأعمال الصرافة والصناعة النسيجية والتجارة والصياغة خاصة أن هذه الطوائف أصبحت في بعض المحافظات حكرا على المسيحيين واليهود فقط. هذا في وقت كان

الاختراق الغربي يؤدي من جهة أخرى إلى تقهقر فئات اجتماعية أكثرها من المسلمين وذلك عبر انسحاقها تحت وطأة السلعة الاستهلاكية الأوربية، التي بيعت بأسعار أقل وساهمت في تدمير الصناعة المحلية التقليدية.

ولقد لعب المسيحيون دورا أساسيا في هذه العملية كوسطاء بين الصانع الرئيسي والمشتري المحلي، ونتج من هذه العملية تدمير حياة الكثير من العائلات المسلمة، ومن بينها الحرفيون والتجار، الذين عجزوا عن تطوير تقنيات إنتاج جديدة بكلفة أقل، وتم هذا وسط المنافسة القوية بين الدول الأوروبية لاكتساب مواقع داخلية في التركيب الاجتماعي الداخلي، ولإجراء عمليات تقسيم لمناطق الدولة العثمانية بعد دخول الرأسماليات الغربية مرحلة التوظيف المالي في الخارج ومرحلة السيطرة المباشرة والاستلحاق.

أما العامل الثاني فقد تمثل في الحماية التي حصل عليها المسيحيون وفي التعليم الذي قدمته البعثات التبشيرية لهم، والتي أعدته بشكل خاص ليخدموا كوكلاء للتجارة والمصالح الدبلوماسية الأوربية، وتوسعت الامتيازات الأجنبية وسمحت للقناصل بمنح المسيحيين الحماية التجارية، التي شملت امتيازات أخرى، منها: دفع ضرائب أقل من التي يدفعها المسلمون عن الاستيراد والتصدير فضلا عن حصولهم على جنسيات موكليهم من التجار الأوربيين وعلى الرغم من أن المسيحيين واجهوا ملاحقة الأكثرية المسلمة لهم، فإنهم بدأوا بعد عام ١٨٦٠ يتمتعون بعهد جديد من الحماية، نتيجة ضغط أوربا المتزايد علي الدولة العثمانية لضمان حمايتهم، الأمر الذي أهلهم للسيطرة على زمام الأمور المالية من خلال المصارف التي تقرض الحرفيين والملاكين والفلاحين المسلمين وهو ما أعطى المسيحيين ضمانة لتقدمهم الاجتماعي والاقتصادي.

أما بشأن الملك العثماني وانعكاساته على وضع المسيحيين العرب في

الدولة العثمانية، يمكن القول إن كل هذا حوّل النظام المالي العثماني إلى نظام حماية للأقليات، وبهذا استوعبت الامتيازات الأجنبية النظام، ومهدت لإمكانيات التدخلات الأجنبية الرسمية وحماية الفرق الدينية، وتوسيع حقل حقوقها في ميادين العبادة والطقوس والضرائب، كما أنها حولت الملة غير الإسلامية إلى وجود يرتكز إلى مفهوم الأقلية القائمة على الحماية، ومن خلال توظيف استقلالية الملة المستوعبة بصيغة رعايا السلطان في مفهوم بين الملة والأمة، وفي هذا السياق يجدر بنا أن نطرح التساؤل التالي: ما هى الآثار التي ترتبت على الأخذ بنظام الملل العثمانية (وكيف انعكس على وضع المسيحيين العرب في الدولة العثمانية؟) لقد كان الشعار العثماني الأساسي في التعامل مع الأقليات الطائفية (فرض الطاعة عليهم وجباية الميري منهم) ومن هنا قسموا السكان الي مسلمين ورعايا، معترفين للأقليات الطائفية بالاستمرار في تصريف أمورها المعيشية والدينية علي قاعدة نظام الملل، الذي لعب دورا كبيرا في تفسخ المشرق العربي إلى دويلات، وتعميق الروح الانفصالية بين سكان السلطنة، وأعطى رجال الدين وزعماء الطوائف دورا مهما في تنشيط الدعوة إلى التجزئة ورفض الحكم العثماني والارتباط بالغرب. وساعد نظام الملل المسيحيين العرب على استيعاب مبادئ المجتمع المدني، إذ دمج بينهم وبين الجاليات التجارية الغربية ولم يشكل الدين أي حاجز في التفاعل بين المسيحيين والغربيين، كما شكله لدى المسلمين وساعدت الامتيازات الأجنبية بموجب قوانين التنظيمات العثمانية المسيحيين على التحول إلى ملل من الأقليات الدينية ولكنها واسعة الامتيازات، خصوصا وأن السلطنة نفسها اعترفت بحقوق الدول الأوروبية في حماية الأقليات المسيحية من أهل الذمة المقيمين في دار الإسلام.

وكان نظام الملل في القرن التاسع عشر وسيلة مباشرة لتحقيق ما تصبو

إليه الدول الغربية من التدخل في شؤون الدولة العثمانية، فأعلنت فرنسا حماية ورعاية مصالح الموارنة والكاثوليك .وتولت روسيا حماية مصالح الأرثوذكس، كما أعلنت النمسا وإيطاليا حماية مصالح الروم الكاثوليك، وأيدت إنكلترا البروتستانت. ولقد جاء هذا التدخل بطرق مختلفة، منها المدارس والمؤسسات العثمانية والإرساليات التبشيرية، الأمر الذي زاد من دور اللغات الأجنبية لاسيما الفرنسية والإنكليزية والروسية، وحسن من وضع هذه الأقليات الدينية وقوى مركزها وزاد في استقلالها الذاتي، ولكنه في الوقت نفسه جلب عليها نقمة الدولة العثمانية والغالبية المسلمة من السكان التي أخذت تنظر إليهم بعين الحذر وأنهم آلة بيد السياسة الأجنبية.

ومما زاد في هذه النقمة إقبال هؤلاء على الثقافة الأجنبية واستعانة هذه الدول بهم في الأعمال الكتابية في قنصلياتهم ومؤسساتهم الدينية والثقافية والتجارية وتقليدهم للغربيين في اصطناع أسلوب التجارة والصناعة مما أدى إلى تفوقهم الاجتماعي فقد عومل التجار العثمانيون والمسلمون المحليون معاملة دونية قياسا بالأوربيين والخاضعين لهم من الأقليات الطائفية، كما ساهمت الإرساليات في تفوقهم الثقافي، وهو ما زاد من حقد الأكثرية المسلمة عليهم.

لقد أدت الأوضاع إلى عزلة هذه الطوائف وتشكيل مجموعات شبه مستقلة تمارس نمطاً من الحياة الخاصة، التي تثير نقمة المسلمين وتغذي إحساسهم بالريبة والشك بولاء هذه الطوائف، وتدفعهم أحيانا إلى الاعتداء وبمرور الزمن كبرت الحواجز بين هذه الجماعات وتحول ما كان نشاطا دينيا إلى مجموعات وطنية، ولم يصبح الولاء الديني هو الأساس لديهم وأصبحت كلمة ملة تعني أمة، الأمر الذي جعل فكرة القومية تنمو بين المسيحيين أولا، ومن ثم بين المسلمين في الدولة العثمانية إذ تغلغلت الفكرة

إلى مدى مهم من خلال البنية الاجتماعية الإثنية والهوية الدينية التي أحدثها نظام الملل العثماني فهذه الجماعات ربطت نفسها بروابط من المواطنة العلمانية والذكريات التاريخية لهويتها الجماعية، وكانت القيم الاجتماعية والسياسية عامة تتحد من خلال خبرتها الطويلة في نظام الملة، فالقومية بمعني الهوية القومية الإثنية استخلصت جوهرها من التجربة المجتمعة الدينية في نظام الملة.

٤

السلطـــان العـــادل

أمـر السلطان مـحـمـد الفـاتح ببناء أحـد الجـوامـع في مـدينة إسطنبـول، وكلف أحـد المـعـمـاريين الروم واسـمـه "إبسـلانتي" بالإشـراف على بناء هذا الجامع، إذ كان هذا الرومي معماريًا بارعًا. وكان من بين أوامر السلطان: أن تكون أعـمدة هذا الجامع من المرمر، وأن تكون هذه الأعـمدة مـرتفعة ليبدو الجامع فخمًا، وحدد هذا الارتفاع لهذا المعماري.

ولكن هذا المـعـمـاري الرومي -لسـبب من الأسـبـاب- أمـر بقص هذه الأعمدة، وتقصير طولها دون أن يخبر السلطان، أو يستشيره في ذلك .

وعندما سمع السلطان محمد الفـاتح بذلك، استشاط غضبًا، إذ إن هذه الأعـمدة التي جلبت من مكان بعيد، لم تعد ذات فائدة في نظره، وفي ثورة غضبـه هذا، أمر بقطع يد هذا المعماري. ومع أنه ندم على ذلك إلا أنه كان ندمًا بعد فوات الأوان.

ولم يسكت المعمـاري عن الظلم الذي لحقـه، بل راجع قـاضي إسطنبـول الشيـخ (صـاري خضـر جلبـي) الذي كـان صيت عـدالته قد ذاع وانتـشـر في جميع أنحاء الإمبـراطورية، واشتكى إليه ما لحقه من ظلم من قبل السلطان محمد الفاتح.

ولم يتـردد القـاضي في قـبول هـذه الشكوى، بل أرسل من فوره رسـولاً إلى السلطان يستدعيه للمثول أمـامه في المحكمة، لوجود شكوى ضده من أحد الرعايا.

ولم يتـردد السلطان كذلك في قـبول دعـوة القـاضي، فـالحق والعـدل يجب أن يكون فوق كل سلطان.

وفـي اليـوم المحـدد حـضـر السلطـان إلى المحكمـة، وتـوجـه للجلوس على

المقعد قال له القاضي: لا يجوز لك الجلوس يا سيدي ... بل عليك الوقوف بجانب خصمك.

وقف السلطان (محمد الفاتح) بجانب خصمه الرومي، الذي شرح مظلمته للقاضي، وعندما جاء دور السلطان في الكلام، أيد ما قاله الرومي.

وبعد انتهاء كلامه وقف ينتظر حكم القاضي، الذي فكر برهة ثم توجه إليه قائلاً: حسب الأوامر الشرعية، يجب قطع يدك أيها السلطان قصاصًا لك !!

ذهل المعماري الرومي، وارتجف دهشة من هذا الحكم الذي نطق به القاضي، والذي ما كان يدور بخلده، أو بخياله لا من قريب ولا من بعيد، فقد كان أقصى ما يتوقعه أن يحكم له القاضي بتعويض مالي. أما أن يحكم له القاضي بقطع يد السلطان (محمد الفاتح) فاتح (القسطنطينية) الذي كانت دول أوربا كلها ترتجف منه رعبًا، فكان أمرًا وراء الخيال ... وبصوت ذاهل، وبعبارات متعثرة قال الرومي للقاضي، بأنه يتنازل عن دعواه، وأن ما يرجوه منه هو الحكم له بتعويض مالي فقط، لأن قطع يد السلطان لن يفيده شيئاً، فحكم له القاضي بعشر قطع نقدية، لكل يوم طوال حياته، تعويضًا له عن الضرر البالغ الذي لحق به.

ولكن السلطان (محمد الفاتح) قرر أن يعطيه عشرين قطعة نقدية، كل يوم تعبيرًا عن فرحه لخلاصه من حكم القصاص، وتعبيرًا عن ندمه كذلك.

٥

رجل الدولة المستنير

الإمارة العثمانية الذي ظهرت بغزواتها على مسرح التاريخ في بداية القرن السادس عشر، وعلى نحو ما هو كائن في مؤسسات الدولة تبنت الأعراف التركية والإسلامية في حياتها العلمية والثقافية.

وبمرور الوقت تمكنت من وضع نظام عثماني يتضمن جوانب جديدة للانفتاح من خلال النظم والقوانين وتطبيقاتها. فأوائل السلاطين العثمانيين الذين أمضوا حياتهم بالفتوحات عرفوا قيمة العلم في كل وقت فقربوا العلماء وجعلوهم ملازمين لهم واتخذوهم مستشارين ومنشئي مؤسسات ورجال دولة.

وفي إطار هذه المفاهيم جعلوا ديدنهم إنشاء المؤسسات العلمية وشجعوا من حولهم على ذلك. والسلطان محمد الفاتح الذي نشأ وتربى على مثل هذه المفاهيم والأعراف، وأصبح ذا شخصية قوية متعدد المواهب، فحقق تطورات جذرية وكان هدفه تحويل الدولة العثمانية إلى دولة وإمبراطورية عالمية.

ومن المهم هنا أن نجري تقييما حول التطورات التي حققها الفاتح في الحياة العلمية وفي نظام التعليم.

فقد كانت هناك تطبيقات بدأت في عهد تأسيس الدولة العثمانية وأخذت شكل المؤسسات في عهد الفاتح فأعطت أجمل ثمارها، وعلى رأسها استشارة العلماء.

هذا التطبيق أخذ شكلا نوعًا من المجلس استشاري شبه الرسمي. وفي عهود مبكرة شغل العلماء مناصب مهمة في البيروقراطية المركزية مثل عضوية الديوان الهمايوني، أي الوزارة، والوزارة العظمى، وقضاء العسكر

والدفترداریة والنیشانجیة وغیرها.

وأبرز مثال لهذه التطبیقات في هذه الفترة نراه في مكانة الذین نشأوا من آل جاندرلی، حیث نجد خلال القرن ونصف القرن الذي سبق فتح إسطنبول أفراد أسرة الجاندارلی في العلوم والإدارة إلى جانب آل عثمان وفي خدمتهم. وأفراد هذه الأسرة الذین تربوا ونشأوا جمیعا في المدارس شغلوا في البدایة منصب القضاء ثم قاضي العسكر ثم ترقوا إلى الوزارة ثم إلى الوزارة العظمى أي أعلى المناصب في الدولة، ساهموا بأفكارهم وأفعالهم في تشكیل المؤسسات العسكریة والعلمیة والإداریة. والضربة التي أنزلها الفاتح في آل جاندار الذین یعتبرون أول أسرة علمیة ووزاریة لدى العثمانیة قضت على نفوذهم وقوتهم .

ومما لا شك فیه أن أحد أهم العناصر التي بثت الروح في الحیاة العلمیة لدى العثمانیین هو الأسفار التي كان هدفها تحصیل العلم وتعلیمه. والأسفار عادة مهمة وعمیقة الجذور في العالم الإسلامي، فقد حضت الأحادیث النبویة للقیام بها.

ویلاحظ في العصور الوسطى التي شهدت نهضة المسلمین كثرة التحركات بالرغم من صعوبة المواصلات، فكان أساتذة المدارس وطلابها یقصدون جمیع المراكز العلمیة الكبیرة في العالم الإسلامي في فترات زمنیة معینة، متحدین الصعاب في طرق الوصول إلیها.

فالطلاب الذین یصلون في دراستهم إلى مستویات معینة في الدولة العثمانیة یتوجهون إلى القاهرة وسمرقند وبخارى وماوراء النهر وبغداد والشام وغیرها من المراكز العلمیة المعروفة في العام الإسلامي في تلك الفترة لإكمال تحصیلهم بتوصیة من أساتذتهم، ویعودون بعد سنوات إلى بلدانهم علماء ناشئین في علوم الدین والثقافة والحضارة والجغرافیا الإسلامیة، فتعرف شهرة المدینة الفلانیة بالعالم الفلاني بواسطة الذین

ذهبوا إلى هناك ثم عادوا وكذلك بواسطة الأساتذة الضيوف القادمين منها، فينصحون بها الطالب الذي يريد السفر لتحصيل علمه الأكاديمي.

وهناك وجه آخر مختلف لهذا النوع من الأسفار، ألا وهو قدوم علماء مشهورين من إمارات الأناضول ومن المراكز العلمية الشهيرة الأخرى إلى الديار العثمانية بصفة أساتذة ضيوف بدعوة وتشجيع فعلي من السلاطين العثمانيين، وأغلب هؤلاء الأساتذة استقروا في العاصمة العثمانية، كما كان من بينهم من بقي فيها فترة قصيرة أو طويلة.

ومن أبرز الأدلة على ذلك كُثرَى العلماء في المدارس العثمانية في عهد التأسيس حيث نجد فيهم العربي والأعجمي والطوسي والسمرقندي.

فعهد مراد الثاني ثم عهد محمد الثاني الذي تلاه، له كثير من المزايا المختلفة من هذه الناحية. فإلى جانب تشكيل المشيخة الإسلامية(١٤٢٥)؛ وإنشاء المدارس الكبيرة في أدرنة وبروسة والمدن الأخرى، نلاحظ نمو وانتشار التيارات العلمية والصوفية، بحيث يمكننا اعتباره فترة الإعداد الثقافي للفتح الكبير.

هؤلاء العلماء الذين نشأوا على يد أساتذة من أمثال سعد الدين التفتازاني (وفاته ٧٩١/١٣٨٩) والسيد الشريف الجرجاني(وفاته ٨١٦/١٤١٣) حملوا معهم إلى الديار العثمانية التيارات العلمية والفكرية والمناظرات الفلسفية السائدة هناك، فحدثت التطورات الملموسة .

وقد خفت وتيرة هذه الأسفار الأكاديمية كثيراً اعتباراً من القرن السادس عشر، ويمكننا أن نقول بأن فقدان هذا التحرك العلمي أهميته هو أحد أهم الأسباب التي أدت إلى ركود الحياة العلمية لدى العثمانيين.

إن مفهوم الحكم لدى الفاتح الذي اتخذ اعتبر نفسه وريثا لبيزنطة وروما واتخذ الإسكندر الأكبر نموذجًا، ونشأته وعلاقته بأساتذته وتصوره للعلم إلى جانب قيادته العالمية وحنكته العسكرية، كانت لها الأثر الكبير في

أسلوبه في إدارة الحكم والسلطنة.

لذلك فإن مكيافيللي في كتابه الأمير اعتبر الفاتح نموذجا للحاكم المطلق. ويمكن للمرء أن يتساءل عن مدى اهتمام الفاتح بالعلم وهو الذي أمضى حياته في ميادين القتال والفتوحات.

ولكن علينا ألا ننسى بأنه كان يصحب في جميع حملاته جمعا كبيرا من خيرة علماء عصره، حيث تجرى المناظرات العلمية على طول الطريق وفي فترات الراحة، فيتابعها الفاتح بشغف، ويوجه الأسئلة، كما يشرك كثيرا من العلماء في مجالس الحرب التي تعقد كثيرا في أيام الفتح، فيستفيد من آرائهم، وبذلك يشبع هوى العلم لديه.

والمعلومات المتعلقة بحياة علماء ذلك العصر الذين اشتركوا في تلك المناظرات تعطينا فكرة حول هذا الموضوع. فالسلاطين العثمانيون الذين سبقوه وعلى الأخص أبوه مراد الثاني عرفوا قدر العلماء وأهميتهم لكن اهتمام الفاتح وتصوره كان أكثر نظاما وتخطيطا.

فالميزة التي وضعت بصماتها على الحياة العلمية في عهد الفاتح هي المناظَرات العلمية. وفي واقع الأمر فإن أصول المناظرة العلمية ذات عراقة واسعة وعميقة الجذور في العالم الإسلامي.

فإذا تناولنا عهد الفاتح من هذه الزاوية وجدنا أنه شهد تطورا منهجيا. فشخصية السلطان الشاب لعبت هنا دورًا مهمّا. إذ لم يقتصر اهتمام الفاتح على الإسلام بل تعداه إلى مختلف الأفكار والمذاهب والأمور المتعلقة بالعقائد النصرانية، وشعر بكثير من الراحة والسعادة من طرح العلماء الذين يثق بعلمهم، هذه المواضيع للمناقشة.

ولم يكتف في بعض الأحيان بالاستماع أو الميل إلى جهة، بل وجد نفسه فعلاً ضمن هذه المناظرة العلمية.

ومما لا شك فيه أن أحد أهم المناظرات الجادة في الأمور الغيبية في

العالم الإسلامي هو كتاب تهافت الفلاسفة الذي ألفه الغزالي(وفاته ١١١١) في الرد على الفلاسفة وكتاب " تهافت التهافت "، الذي كتبه ابن رشد(وفاته١١٩٨) في الرد عليه.

هذه المناظرة الشهيرة وعالية المستوى في الغيبيات الإسلامية في العصور الوسطى أراد الفاتح طرحها للنقاش مرة أخرى، فطلب مصلح الدين خوجه زاده (وفاته ١٤٨٨) وعلاء الدين الطوسي(وفاته ١٤٨٢) وهما من أشهر علماء ذلك العصر إعادة تقييم آراء الغزالي، فلقي تحليل وتقييم خوجه زاده تقديرا لديه.

وقد أعد البروفسور مباهاة توركر كويل دكتوراه في تهافت الغزالي وابن رشد خوجه زاده، وحلل المسائل المتعلقة بالإنسان والغيبيات والمعجزات، وذات الله والصلة بين الله والعالم والكون .

والمعروف أن الفاتح كان يبدي اهتماما دائما بالمناظرات التي تتناول الأمور الغيبية، ومن المعروف أيضا أن مناظرة عن التوحيد جرت بحضوره بين خوجه زادة وبين منلا زيرك(وفاته ١٤٧٤) وهما من كبار علماء ذلك العصر واستمرت ستة أيام .

ويقول المؤرخون البيزنطيون والغربيون بأن محمدا الثاني أبدى بعد الفتح اهتماما بالنصرانية، بل ويذهبون إلى أكثر من ذلك فيدعون بأنه كان يشعر بين فترة وأخرى بكثير من الإعجاب لبعض أحكامها.

وذكر هؤلاء في كتبهم بأنه ناقش بطريرك إسطنبول جينناديوس كولاريوس، وذلك البطريرك مكسيم مانوئيل في بعض الأمور المتعلقة بالعقائد النصرانية. وادعوا بأنه عندما سمع بعقيدة الكنيسة الأرثوذكسية التي تقول بعدم إبلاء أجساد الموتى الذين طردوا من الكنيسة أراد فتح قبر من هذا النوع. ويرجع كل ذلك إلى شعور الفاتح وهو المسلم الصادق في

إسلامه بالاهتمام في الأمور الغيبية.

ومن المعروف عن الفاتح اهتمامه بأفكار الحروفي، وتأثره بعض الشيء بأنصار فضل الله الحروفي، ونفوذ هؤلاء إلى القصر، الأمر الذي أقلق محمود باشا فأخبر بذلك العالم الشهير فخر الدين العجمي وكان شيخا للإسلام منذ عهد مراد الثاني، فأعد اجتماعا للاستماع إلى أفكار الحروفيين ومناقشتها.

دعا أنصار فضل الله الحروفي إلى القصر بينما جلس فخر الدين العجمي في زاوية لا يراه فيها أحد منهم ليسمع أفكارهم .

فلما خرج شيخ الإسلام من مخبئه دخل معهم في نقاش تمكن فيه من إثبات بطلان كل أفكارهم، وتكرر ذلك في القصر وبحضور السلطان فتغلب عليهم ثم دعاهم إلى المناظرة أمام الملأ في الجامع ذي الثلاث شرفات بأدرنه.

فأكد هناك بطلان أفكارهم، وتسببهم في الفتنة، وأصدر فتوى بإنزال أشد العقوبات فيهم .

وفي هذه الفترة، حدثت تطورات وجهود كبيرة جدا في العلوم الدينية والفكرية والاجتماعية.

فكتاب "الدرر الحكام في شرح غرر الأحكام" الذي ألفه منلا "خسرو" في مجال الفقه وكان من شيوخ الفاتح وشغل منصب شيخ الإسلام بقي كتابا يدرس في المدارس العثمانية مئات السنين.

كما يعتبر كتاب "غاية الأماني في تفسير السبع المثاني " للمنلا غوراني من أهم كتب التفسير، فالتطورات التي تحققت في مجال الفكر والفلسفة جديرة بالتقدير والإعجاب. وهناك جهود ودراسات مهمة قام بها كل من خوجه زاده وعلاء الدين الطوسي وخطيب زاده.

وإلى جانب البعد والعمق الذي أكسبه الفاتح للتعليم المدرسي التقليدي، فإن الخدمات التي قدمها الفاتح لتطوير الأندرون التي أنشئت أساسا لتدريب وتعليم الكوادر الإدارية والعسكرية التي ستتسلم شؤون الدولة تشكل موضوعا آخر يستحق الدراسة والبحث.

النتيجة أن حكم السلطان محمد الفاتح كان بداية لعقلية جديدة في الفكر الإداري والسياسي كما كان نقطة تحول في تشكيل المؤسسات الجديدة. وتحتل المؤسسات التعليمية مثل مدارس الصحن الثمانى ومدارس الأندرون مكانة مهمة بين هذه المؤسسات.

فقد أضاف إلى المؤسسات العثمانية مؤسسات جديدة، وأضفى على القديمة منها مفهوما جديدا ورؤية جديدة.

كما أكسب الحياة العلمية والفكرية العثمانية عمقا. وإذا نظرنا من ناحية تاريخ العلوم والثقافة وجدنا عناصر وتطبيقات كثيرة الاختلاف.

فعلاقاته بعلماء العصر، ودعوته للعلماء من مراكز العالم الإسلامي الشهيرة في تلك الفترة مثل سمرقند وبخارى والقاهرة ودمشق وبغداد، وكذلك شمول لقاءاته هذه للعالم النصراني الغربي واجتماعه بكثير من رجال العلم والدين النصارى خلافا للتعامل في تلك العهود تطور جدير بالدراسة والاهتمام.

فقد أعاد تفعيل المناظرات ذات المستوى العالي والمفيد في العصور الوسطى التي شهدت نهضة الإسلام.

وأدى إلى إحياء الحياة الفكرية المتجددة. وهناك أمر مثير آخر ألا وهو شدة اهتمام السلطان محمد الفاتح بالكتب والمكتبات التي يعتبرها السند الأساسي للعلم. وجهوده في إنشاء مكتبات الحلقات الدراسية بكلية الفاتح، وتشكيله مكتبة قصرية في مختلف المواضيع والثقافات خارج مكتبة الجامع لهو دليل واضح على سعة أفقه.

إن إسطنبول التي كانت في مخيلة الفاتح هى المدينة العالمية بعلمائها ومؤسساتها التعليمية في جميع المجالات.

وبالرغم من ذلك فقد عبر عن رأيه في عدم كفاية التطور في مجال العلم بالرغم مدارس الصحن الثماني، ورغبته في تخريج علماء يضاهون علماء العرب والعجم.

لذلك قال في أحد المجالس العلمية التي حضرها، إنه أسس دولة عالمية، وأنشأ مدارس متكاملة ومع ذلك أعرب عن أسفه لقدوم العلماء من بلدان أخرى.

ثم اطمأن إلى ما أجابه العلماء بقولهم" إن العلم هو عرف، والعرف يتطلب وقتا طويلا لكي يرسخ، وسيؤتي ثماره بعد أن يرسخ" .

٦

أشهر خطة عسكرية

من أشهر الخطط العسكرية في التاريخ والتي لا تزال تدرس حتى اليوم في كليات أركان الحرب، ما فعله محمد الفاتح في فتح القسطنطينية، فقد وصل بسفنه المحملة بالمدافع الضخمة إلى مضيق الدردنيل، فوجد أن البيزنطيين قد سدوا المضيق بمجموعة من السلاسل الضخمة التي تمتد بين الشاطئين تمنع السفن من العبور .

ولكن هذا لم يفت في عضد هذا القائد العبقري ولم يوقف تقدمه، فقد قرر أن يقوم بأكبر عملية نقل أسطول بحري في التاريخ .

وقام الجيش كله بسحب السفن على أعمدة خشبية وضعها على البر، والتف من خلف السلاسل .

ونزل الأسطول في البحر مرة أخرى وفوجىء البيزنطيون بحركة الالتفاف التي لم يسبق لها مثيل في التاريخ كله، فلأول مرة في التاريخ العسكري يجرؤ قائد على نقل سفنه البحرية بما تحمله من مدافع ثقيلة ومؤن وعتاد، ويصعد بها قمة الجبل، ثم يهبط بها إلى البحر ليواجه عدوه، وكانت نتيجة المفاجأة أن سقطت المدينة في قبضته بأقل الخسائر.

فهذه القصص تدلنا بوضوح على أن تفوق المسلمين الحربي وانتصاراتهم التاريخية لم تكن نتيجة الحماس والشجاعة وحدهما، ولكن كان هناك تنظيم وترتيب، وكان هناك تخطيط ومكيدة، وكانت هناك خبرة بفنون الحرب.

وهكذا وضع محمد الفاتح خطةً عبقريةً تحدث عنها المستشرقون وقالوا إن هذا الرجل سبق الإسكندر الأكبر ونابليون .

وسر عبقرية الفاتح أنه قام بوضع خطته بعد تحديد أسباب الفشل في الفتح بحلها واحدًا تلو الآخر ، حيث أدرك كما يقول المؤرخون لحياته هذه الأسباب في:

أولا : عدم وجود حصن للمسلمين أمام سور القسطنطينية: فقرر بناء الحصن في مدة زمنية لا تتعدى الثلاثة أشهر، فجمع العمال واختارهم من العمال المتقنين المَهَرَة، وحفَّزهم بقوله "أتحبون أن تكونوا من أتباع رسول الله يوم القيامة، وتكونوا من الذين قال فيهم "ولنعم الجيش جيشها؟!" وتم بناء قلعة عظيمة يستغرق بناؤها سنةً كاملةً في ٣ أشهر فقط.

ثانيا: عدم وجود مدفع قوي لدك الأسوار: فقرر أن يتم اختراع مدفع جديد؛ وكانت فكرة الاختراع موجودةً عند عالم مجَري قام الرومان بسجنه في سجن داخل القسطنطينية؛ فقرر محمد الفاتح أن يقوم بفكِّ أسره، وذلك عن طريق حفر نفق يمر أسفل الخليج وأسوار المدينة ليصل لغرفة الأسير، وقام بحفر نفقين بدلاً من نفق واحد؛ حتى يتخلص من تراب الحفر في مياه البحر حتى لا يعرف الرومان بما يجري، واعتمد في تحديد موقع الأسير على الجواسيس؛ وبالفعل نُفِّذت الخطة وتم تحريره، وقام بتنفيذ المدفع في٣ أشهر أخرى، وصار المدفع جاهزًا للاستخدام، وكان وزنه مئات الأرطال يقوم بجرِّه ١٠٠ ثور ومعهم ١٠٠ رجل من الأشدَّاء، وأثناء تجربة المدفع سُمع دويُّه من على بُعد١٣ميلا، وسقطت القذيفة على بعد ميل كامل، وحفرت في الأرض حفرة عمقها٦ أقدام.

ثالثا: السلسلة الموجودة بعرض الخليج: كانت هذه السلسلة تعوق دخول أسطول المسلمين إلى داخل الخليج حتى تصل إلى الأسوار؛ ولهذا قرر أن يقوم بعمل فريد من نوعه، فقام بعمل ممرٍّ تسير فيه

السفن خلال الجبل حتى تصل مباشرةً إلى داخل الخليج بدون المرور عبر السلسلة، وهذه المسافة تُقدَّر بـ٣ أميال، واستعمل في ذلك قضبانًا خشبيةً، دهنها بالزيت لتسهل من حركة السفن وكان عددها ٧٠ سفينةً، واستعمل في جرِّها مئات الثيران ومئات الرجال، واستغرق نقل السفن من بعد غروب الشمس حتى ما قبل الفجر حتى يُفاجئَ الرومان واستغرق الحصار٥٣ يومًا، وفي الليلة السابقة لبدء الهجوم قام باستعمال الهتافات الحماسية والأناشيد الإسلامية، وإكثار الصلاة والسلام على رسول الله- عليه الصلاة والسلام- وعقب فتح القسطنطينية صلى الجيش كله ركعتين.

وبذلك تحقق وعد رسول الله- صلى الله عليه وسلم- وتمكن المسلمون العمالقة من تحقيق حلم ظلَّ يراودهم عبر السنين، واكتملت قصة النجاح العظيم على يد شاب في الخامسة والعشرين من عمره، بعد أن استعصى على الأمة ٨٠٠ سنة.

٧

سلاح جديد اسمه المدفعية

قام المسلمون بمحاولات متكررة لفتح المدينة المحصنة بأسوار لا يمكن اختراقها؛ ولكن بلا جدوى، إذا ما آلت القسطنطينية إلى السقوط سوف تضعف أوربا بأكملها.

عندما بدأ صوت المدافع يهدر في الشرق، تأكد الغرب بأنه قد آن الأوان لفتح المسلمين لهذه المدينة المحصنة.

عام ١٤٥٣ عاود المسلمون المحاولة مستخدمين هذه المرة سلاحًا جديدًا وقويًا لدرجة أن أسوار مدينة القسطنطينية الصلبة قد لا تتمكن من الصمود في وجهه.

إذا ما توافر هذا السلاح مع وجود قائد إسلامي حاسم، لا شك في تعرض هذا السور للانشطار ليتحول حصار القسطنطينية إلى منعطف تاريخي حاسم.

كانت مدينة القسطنطينية أغنى مدينة في العالم على مدار ثمانمائة عام، كانت مركزًا تجاريًا هامًا يربط بين أسيا وأوروبا، عندما سقطت روما في القرن الرابع الميلادي تحولت القسطنطينية إلى عاصمة للإمبراطورية الرومانية.

ولكن بعد أحد عشر قرنًا من ذلك تحولت هذه الإمبراطورية الهائلة إلى ما هو أكثر بقليل من مجرد دولة في مدينة فقيرة، حكم زعيمها "قسطنطين الحادي عشر" عاصمة مفلسة بالغت حدائقها بالنمو وخلت قصورها وتفرق أهلها.

إلا أن القسطنطينية بقيت مركزًا للكنيسة الأرثوذكسية بينما كانت روما مركزًا للكنيسة الكاثوليكية، وكانت كل منهما تغار من سلطان وتأثير الأخرى، وكان الانشقاق بينهما كبيرًا لدرجة أن الكنيسة الأرثوذكسية بالنسبة لروما كانت عدوة أكبر من الإسلام، تبع ذلك إقطاعية نصرانية عنيفة، إلا أن المدينة تذكرت دائمًا كيف نهب الصليبيون الكاثوليك القسطنطينية وأراقوا فيها الدماء عام ١٢٠٤ ، حين كانت تحكم ثلثي الثروات في أوربا.

وقد كتب أحد شهود العيان عن ذلك يقول: (لا أعرف من أين أبدأ بسرد كل ما فعله أولئك الوحوش، لقد كسروا الصورة المقدسة المحببة لدى المؤمنين، وانتهكوا جسد ودم المخلِّص، استولوا على كأس القربان ومزقوا حجارته الكريمة وشربوا منه).

ولم تستعد المدينة مكانتها السابقة عندما حصل"قسطنطين الحادي عشر"على عرش الإمبراطورية عام ١٤٤٩، فقد كانت القسطنطينية حينها محاصرة من قبل المسلمين الأشداء.

كانت القسطنطينية قد تحولت إلى مركز نصراني وسط الإمبراطورية العثمانية التي امتدت حينها من الدانوب إلى الفرات، بما في ذلك البوسنة، وبلغاريا، واليونان، وصربيا.

حاول المسلمون منذ بداية القرن السابع الميلادي إبعاد المدينة عن الإمبراطورية البيزنطية، وقد استشهد الصحابي الجليل "أبو أيوب الأنصاري" -رضي الله عنه- وهو يجاهد من أجل فتح هذه المدينة عام ٦٧٤ميلادية.

تمكن السور المنيع من صد غزوات بعد أخرى ليؤكد أنه كان من أقوى الحصون في العالم، بعد ثمانمائة عام على استشهاد "أبي أيوب الأنصاري" -رضي الله عنه- أعلن سلطان عثماني هو "محمد الثاني" قائلاً :(لا أريد سوى شيء واحد..أعطني القسطنطينية).

هذا القائد الطموح الذي بلغ من العمر واحدًا وعشرين عامًا أصر على مهاجمة المدينة أثناء حصارها؛ كان يتطلع إلى نشر الإسلام في أرجاء الإمبراطورية الرومانية في أوربا كلها؛ وكان لا بد أن يبدأ بفتح مدينة القسطنطينية.

كان السلطان الشاب متعلمًا في مجال العلوم واللغات وغيرها وشغوفًا بالأفكار الجديدة، فحرص على أن يعد رجاله بأحدث الأسلحة.

أراد "محمد الثاني" أن يترافق اسمه بصفة الفاتح، القائد المسلم المجاهد الذي فتح الله على يديه القسطنطينية، وقد وقف الإمبراطور قسطنطين هذه المرة في وجهه.

كان قسطنطين فخورًا بميراثه،كانت المدينة حياته وهو مستعد للدفاع عنها حتى الرمق الأخير، فعل قسطنطين كل ما بوسعه في سبيل الاحتفاظ بالقسطنطينية، وبذل "محمد الثاني" كل شيء ممكن كي يتم فتح القسطنطينية ويتابع نشر الدعوة الإسلامية.

في شتاء عام ١٤٥١ قطع الإمداد عن المدينة، وبنى حصونه الخاصة التي أسماها بالحصار الرملي، بلغت سماكتها خمسة وعشرين قدمًا وأنجزت بالكامل خلال أربعة أشهر، من هناك كان "محمد الثاني" يسيطر على مضيق البسفور من أضيق مناطقه.

استطاع السلطان من قلعته الجديدة أن يسيطر على سفن القسطنطينية فقبض على الخط الحيوي للمدينة، ما كانت السفن المحملة بالحبوب الأوكرانية قادرة على عبور المدافع العثمانية، عندما أمر "محمد الثاني" سفنه الحربية بدخول بحر المرمر كان الحصار مكتملاً وكانت القسطنطينية منقطعة عن العالم.

بلغ قسطنطين مرحلة اليأس حتى أنه طلب العون العسكري من الكنيسة الكاثوليكية المعادية له وبعث بالهدايا إلى السلطان واعدًا بأن يزيد من

كميات الذهب، رفض "محمد الثاني" هذه الوعود ولكنه قدم عرضًا لقسطنطين بأن يمنحه الأراضي في اليونان وحرية العبادة للسكان مقابل المدينة.

رفض قسطنطين كان يتشبث برمزية ما تعنيه هذه المدينة له وللنصارى من ميراث الإغريقية القديمة والرومان، وقد ورد في رسالته الأخيرة لمحمد الثاني أنه من الواضح تمامًا أنه عازم على مواصلة جهوده من أجل الحصول على القسطنطينية وأنذره بأوخم العواقب وهدده بأقصى الحروب للحيلولة دون ما يريد.

وفي يوم السادس من إبريل نصب السلطان خيمته الحمراء والذهبية خارج أسوار المدينة، نظر المدافعون عن المدينة إلى الحشود التي أمامهم في مخيم العثمانيين، كانوا يتفوقون عليهم بنسبة ثلاثة أضعاف.

توسطت جيش السلطان مجموعات كبيرة من المسلمين الذين اعتنقوا الإسلام حديثًا من مناطق معروفة بشدة رجالها كالبوسنة وصربيا وألبانيا والتي كانت تنضوي تحت لواء الإمبراطورية العثمانية للمشاركة في الحرب على المدينة.

منح محمد الثاني الفرصة الأخيرة لقسطنطين، فبعث له بسفير يحمل علمًا إلى المدينة وكتابًا يقول:(إنني أدعوك إلى الإسلام وإن أبيت فاحقن دماء شعبك وإني أعطيك الأمان أنت وجميع المواطنين، ولن أسبب الأذى لأي من أبناء عائلتك أو ممتلكاتك إذا ما استسلمت لي طوعًا).

رفض قسطنطين الرسالة الأخيرة فهاجمه "محمد الثاني" رغم التوقعات أُجبرت قوات السلطان على التراجع فكان النصر الأول لقسطنطين، فاجأته الهزيمة فأُجبر السلطان على تغيير تكتيكه فجاء بالمدافع كي تحطم أسوار المدينة المنيعة.

كانت جميعها مدافع عملاقة هى أكبر ما صنع حتى ذلك الحين، بلغ طول المدفع تسعة وعشرين قدمًا من الصمام وحتى الفوهة يبلغ وزن قذيفته

نصف طن تصل إلى مسافة تزيد على الميل، وهو يحتاج إلى ستين ثورًا وأربعمائة رجل لاستعماله وهو يحتاج إلى ساعتين لتعبئته.

سمح المدفع للعثمانيين بالقتال عبر أكثر الأسلحة تقدمًا في العالم، احتشد أكثر من ستين مدفعًا كبيرًا لإطلاق النار على أسوار المدينة، وقد كتب شاهد عيان عن ذلك يقول:(استمر الهجوم ليل نهار دون هدنة في القصف أو الهجمات، كان السلطان يأمل بفتح المدينة بسهولة على اعتبار أنهم يفوقوننا عددًا وعدة ولن يُسمح لنا بالاستراحة من الهجمات).

عبر القصف المستمر تمكن العثمانيون من فتح عدة فجوات في الجدار إلا أن البيزنطيين كانوا يصدون الهجمات ويصلحون الأسوار، قام محمد الثاني ببناء برج حصار عالٍ، ولكن سرعان ما رآه يحترق عبر مجموعة هجومية من خلف الأسوار.

بعد اثني عشر أسبوعًا من الحصار لم تتمكن المدافع أو الهجمات المتتالية للجيوش الإسلامية من تحقيق النجاح، أوشكت عناصر من جيش السلطان على الهرب ما أجبره على التفكير مجددًا بإستراتيجيته، كان حتى ذلك الحين يهاجم ثغرات صغيرة من الجدار الذي كان يعتد بدفاعات معززة.

كان السواد الأكبر من القسطنطينية محميًا من البحر عند الجانب الشمالي كان النصارى قد بنوا سلسلة من الصخور عبر ما يعرف بالقرن الذهبي لمنع السفن من الدخول إلى ميناء المدينة.

قرر محمد الثاني أن يعبر هذه السلسلة بسحب عدد من سفن أسطوله فوق الحاجز الصخري الصغير، ثم أدخل ثلاثين سفينة إلى ميناء المدينة بين ليلة وضحاها، عند بزوغ الفجر تنبه سكان المدينة إلى أن المسلمين الفاتحين قد حاصروا المدينة فانهارت معنويات سكانها مباشرة إلا أن الإمبراطور قسطنطين أصر على الدفاع عن المدينة حتى النهاية.

"كيف لي أن أتخلى عز الكنائس وعن العرش في هذه الظروف العصيبة، ماذا سيقول العالم عني أرجوكم جميعًا أيها الأصدقاء ألا تقولوا في المستقبل سوى: لا سيدي لا تتركنا، وأنا لن أدعكم أبدًا أبدًا ، لأنني مصمم على القتال حتى النهاية".

بعد اكتمال الحصار أصبح على المدافعين عن المدينة أن ينتشروا على طول أسوار المدينة بكاملها كانت مهمة شبه مستحيلة، في تلك اللحظات لجأ محمد الثاني إلى تكتيك عبقري آخر فقد وجه كل مدافعه إلى نقطة واحدة من الجدار، بعد أقل من شهر بدأت الأسوار تتهاوى.

وقعت حادثة مهمة كان لها أثرها في رفع الروح المعنوية للمجاهدين المسلمين، عثر مجاهدان من المسلمين على قبر الصحابي الجليل "أبي أيوب الأنصاري" رضي الله عنه إلى جانب أسوار المدينة، وكان قد قدم لفتحها منذ قرون لكنه استشهد وعد ذلك مبشرًا بالنصر الإسلامي هذه المرة.

أما سكان المدينة فقد رأوا نذيرًا من نوع آخر، كانت تقاليدهم تؤكد أن مدينة القسطنطينية لن تسقط طالما بقي القمر في السماء، ولكن ليلة الرابع والعشرين من آيار (مايو) من ذلك العام شهدت المنطقة خسوفًا كاملاً للقمر وحل الظلام الدامس مدة ثلاث ساعات.

بعد أربعة أيام من ذلك وبعد الغروب بقليل بدأت المدينة المنيعة تتداعى، واعتكف الإمبراطور وحده في الليل لأن الفجر سيحمل له ما لا يرغب فيه، ووضعت الأيدي على القلوب بعد أن ارتفع هدير المدافع العثمانية أكثر فأكثر.

أحد قادة المدينة كتب عن ذلك يقول: "عيارات البنادق وقرع الأجراس وصوت الأسلحة الممزوج بصراخ المقاتلين من الرجال والناس كل ذلك كان يشكل ضجيجًا يوحي باهتزاز الأرض".

مع بزوغ أنوار الفجر الأولى وصلت أنباء عن اختراق ثغرة في الجدار،

بعد ذلك وصل أول الجنود العثمانيين لتوضع بهذا نهاية ألف عام من تاريخ الإمبراطورية الرومانية بسقوط آخر وريث للإمبراطورية الرومانية البيزنطية.

وبدأت طلائع الجنود المسلمين تحصد ثمار حصار المدينة.

الله أكبر، الله أكبر..

انتهت الإمبراطورية الرومانية ومات الإمبراطور قسطنطين وبقيت مقبرته اليوم للتاريخ، على مسافة قريبة من الكنيسة عُثر على جثة من دون رأس وقد عثر في قدميه على حذاء رسم عليه نسر برأسين، يعتقد الكثيرون أن هذه كانت جثة قسطنطين الحادي عشر آخر إمبراطور روماني، ربما كان قبره هناك.

أطلق على القسطنطينية اسم إستانبول قلب الإمبراطورية العثمانية التي أثبتت أنها واحدة من أقوى السلطات وأطولها عمرًا في التاريخ فقد استمرت لأكثر من خمسمائة عام حتى الحرب العالمية الأولى.

يُعد الفتح الإسلامي للقسطنطينية منعطفًا تاريخيّاً حاسمًا وصدمة أصابت العالم، أُقفل طريق الحرير ولم يعد الطريق التجاري نحو الشرق بين أيدي النصارى، توجهت أوروبا غربًا للبحث عن طرق جديدة فبدأ عصر الاكتشافات.

فتح "محمد الثاني" القسطنطينية بنيران المدافع، منذ عام ١٤٥٣ أصبحت المدفعية سلاحًا في يدي جميع الجيوش الناجحة في التاريخ.

٨

محمد الفاتح.. افتراءات وأكاذيب

قبل أن يدخل الأتراك العثمانيون في الإسلام، لم يكونوا موضع اهتمام جاد من المؤرخين المسلمين وغير المسلمين، فلم يردْ ذكرهم إلا من خلال إشارات عابرة.

وحين دخل الأتراك العثمانيون في الإسلام انقلبت الصورة وأصبحوا محط أنظار المؤرخين المسلمين وغير المسلمين، بيد أن المؤرخين من غير المسلمين أبدوا اهتمامًا ملحوظًا بدراسة تاريخ الأتراك العثمانيين المسلمين.

ولأول وهلة يخيل للمرء أن اندفاع المؤرخين من غير المسلمين في دراسة تاريخ العثمانيين المسلمين كان ينطلق من منطلق علمي سليم، هدفه تتبع العثمانيين المسلمين بأمانة علمية منصفة، ولكن ما إن يطلع المرء على ما أفرزته جهود المؤرخين من غير المسلمين من دراسات عن تاريخ العثمانيين المسلمين، حتى يكتشف أن الغالبية العظمى منهم قد تجاهلوا، وتناسوا مقتضيات الأمانة العلمية والإنصاف، بل أطلقوا العنان لأحقادهم الظاهرة والباطنة، لتكون هي المنطلق الذي ينطلقون من خلاله في تشويه تاريخ العثمانيين المسلمين وإلصاق عشرات الافتراءات التي لا تسندها أية بينات تاريخية بالأتراك العثمانيين المسلمين.

ولئن كنا لا نستغرب أن تصدر مثل تلك الافتراءات عن أقوام فضح الله عز وجل نواياهم تجاه الإسلام والمسلمين في قوله تعالى جل شأنه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (آل عمران: ١١٨) .

ولئن كنا لا نستغرب أن يحمل الحقد الأسود أولئك المؤرخين على تجاهل وتناسي أبسط قواعد مقتضيات الأمانة العلمية في عملية التاريخ للأتراك العثمانيين المسلمين، فإن الذي نستغربه أشد الاستغراب، بل ونستهجنه بشدة أن ينزلق الكثير من المؤرخين المسلمين، في حمأة عملية التزوير والتشويه والبهتان التي ألصقت بتاريخ العثمانيين المسلمين..

من ذلك مثلاً، تلك الفرية اللئيمة التي لا يكاد يخلو منها إلا النذر اليسير من الكتب التي تؤرخ للعثمانيين المسلمين، والتي تزعم أن السلاطين العثمانيين كانوا يملكون الحق، بموجب فتوى شرعية إسلامية، في قتل من يشاؤون من إخوانهم أو بني رحمهم، أو أقاربهم، بحجة الحفاظ على وحدة المسلمين، ولقطع الطريق على أية فتنة يمكن أن تبرز إذا حاول أحدهم المطالبة بالسلطة لنفسه.

وفي فرية باطلة ، وبهتان عظيم ، ذهب بعض المؤرخين ، خاصة الغربيين، إلى القول بأن السلاطين العثمانيين الجدد اعتادوا عند توليهم مقاليد السلطة أن يقتلوا إخوانهم جميعاً، ليأمنوا محاولات اغتصاب الملك، وأن هذه الظاهرة تكررت مراراً في تاريخ الدولة العثمانية حتى شمل القتل الإخوة الأصاغر سنّاً.

ولعل أخطر فرية خبيثة هى تلك التي أُلصقت بالسلطان محمد الفاتح، فقد درج بعض المؤرخين، وهم يؤرخون لحياته، على الزعم بأنه قام بقتل أخيه الرضيع أحمد جلبي بعد أيام قليلة من تسلمه مسؤولية السلطنة بعد وفاة أبيه السلطان مراد، خشية أن يزاحمه على السلطنة، ومن المؤسف أن هذا الزعم لم يقتصر على المؤرخين غير المسلمين، وإنما وقع في أحبولته عدد من المؤرخين المسلمين.

ولئن كانت هذه الفرية التي ألصقت بالسلطان محمد الفاتح تكون أوهن

من بيت العنكبوت، إلا أنني أجد من الواجب التوقف عندها وتفنيدها، لكي لا يبقى بعد ذلك عذر لأي مؤرخ يحترم نفسه، ويحترم شرف الكلمة التي يؤرخ بها، أن يستمر في ترديد هذا البهتان العظيم ضد السلطان محمد الفاتح.

هل يعقل أن سلطاناً ولي السلطنة في عهد أبيه، وتحت كنفه، ثم وليها من بعد وفاة أبيه، وقد اشتدّ ساعده، ونضجت خبرته، والتفت الأمة من حوله تحوطه بالحب والطاعة، هل يعقل أن هذا السلطان يغار من أخ له رضيع، فيخشى أن ينازعه على السلطة..؟ وكيف يتسنّى لطفل رضيع، وأنى له، أن ينازع على السلطنة، وهو الرضيع الذي إن تأخرت أمه عليه بالحليب يوماً مات جوعاً.

ثم هل يصدق إنسان عاقل، أن محمداً الفاتح، الذي تربى على مائدة القرآن، على يد خيرة علماء عصره، أمثال الشيخ أحمد بن إسماعيل الكوراني الذي كان الفاتح يسميه «أبا حنيفة زمانه»، والشيخ تمجيد أوغلو، والشيخ محمد جلبي زاده، والشيخ مولا إياش، والشيخ الغوراني، والشيخ سراج الدين الحلبي، والشيخ آق شمس الدين، يمكن أن يفكر بمثل هذا الأمر الفظيع..؟

بل، لنفرض جدلاً أن محمداً الفاتح كان يوجس خيفة أن ينازعه أخوه الرضيع على السلطنة، أفما كان يستطيع أن يحتويه تحت كنفه، ويربيه على الإخلاص له، بدل أن يقتله؟

ولماذ يستبق محمد الفاتح الأمور فيقتل أخاه الرضيع، وقد كان بإمكانه أن ينتظر وهو مطمئن البال بضعة عشر عاماً حتى يكبر أخوه، فيتحقق من نوازعه ونواياه؟

من هنا نستطيع أن نتبين انتفاء المصلحة الشخصية للسلطان محمد **الفاتح من قتل أخيه الرضيع.**

ولننتقل الآن إلى مناقشة الطريقة التي تمت بها عملية القتل المزعومة، فقد زعم مروّجو هذه الفرية أن السلطان محمداً الفاتح أرسل أحد قواده، واسمه علي بك، إلى جناح النساء لقتل أخيه الرضيع، فلما علم علي بك أن الطفل موجود في حمام النساء حيث تقوم مربيته بغسله، اقتحم الحمام وأمسك بالطفل الرضيع وغطسه تحت الماء حتى مات مختنقاً غرقاً..

هل يصدق عاقل أن محمد الفاتح، وهو الذكي المحنك، يقدم على قتل أخيه الرضيع بهذه الصورة المكشوفة الساذجة؟ وهل كان عاجزاً عن تكليف إحدى النساء، كزوجته، أو إحدى خادماتها، بتنفيذ عملية القتل دون إثارة انتباه أحد، بدل من أن يرسل رجلاً إلى جناح النساء، وهو أمر غير مألوف، بله أن يسمح له بأن يقتحم هذا الرجل حمام النساء، حيث يكنّ فيه متحللات من حجابهن، ومتخففات من كثير من ملابسهن، وفي ذلك ما فيه من خروج مستهجن عن المألوف، من شأنه لو تحقق فعلاً أن يثير من هياج النساء، وضجيجهن، وصخبهن، ما يضطر ذلك الرجل إلى الفرار قبل أن ينفذ مأربه، مهما بلغت به الجرأة والنذالة؟

إذن، ما هي حقيقة هذه الفرية؟

الحقيقة أن المربية التي كان موكلاً إليها أمر العناية بالطفل الرضيع أحمد، انشغلت عنه لبعض شأنها بينما كانت تغسله، فوقع في حوض الماء، فمات مختنقاً غرقاً قبل أن تتداركه الأيدي التي امتدت لإنقاذه بعد فوات الأوان.

وتصادف بعد غرق الطفل بأيام قليلة أن أحد ضباط الجيش، واسمه علي بك، ارتكب جريمة عقابها الإعدام، فلما أعدم، وجد الحاقدون مادة جديدة خيّل إليهم أنها تدعم بهتانهم، فطفقوا يزعمون أن علي بك هو الذي

أغرق الطفل الرضيع أحمد، وأن السلطان محمد الفاتح خشي أن يفشي هذا الرجل سره فقتله، ومن هنا جاءت الفرية على النحو الذي أشرت إليه، وينبغي الإشارة إلى أن «إدوارد سي كريسي» يتبنى هذا الزعم في كتابه «تاريخ العثمانيين الأتراك» المطبوع بالإنجليزية في بيروت في عام ١٩٦١م، ويدّعي أن السطان الفاتح أقدم على قتل الضابط علي بك متهماً إياه بقتل أخيه الرضيع دون أن يكون للسلطان علم بذلك.

ولو أنهم توقفوا عند هذه الفرية وحدها لهانَ الأمر، ولكنهم ما برحوا أن بدأوا ينسجون من حولها المزيد من الافتراءات، فزعموا أن محمدًا الفاتح، لم يكتف بقتل أخيه، بل أصدر قانوناً أعطى للسلطان الحق في قتل من يشاء من إخوته وأبنائه وأبناء عمومته وخؤولته، لقطع الطريق على أي منهم أن ينافسه على السلطة.

ولقد أوضح المؤرخ التركي المعاصر إسماعيل حامي دنشمند في كتابه «موسوعة التاريخ العثماني» الدافع الذي جعل السلطان محمد الفاتح يصدر هذا القانون فقال:

حين وجد السلطان محمد الفاتح أن أكبر خطر يهدد الدولة العثمانية في الفترة التي سبقت توليه مقاليد السلطنة، نجم عن تكرار حوادث الانشقاق التي كانت تقع بين الأمراء العثمانيين، والتي كانت تصل في أكثر الأحيان إلى درجة الاقتتال، وتؤدي إلى انقسام الدولة إلى فريقين أو أكثر، مما كان يؤثر على وحدة الدولة، ويغري خصوم الإسلام بها، فقد رأى السلطان محمد الفاتح أن يضع **قانوناً** أسماه «قانون حفظ النظام للرعية» أكد بموجبه أن الموت سيكون **مصير كل من يعلن العصيان** المسلح ضد السلطان، ويتعاون مع أعداء **الإسلام ضد المسلمين**.

ويردف إسماعيل حامي دنشمند **أن هذا القانون كان سبباً في انحسار**،

أو على الأقل، في تقليص حوادث العصيان المسلح، التي كادت أن تصبح أمراً شائعاً في الدولة العثمانية قبل صدور هذا القانون.

وإن المرء لتتملكه الدهشة، حين يرى أن كل دول الدنيا، قديمها وحديثها، لا تخلو قوانينها من مثل هذا القانون، ومع ذلك لا تجد أحداً يعترض عليها أو يشوه مقاصدها، كما كان يفعل المغرضون تجاه الدولة العثمانية!

٩

مواقف من حياة الفاتح

السلطان والدرويش :

تم تحقيق حلم المسلمين، وهُزم البيزنطيون، وفتحت مدينة القسطنطينية - أي: مدينة إسطنبول أو إسلامبول -، موكب السلطان (محمد الفاتح)، وهو يدخل المدينة من جهة (طوب قابي) ممتطياً جواده الأبيض، يحف به الوزراء والعلماء والقواد والفرسان.

كان الآلاف من أهالي المدينة قد التجأوا إلى كنيسة (أيا صوفيا) ينتظرون الفرصة الأخيرة للخلاص ، فقد أوهمهم بعض رجال الدين ، بأن ملاكاً سينزل من السماء ويحرق المسلمين ، وأن المسلمين لن يستطيعوا الوصول إلى كنيسة (أيا صوفيا) ، لأن الملاك لن يسمح لهم بتجاوز المنطقة التي تسمى الآن : (جامبرلي طاش) ، وهى لا تبعد إلا مسافة ٣٠٠ متر تقريباً عن الكنيسة. أما باقي الأهالي ، فقد دفعهم الفضول لرؤية هذا الفاتح الجديد ، فتجمعوا على الطريق الواصل بين (طوب قابي) وكنيسة (أيا صوفيا).

وفجأة اندفع من بين هذه الجماهير، درويش من دراويش الجيش العثماني، وتقدم إلى الأمام وأمسك بعرف جواد السلطان مستوقفاً السلطان، والموكب كله، ومخاطباً السلطان:

- لا تنس أيهـا السلطان ... لا تنس أنه بفـضل دعـائنا نحن الدراويش فتحت هذه المدينة.

ابتسم السلطان (محمد الفاتح) ابتسامة خفيفة ، ثم مد يد على سيفه وسله من غمده حتى نصفه قائلاً :

- صدقت يا درويش ! ... ولكن لا تَنْسَ حق هذا السيف أيضاً.

١٠

من أقوال محمد الفاتح

أُفَضِّلُ دائماً أَنْ أتصور أنَّني سُمِّيت مُحمدًا محبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وليس تَشَبُّهاً بجدي محمد الأول .. وُلِدت في ٢٦ رجب سنة ٨٣٣ هـ ونشأت في هذا القصر الكبير أميرًا .. ابن ملك.. حفيد ملوك .. وأنا ولي العهد .. لا تفزعوا مِنْ ذلك فأنا أشعر أنَّها مسئولية وتكليف ..

❖❖❖

بين الزهور الكثيرة والأشجار العجوز كنت أقضي أغلب وقت فراغ طفولتي...نعم .. فراغ .. فلقد كان أبي رحمه الله يُدَرِّبُني ويُعلِّمُني فنون القتال، وتفاريع الحكم والسياسة .. ولا يَدَع لي إلا القليل لنفسي أقضيه في طبيعة حدائق القصر الجميلة .. فأحْبَبْتُ الشعر والموسيقى.

❖❖❖

كُنْتُ أجلس أتأمل السماء والأرض وصوت معلمي الشيخ (آق شمس الدين) يَرِنُّ في أُذُنِي : نِعْمَ الأميرُ أَميرُها .. أنت هذا الأمير يا ولدي .. أنت هُو ما الذي رَآهُ في حتى يَتَصَوَّرني صاحب نُبوءة الرسول .. لست أدري ولكنِّي أَيْقَنْت أنَّه إن لَمْ أكن أنا فلابُدَّ أَنْ أكون هو .

❖❖❖

مازلت أَذْكُرُ دروس اللغات والشعر والقتال والمبارزة وركوب الخيل .

القسطنطينية من أيام معاوية بن أبي سفيان ومحاولات فتحها المستمرة تتحطم .. فهل سيكون الفتح على يدي؟

أَعْشَق اِمْتِطَاءَ صهوة جوادي ولست أدري متى كانت أول مرة ولكن أذكر الخوف من هذا الظهر العالي الذي وضعني أبي عليه فظللت مُتَعلِّقاً به

ولكنَّه انتزع ذراعي برفق مِنْ أكتافه وأمسكهما بشيء .. كان اللجام.. وبدأ الشيء الكبير يتحرك وأنا خائف أنظر حولي وأبكي وظل صوت أبي ومدربي يُدوِّيان : انظر أمامك وارفع رأسك .. فعلتها !! وبدأت أُحِبّ إحْسَاس السيطرة .. والقيادة , .. والتحكم في الفرس.. أَنْبَل الحيوانات ..

❖❖❖

عند العاشرة كنت فارسًا لا يُشَقُّ له غبار أمتطي جوادي يوميّاً عند الغروب لأدور حول المدينة وأدخل به في البحر .. البوسفور ..وأظل أركض في اتجاه القسطنطينية حتى أكاد أغرق أنا وجوادي .. فأعود.

اعتدت طريقي في الماء وأحببته .. وعيني وقلبي على الشاطئ الآخر العالي .. يوما ما سأصل حتى الشاطئ الآخر وأستلقي على رِمَاله يأكل فرسي من حشائشه ويَهُزُّ ذَيْلَه الكبير حول رأسي.

❖❖❖

حين بلغت التاسعة عشرة ولأَنّي أبي إمارة مغنسيا لأتدرب على شؤون الحكم والسياسة وكان أستاذي ومعلمي معي آق شمس الدين والمُلا كوراني كانت حياتي قاسية نظرًا إنها لأمير ..وأي أمير .. وَرِيثُ أكبر وأرقى إمبراطورية على وجه الأرض .. الخلافة الإسلامية .. كنت أطوف الشوارع محاولاً التأسي بسيدنا عمر بن الخطاب لأقف على حال الناس ... ونداء أبي ارفع رأسك وانظر دائمًا أمامك.. لم يعد تدريبًا للفروسية بل شِعَارَ حياةٍ .. أحوال كثيرة دَوَّنْتُها .. وأشخاص اختبرتهم وتقنيات اكتشفتها .. ولما توليت الحكم سلطاناً فوجئ الشعب بقدرات ابن الواحد والعشرين سنة فَحَدَّثْتُ كل شيء: دواوين الإدارة .. المدارس .. الجيش .. الأسلحة .. فرضت تعلم القرآن والعربية .. ولم يكن يتولى عندي إلا المعروف بصلاحه وتقواه .. كانت تُدَاخِلني كلمات سيدنا عمر إنَّما ننتصر عليهم بالتقوى فلنكن إذن أول المتقين .

ما سمعت عن عالم أو شاعر أو كل محترف في أي مجال إلا واستدعيته للأستانة و أجزلت له لنستفيد من اقتداره .

الكفاءة وحدها كانت مؤهل العاملين .. وبَنَيْت أكبر مِدْفع في العالم وأكثرت من المدافع ومن السفن الخفيفة ..

❖❖❖

ومازلت كما كنت صغيرًا أنزل إلى الماء بفرسي في انتظار الوصول لغايتي .. فانْغَرَسَت الفكرة في قلوب جنودي وأمرائي . كان الجميع يعمل لهدف واحد .. أن نحظي بشرف كوننا نِعْمَ الأمير ونِعْمَ الجنود ..

وبنيت قلعة على مضيق البوسفور لأمنع وصول المدد من طربوزان إلى القسطنطينية ثم حاصرتها من كل الجهات ولكن ظل البحر مشكلتي .. سلسلة عملاقة تقطع طريق السفن تنتصب فجأة في عرض الماء كسد منيع تتكسر عليه القلاع والأشرعة .

❖❖❖

وظللت أحاصرها من كل اتجاه ورفضت كل محاولات الحلول غير دخولها وفتحها وكل ما يُقْلِقُنِي هو هذه السلسلة الغبية التي تنتصب قاطعة علينا الطريق .. ويبدو أنَّ الله قد قَبِل سعيي و اجتهادي فوجدتني أَعْثُر مصادفة أثناء حصاري على قبر سيدي أبي أيوب الأنصاري .

❖❖❖

هل يتصور أحد سعادة سلطان البلاد باكتشاف مقبرة .. لن يفهم إلا مَنْ يَعْرف معنى أن يجد فجأة بين يديه مَوْضع وَضَع فيه أَحَد صحابة رسول الله قَدَمه .. بل ووضع فيه جسده وليس أي صحابي إنَّه ذلك المضيف الذي استقبل نبينا الكريم صلوات الله عليه وسلامه في بيته حين دخل المدينة .. وكأنَّها البشرى إنَّني أيضاً سأكون ضَيْفَه لحين دخول المدينة وبنيت عند

قبره مسجدًا .. وصارت صلواتي وعباداتي كلها في هذه البقعة الطاهرة .. و.. وأتى النقاء بثماره .. لمعت في رأسي فكرة قد تبدو مجنونة ولكنَّها عبقرية ماذا أفعل إذا وقف سدّا في الطريق ؟.. وعجزت عن هدمه وتخطيه؟ .. الإجابة سهلة و بسيطة " تلف من حوله " نعم .. للتاريخ أن يتصور قادتي و أمرائي وقد فغروا أفواههم حين سمعوا بالخطة .. ثم ضحكات السعادة بالعثور على حل بسيط ولكنه داهية ..

❖❖❖

بدأت مراحل التنفيذ وتم تمهيد التلال ووضع قضبان خشبية مدهونة بالشحم عليها ثم جررنا السفن عبر التلال لنهبط بعد مستوى السلسلة .. تمَّ كل هذا في ليلة واحدة . ألم أقل لكم إنَّ جنودي عايشوا معي الحلم .. أن نكون المعنيين بالحديث .

❖❖❖

وانتهت القصة هنا لقد فتحت القسطنطينية .. وصليت في آيا صوفيا وانقلبت أكبر كنائسها إلى أروع مساجدها ..

ولكنِّي ظللت أحب الصلاة في مسجد أبي أيوب أَتَمَسَّح بأعتاب الصحابة تبلِّل دموعي لحيتي وأنا أُرسل الصلاة و السلام للمصطفى الهادي ممن حظي بشرف أن يأتي ذكره على لسانه الشريف قبل أن يرى النور .. وبشر به وأنعم عليه بالرضا من الله ... عسى الله أن يقبل صالح أعمالي ويتجاوز عن خاطئ اجتهادي .

السلطان محمد الفاتح يدخل إلى القسطنطينية

السلطان محمد الثاني مع البطريرك جورجيوس سكولاريوس

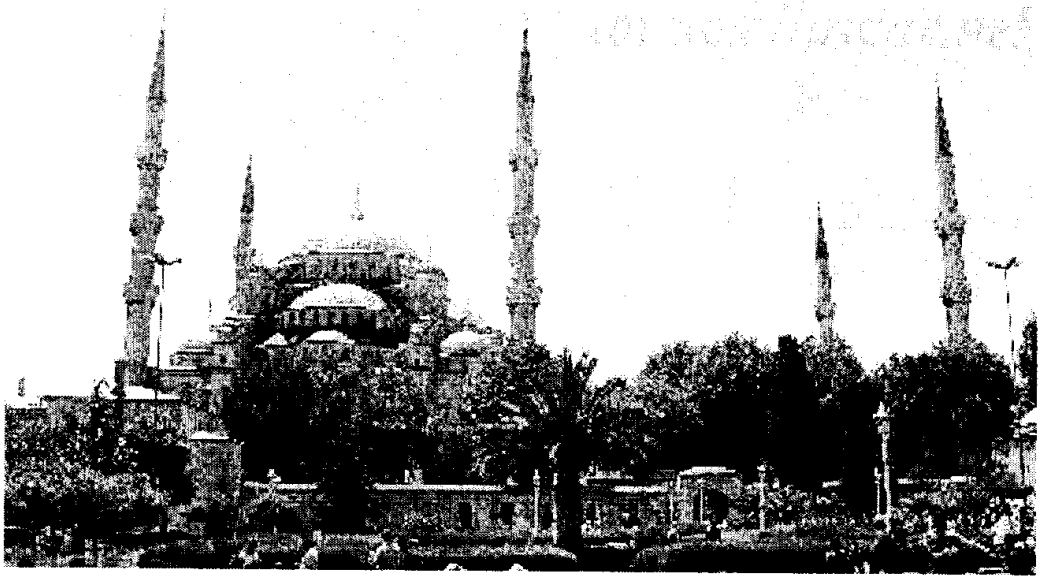

أيا صوفيا الكنيسة التي حولها محمد الفاتح إلى مسجد وأمّ فيها الشيخ آق شمس الدين أول صلاة جمعة بعد الفتح، وهى الآن متحف في إستانبول.

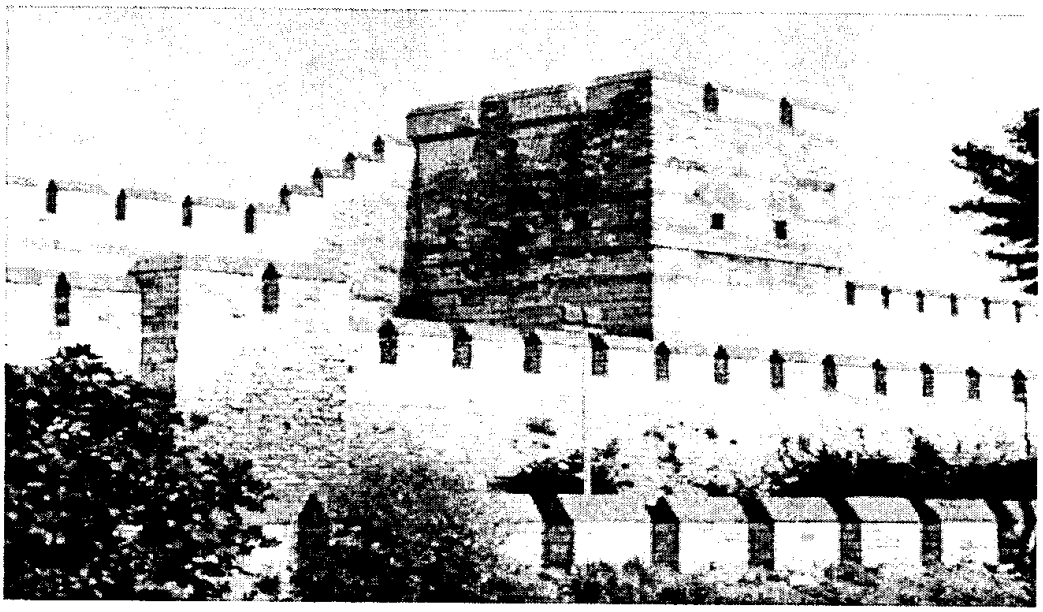

أسوار القسطنطينية

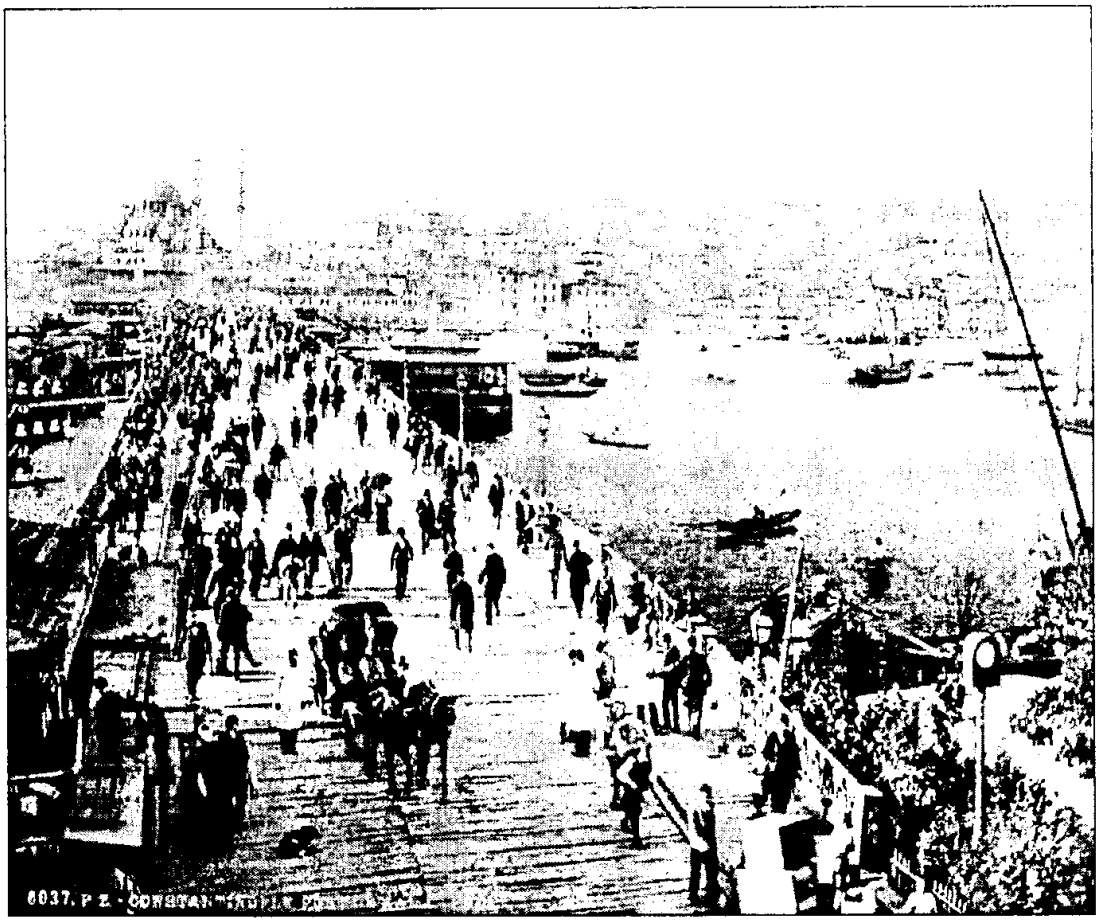

الجسر الذى عبره الفاتح إلى المدينة

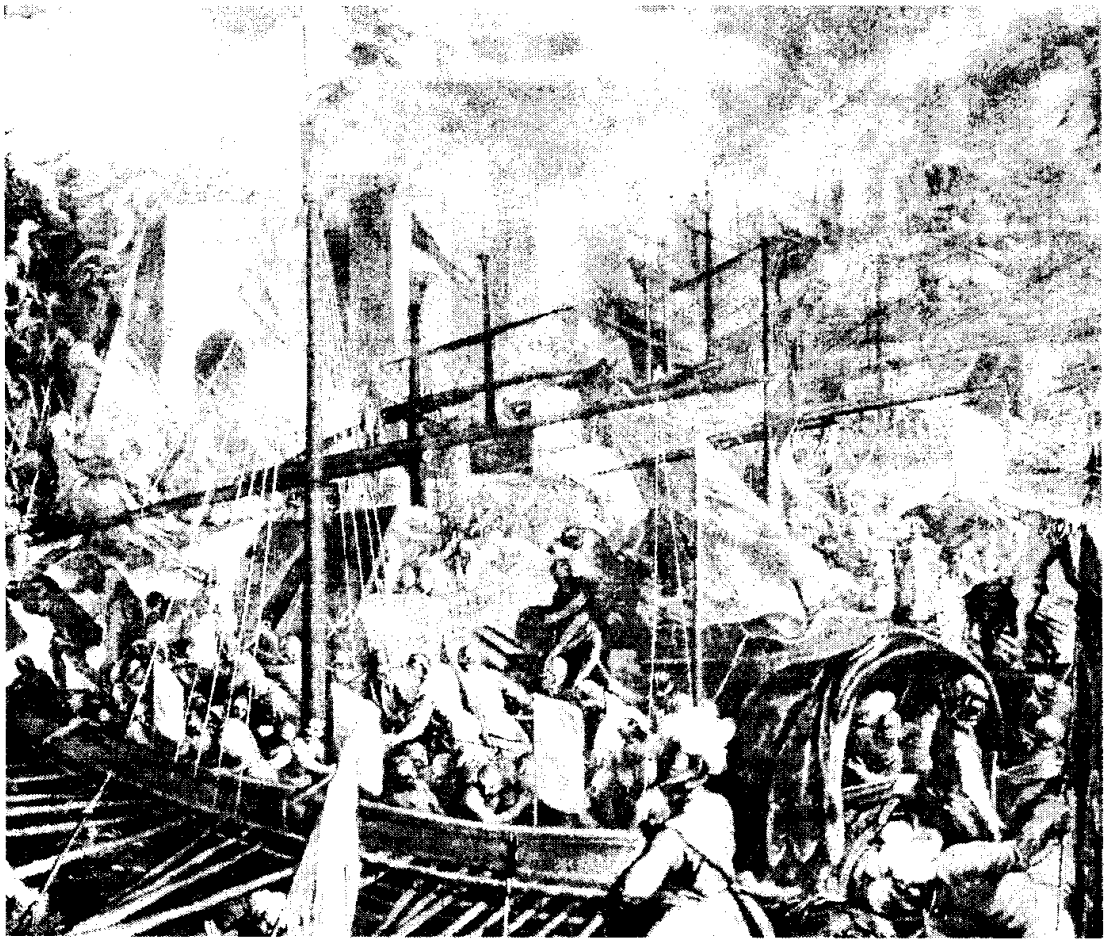

لحظة دك حصون المدينة واقتحامها

محمد الفاتح يدخل القسطنطينية وهو محاط بالإنكشارية وعلى يمين الصورة معلمه الشيخ آق شمس الدين وهو يرفع يديه بالدعاء والابتهال.

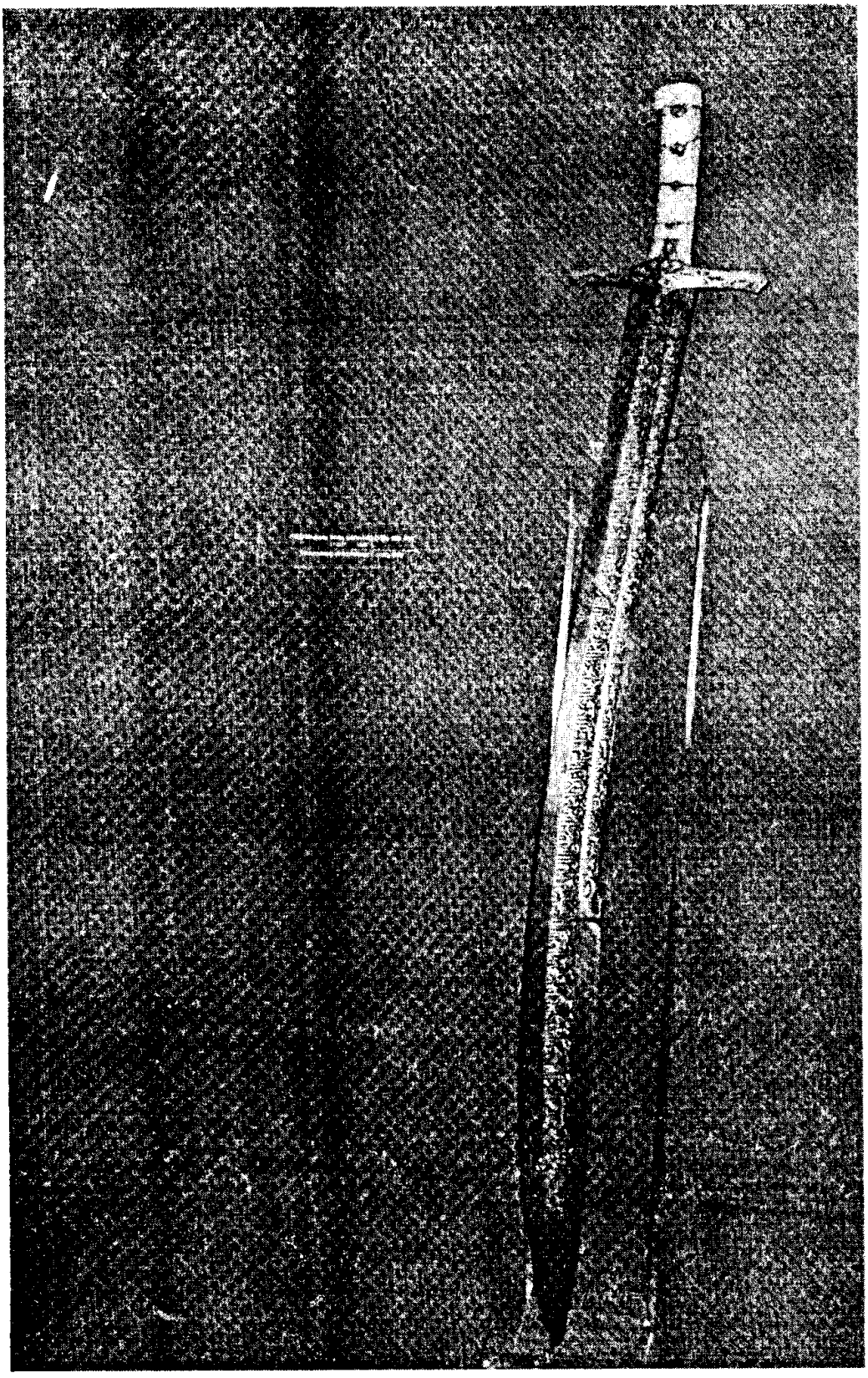

سيف السلطان محمد الفاتح في قصر الباب العالى

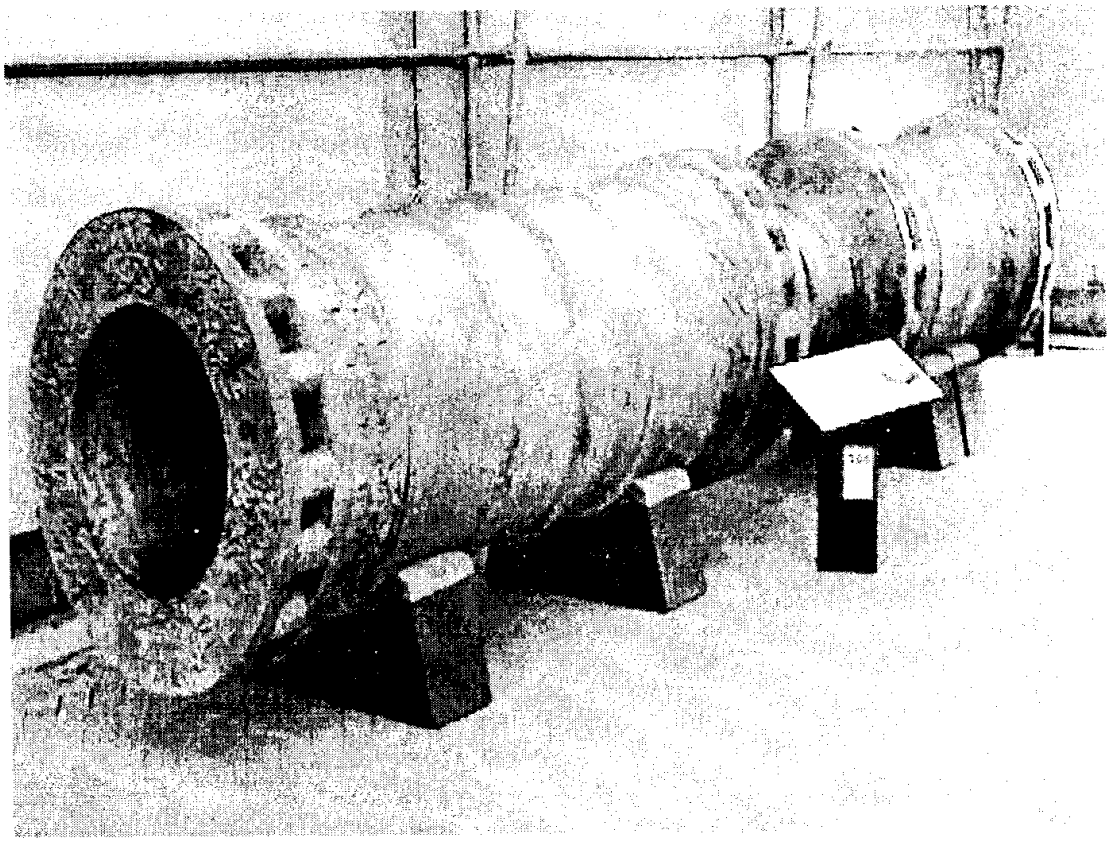

المدفع السلطاني العثماني الذي استخدم عند حصار القسطنطينية. وهو الآن موجود في متحف الترسانة الملكية البريطانية.

خلفية ورقة ليرة تركيه التي تحمل صورة السلطان الفاتح

7

الفصل السابع

مـــزيد من الفـــتـــوحـــات

مزيـــد مـــن الفتوحـــات

بعد تمام النصر والفتح، اتخذ السلطان لقب "الفاتح" و"قيصر الروم" ، على الرغم من أن هذا اللقب الأخير لم تعترف به بطركيّة القسطنطينية ولا أوربا المسيحية. وكان السبب الذي جعل السلطان يتخذ هذا اللقب هو أن القسطنطينية كانت عاصمة الإمبراطورية الرومانية، بعد أن نُقل مركز الحكم إليها عام ٣٣٠ بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية، وكونه هو سلطان المدينة فكان من حقه أن يحمل هذا اللقب.

وكان للسلطان رابطة دم بالأسرة الملكية البيزنطية، بما أن كثيرا من أسلافه، كالسلطان أورخان الأول، تزوجوا بأميرات بيزنطيات.

ولم يكن السلطان هو الوحيد الذي حمل لقب القيصر في أيامه، إذ إن إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة في أوربا الغربية، "فريدريش الثالث"، قال آنذاك بأنه ينحدر مباشرة من شارلمان، الذي حصل على لقب "قيصر" عندما توّجه البابا "ليو الثالث" عام ٨٠٠، على الرغم من عدم اعتراف الإمبراطورية البيزنطية بهذا الأمر عندئذ.

وكان السلطان قد أمر بحبس الصدر الأعظم "خليل باشا"، الذي اتهم أثناء حصار القسطنطينية بالتعامل مع العدو أو تلقيه رشوة منهم لفضح تحركات الجيش العثماني، فحُبس لمدة أربعين يومًا وسُملت عيناه، ثم حُكم عليه بالإعدام فأعدم.

ويروي المؤرخ البريطاني "ستيفن رونسيمان" قصة منقولة عن المؤرخ البيزنطي "دوكاس"، المعروف بإضفائه النكهة الدرامية والمواصفات المؤثرة

على كتاباته، أنه عندما دخل محمد الثاني القسطنطينية، أمر بإحضار الابن الوسيم للدوق الأكبر "لوكاس نوتاراس" البالغ من العمر ١٤ ربيعًا، ليُشبع معه شهوته.

وعندما رفض الأب تسليم ولده إلى السلطان، أمر الأخير بقطع رأس كليهما حيث وقف يروي عالم اللاهوت ورئيس أساقفة ميتيليني "ليونارد الصاقيزي" نفس القصة في رسالة أرسلها إلى البابا نيقولا الخامس.

ويرى المؤرخون المعتدلون والمؤرخون المسلمون، أن هذه الرواية عارية عن الصحة، وأن سببها كان الصدمة العنيفة التي تعرض لها العالم الأوربي المسيحي عند سقوط المدينة المقدسة بيد المسلمين، حيث بذل الشعراء والأدباء ما في وسعهم لتأجيج نار الحقد وبراكين الغضب في نفوس النصارى ضد المسلمين.

وكما سبق وقلنا إن الأمراء والملوك عقدوا اجتماعات طويلة ومستمرة وتنادوا إلى نبذ الخلافات والحزازات والتوحد ضد العثمانيين.

وكان البابا نيقولا الخامس أشد الناس تأثراً بنبأ سقوط القسطنطينية، وعمل جهده وصرف وقته في توحيد الدول الإيطالية وتشجيعها على قتال المسلمين، وترأس مؤتمرًا عُقد في روما، أعلنت فيه الدول المشاركة عزمها على التعاون فيما بينها وتوجيه جميع جهودها وقوتها ضد العدو المشترك.

وأوشك هذا الحلف أن يتحقق إلا أن الموت عاجل البابا في ٢٥ مارس سنة ١٤٥٥، فلم تتم أي من هذه الخطط.

١
فتـــح بـــلاد مـــوره

بعد إتمامه لترتيباته وبناء ما هُدم من أسوار القسطنطينية وتحصينها، أمر السلطان ببناء مسجد بالقرب من قبر أبي أيوب الأنصاري، جرت العادة فيما بعد أن يتقلد كل سلطان جديد سيف عثمان الغازي الأول في هذا المسجد، ثم سافر بجنوده لفتح بلاد جديدة، فقصد بلاد موره، لكن لم ينتظر أميراها "دمتريوس" و"توماس"، أخوا قسطنطين، قدومه، بل أرسلا إليه يُخبرانه بقبولهما دفع جزية سنوية قدرها اثنا عشر ألف دوكا.

فقبل السلطان ذلك، وغيّر وجهته قاصداً بلاد الصرب، فأتى "هونيدوارا" الشجاع المجري، الملقب "بالفارس الأبيض"، وردّ عن الصرب مقدمة الجيوش العثمانية، إلا أن الصرب لم يرغبوا في مساعدة المجر لهم لاختلاف مذهبهم، حيث كان المجر كاثوليكيين تابعين لبابا روما، والصرب أرثوذكسيين لا يذعنون لسلطة البابا بل كانوا يفضلون تسلط المسلمين عليهم لما رأوه من عدم تعرضهم للدين مطلقًا. ولذلك أبرم أمير الصرب الصلح مع السلطان محمد الثاني على أن يدفع له سنويًا ثمانين ألف دوكا، وذلك في سنة ١٤٥٤ .

وفي السنة التالية ، أعاد السلطان الكَرَّة على الصرب من جديد، بجيش مؤلف من خمسين ألف مقاتل وثلاثمائة مدفع، ومر بجيوشه من جنوب تلك البلاد إلى شمالها بدون أن يلقى أقل معارضة حتى وصل مدينة بلغراد الواقعة على نهر الدانوب وحاصرها من جهة البر والنهر.

وكان هونيدوارا المجري دخل المدينة قبل إتمام الحصار عليها ودافع عنها دفاع الأبطال حتى يئس السلطان من فتحها ورفع عنها الحصار سنة ١٤٥٥ .

لكن وإن لم يتمكن العثمانيون من فتح عاصمة الصرب إلا أنهم

أصابوا هونيدوارا بجراح بليغة توفي بسببها بعد رفع الحصار عن المدينة بنحو عشرين يومًا.

ولما علم السلطان بموته أرسل الصدر الأعظم "محمود باشا" لإتمام فتح بلاد الصرب فأتمّ فتحها من سنة ١٤٥٨ إلى سنة ١٤٦٠ .

وفي هذه الأثناء ، تمّ فتح بلاد موره. ففي سنة ١٤٥٨ فتح السلطان مدينة "كورنته" وما جاورها من بلاد اليونان حتى جرّد "توماس باليولوج" أخا قسطنطين من جميع بلاده .

ولم يترك إقليم موره لأخيه دمتريوس إلا بشرط دفع الجزية. وبمجرّد ما رجع السلطان بجيوشه ثار توماس وحارب الأتراك وأخاه معاً، فاستنجد دمتريوس بالسلطان فرجع بجيش عرمرم ولم يعد حتى تمّ فتح إقليم موره سنة ١٤٦٠ فهرب توماس إلى إيطاليا، ونُفي دمتريوس في إحدى جزر الأرخبيل.

وفي ذلك الوقت فُتحت جزر تاسوس والبروس وغيرها من جزر بحر الروم.

٢

توحيـد الأنـاضول

وبعد عودة السلطان من بلاد اليـونان أبرم صلحًا مع إسكندر بك وترك له إقليمي ألبانيا وإيبيروس، ثم حوّل أنظاره إلى آسيا الصغـرى ليفتح ما بقي منها، فسار بجيشه دون أن يُعلم أحدًا بوجهته في أوائل سنة ١٤٦١، فـهاجم أولاً ميناء بلدة أماستريس، وكانت مركز تجارة أهالي جنوة النازلين بهذه الأصقاع.

ولكون سكانها تجّارًا يُحافظون على أموالهم ولا يهمـهم دين أو جنسية متبوعهم ما دام غير متـعرّض لأموالهم ولا أرواحهم، فتحوا أبواب المدينة ودخلهـا العثمانيون بغير حرب.

ثم أرسل إلى "اسفنديار" أمير مدينة سينوب يطلب منه تسليم بلده والخضوع له. ولأجل تعـزيز هذا الطلب أرسل أحد قـوّاده ومـعه عـدد عظيم من المراكب لحصـار الميناء، فسلمهـا إليه الأمير وأقطعـه السلطان أراضيَ واسعة بإقليم "بيثـينيا" مكافأة له على خضوعه.

ثم قصـد بنفسه مـدينة طرابزون ودخلها دون مـقاومة شديـدة وقبض على الملك وأولاده وزوجته وأرسلهم إلى القسطنطينية.

٣

قتـال فـلاد المخـوزق

ما إن عاد السلطان إلى القسطنطينية حتى جهز جيشًا لمحاربة أمير الفلاخ المدعو "فلاد دراكول الثالث المخوزق"، لمعاقبته على ما ارتكبه من الفظائع مع أهالي بلاده والتعدّي على التجار العثمانيين النازلين بها.

فلمّا قرب منها، أرسل إليه هذا الأمير وفدًا يعرض على السلطان دفع جزية سنوية قدرها عشرة آلاف دوكا بشرط أن يُصادق على جميع الشروط الواردة بالمعاهدة التي أبرمت في سنة ١٣٩٣ بين أمير الفلاخ آنذاك والسلطان بايزيد الأول، فقبل السلطان محمد الثاني هذا الاقتراح وعاد بجيوشه.

ولم يقصد أمير الفلاخ بهذه المعاهدة إلا التمكن من الاتحاد مع ملك المجر "متياس كورفينوس" ومحاربة العثمانيين.

فلمّا علم السلطان باتحادهما أرسل إليه مندوبين يسألانه عن الحقيقة، فقبض عليهما وقتلهما بوضعهما على عمود محدد من الخشب، الذي يُعرف بالخازوق. وأغار بعدها على بلاد بلغاريا التابعة للدولة العثمانية وعاث فيها فسادًا، ورجع بخمسة وعشرين ألف أسير، فأرسل إليه السلطان رسلاً يدعونه إلى الطاعة وإخلاء سبيل الأسرى.

فلمّا مثل الرسل أمامه أمرهم برفع عمائمهم لتعظيمه، وعند إبائهم طلبه لمخالفته لعوائدهم، أمر بأن تُسمّر عمائمهم على رؤسهم بمسامير من حديد.

فلمّا وصلت هذه الأخبار إلى السلطان محمد استشاط غضبًا وسار على الفور بحوالي ٦٠,٠٠٠ جندي نظامي و ٣٠,٠٠٠ غير نظامي، فوصل بسرعة إلى مدينة "بوخارست"، عاصمة الأمير، بعد أن هزمه وفرّق جيوشه،

لكنه لم يتمكن من القبض عليه لمجازاته على ما اقترفه بحق العثمانيين والبلغار، لهروبه والتجائه إلى ملك المجر، فنادى السلطان بعزله ونصب مكانه أخاه "راؤول" لثقته به بما أنه تربّى في حضانة السلطان منذ نعومة أظفاره.

وبذا ضُمّت بلاد الفلاخ إلى الدولة العثمانية. ويُقال إنه عند وصول السلطان محمد إلى ضواحي بوخارست، وجد حول المدينة غابة من الخوازيق التي عُلّقت عليها جثث الأسرى الذين أتى بهم أمير الفلاخ من بلاد بلغاريا، وقتلهم عن آخرهم بما فيهم الأطفال والنساء، وكذلك الجنود العثمانيين الذين كان قد قبض عليهم إثر مناوشة ليلية، وكان عددهم جميعا عشرين ألفًا.

٤

فتح البوسنة

في سنة ١٤٦٢، حارب السلطان بلاد البوسنة لامتناع أميرها "استيفان توماسفيتش" عن دفع الخراج، وأسره بعد معركة هو وولده وأمر بقتلهما، فدانت له جميع بلاد البشناق. وأرسل فرمانا إلى الفرنسيسكان من سكان تلك البلاد يُطمئنهم بعدم تعرّض أي منهم للاضطهاد بسبب معتقداتهم الدينية، فقال:

"أنا السلطان محمد خان الفاتح، أعلن للعالم أجمع أن أهل البوسنة الفرنسيسكان قد مُنحوا بموجب هذا الفرمان السلطاني حماية جلالتي. ونحن نأمر بأن:

لا يتعرض أحد لهؤلاء الناس ولا لكنائسهم وصلبهم ! وبأنهم سيعيشون بسلام في دولتي. وبأن أولئك الذين أصبحوا مهاجرين منهم، سيحظون بالأمان والحرية. وسيُسمح لهم بالعودة إلى أديرتهم الواقعة ضمن حدود دولتنا العليّة.

لا أحد من دولتنا سواء كان نبيلاً، وزيرًا، رجل دين، أو من خدمنا سيتعرض لهم في شرفهم وفي أنفسهم !

لا أحد سوف يهدد، أو يتعرض لهؤلاء الناس في أنفسهم، ممتلكاتهم، وكنائسهم!

وسيحظى كل ما أحضروه معهم من متاع من بلادهم بنفس الحماية.

وبإعلان هذا الفرمان، أقسم بالله العظيم الذي خلق الأرض في ستة أيام ورفع السماء بلا عمد، وبسيدنا محمد عبده ورسوله، وجميع الأنبياء والصالحين رضوان الله عليهم أجمعين، بأنه؛ لن نسمح بأن يُخالف أي من أفراد رعيتنا أمر هذا الفرمان!"

وفي سنة ١٤٦٤، أراد "متياس كورفينوس" ملك المجر استخلاص البوسنة من العثمانيين، فهُزم بعد أن قُتل معظم جيشه، وكانت عاقبة تدخله أن جُعلت البوسنة ولاية كباقي ولايات الدولة، وسُلبت ما كان مُنح لها من الامتيازات، ودخل في جيش الإنكشارية ثلاثون ألفاً من شبانها وأسلم أغلب أشراف أهاليها.

هذا وكانت قد ابتدأت حركات العدوان في سنة ١٤٦٣ بين العثمانيين والبنادقة بسبب هروب أحد الرقيق إلى "كورون" التابعة للبندقية، وامتناعهم عن تسليمه بحجة أنه اعتنق المسيحية دينًا. فاتخذ العثمانيون ذلك سببًا للاستيلاء على مدينة آرغوس وغيرها.

فاستنجد البنادقة بحكومتهم، فأرسلت إليهم عددًا من السفن محملة بالجنود، وأنزلتهم إلى بلاد موره، فثار سكانها وقاتلوا الجنود العثمانيين المحافظين على بلادهم وأقاموا ما كان قد تهدم من سور برزخ كورون لمنع وصول المدد من الدولة العثمانية، وحاصروا المدينة نفسها واستخلصوا مدينة آرغوس من الأتراك. لكن لما علموا بقدوم السلطان مع جيش يبلغ عدده ثمانين ألف مقاتل، تركوا البرزخ راجعين على أعقابهم، فدخل العثمانيون بلاد موره بدون معارضة كبيرة واسترجعوا كل ما أخذوه وأرجعوا السكينة إلى البلاد. وفي السنة التالية أعاد البنادقة الكرّة على بلاد موره دون فائدة.

وبعد ذلك حاول البابا "بيوس الثاني" بكل ما أوتي من مهارة وقدرة سياسية تركيز جهوده في ناحيتين اثنتين: حاول أولاً أن يقنع الأتراك باعتناق الدين المسيحي، ولم يقم بإرسال بعثات تبشيرية لذلك الغرض وإنما اقتصر على إرسال خطاب إلى السلطان محمد الفاتح يطلب منه أن يعتنق المسيحية، كما اعتنقها قبله قسطنطين وكلوفيس ووعده بأنه سيكفر عنه خطاياه إن هو اعتنق المسيحية مخلصًا، ووعده بمنحه بركته واحتضانه ومنحه صكًا بدخول الجنة.

ولما فشل البابا في خطته هذه لجأ إلى الخطة الثانية، خطة التهديد والوعيد واستعمال القوة، فحاول تأجيج الحقد الصليبي في نفوس النصارى شعوبًا وملوكًا، قادة وجنودًا، واستعدت بعض الدول لتحقيق فكرة البابا الهادفة للقضاء على العثمانيين، ولكن لما حان وقت النفير اعتذرت دول أوربا بسبب متاعبها الداخلية المختلفة.

وعالج المنون البابا بعد هذا بفترة قصيرة، إلا أن تحريضاته كانت قد أثرت في إسكندر بك الألباني، فحارب الجنود العثمانيين وحصل بينهما عدّة وقائع أريقت فيها كثير من الدماء، وكانت الحرب فيها سجالاً.

وفي سنة ١٤٦٧ توفي إسكندر بك بعد أن حارب الدولة العثمانية ٢٥ سنة دون أن تتمكن من قمعه.

ثمّ بعد هدنة استمرت سنة واحدة، عادت الحروب بين العثمانيين والبنادقة وكانت نتيجتها أن فتح العثمانيون جزيرة "نجر بونت"، وتُسمى في كتب الترك "أغريبوس"، وتُعرف حاليًا باسم "إيبويا"، وهى مركز مستعمرات البنادقة في جزر الروم، وتمّ فتحها في سنة ١٤٧٠ .

٥

فتح إمارة قرمان

بعد أن ساد الأمن في أنحاء أوربا، حوّل السلطان أنظاره إلى بلاد القرمان بآسيا الصغرى ووجد سبيلا سهلا للتدخل، وهو أن أميرها المدعو "إبراهيم" أوصى بعد موته بالحكم إلى أحد أولاده واسمه الأمير إسحق.

ولكونه كان لديه إخوة لأب أكبر منه سنا، يرغب كل منهم بالحكم بطبيعة الأمر، تدخل السلطان محمد الثاني وحارب إسحق وهزمه وولى محله أكبر إخوته، وعاد إلى أوربا لمحاربة إسكندر بك، الذي كان ما زال على قيد الحياة آنذاك، فانتهز الأمير إسحق غياب السلطان وعاود الكرّة على قونية، عاصمة القرمان، لاسترداد ما أوصى به إليه أبوه من البلاد، فرجع إليه السلطان وقهره.

وليستريح باله من هذه الجهة أيضا، ضمّ إمارة قرمان إلى بلاده وغضب على وزيره "محمود باشا" الذي عارضه في هذا الأمر.

وبعد ذلك بقليل زحف "أوزون حسن"، "سلطان دولة الخروف الأبيض" وهو أحد خلفاء تيمورلنك، الذي كان سلطانه ممتدا على جميع البلاد والأقاليم الواقعة بين نهري أمودريا والفرات، وفتح مدينة "توقات" عنوة ونهب أهلها.

فأخذ السلطان في تجهيز جيش جرّار وأرسل لأولاده "داود باشا" بكلر بك الأناضول، و"مصطفى باشا" حاكم القرمان، يأمرهما بالمسير لمحاربة العدوّ، فسارا بجيوشهما إليه وقابلا جيش "أوزون حسن" على حدود إقليم الحميد، وهزماه شر هزيمة في معركة بالقرب من مدينة "إرزينجان" سنة ١٤٧١ .

وبعدها، في أواخر صيف عام ١٤٧٣، سار إليه السلطان نفسه ومعه مائة ألف جندي وأجهز على ما بقي معه من الجنود بالقرب من مدينة "كنجه"، ولم يعد "أوزون حسن" لمحاربة الدولة العثمانية بعد ذلك، إذ إن هذه المعركة كانت قد قضت على سلطة دولته، ولم يعد للعثمانيين من عدو لجهة الشرق، حتى بروز الشاه "إسماعيل الصفوي" والدولة الصفوية في وقت لاحق.

وفي هذه الأثناء كانت الحرب متقطعة بين العثمانيين والبنادقة الذين استعانوا ببابا روما وأمير نابولي، وكان النصر فيها دائمًا للعثمانيين، ولم يتمكن البنادقة من استرجاع شيء مما أُخذ منهم.

٦

محاربة البغدان

في سنة ١٤٧٥ أراد السلطان فتح بلاد البغدان، وهى المنطقة الشرقية من رومانيا المتاخمة لحدود روسيا والمعروفة أيضاً باسم "مولدوفا"، فأرسل إليها جيشاً بعد أن عرض دفع الجزية على أميرها المسمى "استيفان الرابع" ولم يقبل.

ووقعت معركة عنيفة بين الطرفين بتاريخ ١٠ يناير من نفس العام عُرفت بمعركة "فاسلوي"، كنية بالمدينة القريبة من الموقع.

ووصل عدد الجنود العثمانيين إلى ١٢٠,٠٠٠ جندي، بينما بلغ عدد الجنود البغدان ٤٠,٠٠٠ جندي، بالإضافة إلى بعض القوات المتحالفة الأصغر حجما وبعض المرتزقة.

وبعد قتال عنيف قُتل فيه جنود كثر من الجيشين المتحاربين، انهزم الجيش العثماني وعاد دون فتح شيء من هذا الإقليم. ويذكر المؤرخون أن "استيفان الرابع" قال إن هذه الهزيمة التي لحقت بالعثمانيين "هى أعظم هزيمة حققها الصليب على الإسلام".

وقالت الأميرة "مارا" التي كانت زوجةً للسلطان مراد الثاني، والد الفاتح، سابقاً، لمبعوث بندقي إن هذه الهزيمة هي أفظع الهزائم التي تعرّض لها العثمانيون في التاريخ.

وبذلك اشتهر "استيفان الرابع" أمير البغدان بمقاومة العثمانيين، فخلع عليه البابا "سيكستوس الرابع" لقب "بطل المسيح" و"الحامي الحقيقي للديانة المسيحية".

ولما بلغ خبر هذه الهزيمة آذان السلطان عزم على فتح بلاد القرم حتى يستعين بفرسانها المشهورين في القتال على محاربة البغدان.

وكان لجمهورية جنوة مستعمرة في شبه جزيرة القرم، في مدينة "كافا"، فأرسل السلطان إليها أسطولا بحريًا، ففتحها بعد حصار ستة أيام، وبعدها سقطت جميع الأماكن التابعة لجمهورية جنوة.

وبذلك صارت جميع شواطئ القرم تابعة للدولة العثمانية ولم يُقاومها التتار النازلون بها، ولذلك اكتفى السلطان بفرض الجزية عليها .وبعد ذلك فتح الأسطول العثماني ميناء "آق كرمان"، ومنها أقلعت السفن الحربية إلى مصاب نهر الدانوب لإعادة الكرّة على بلاد البغدان، بينما كان السلطان يجتاز نهر الدانوب من جهة البر بجيش عظيم، فتقهقر أمامه جيش البغدان، على الرغم من صدّه لعدّة هجمات عثمانية بنيرانه، لعدم إمكانية المحاربة في السهول.

وتبعه الجيش العثماني حتى إذا أوغل خلفه في غابة كثيفة يجهل مفاوزها، انقض عليه الجيش البغداني، فاشتبك مع قوات الإنكشارية التي هزمته شر هزيمة، في معركة أطلق عليها اسم "معركة الوادي الأبيض"، فانسحب "استيفان الرابع" إلى أقصى شمال غربي بلاده، والبعض يقول إنه لجأ إلى المملكة البولندية، حيث أخذ يجمع جيشًا جديدًا.

ولم يستطع السلطان محمد فتح الحصون الرئيسية البغدانية بسبب المناوشات الصغيرة المستمرة التي تعرض لها الجيش العثماني من قبل الجنود البغدان، ولانتشار المجاعة ثم الطاعون بين أفراد الجيش، مما اضطر السلطان لأن يسحب قواته ويعود إلى القسطنطينية دون فتح البلاد.

وفي سنة ١٤٧٧ أغار السلطان على بلاد البنادقة ووصل إلى إقليم "فريولي" بعد أن مرّ بإقليميّ "كرواتيا" و"دالماسيا"، فخاف البنادقة على مدينتهم الأصلية وأبرموا الصلح معه تاركين له مدينة "كرويا"، التي كانت

عاصمة "اسكندر بك" الشهير، فاحتلها السلطان ثم طلب منهم مدينة "إشقودره".

ولمّا رفضوا التنازل عنها إليه حاصرها وأطلق عليها مدافعه ستة أسابيع متوالية بدون أن يُضعف قوّة سكانها وشجاعتهم، فتركها لفرصة أخرى وفتح ما كان حولها للبنادقة من البلاد والقلاع حتى صارت مدينة "إشقودره" منفصلة كليّا عن باقي بلاد البنادقة، وكان لا بد من فتحها بعد قليل لعدم إمكان وصول المدد إليها.

ولذا فضّل البنادقة أن يبرموا صلحًا جديدًا مع السلطان ويتنازلوا عن "إشقودره" مقابل بعض الامتيازات التجارية.

وتمّ الصلح بين الفريقين على ذلك وأمضيت به بينهما معاهدة في يوم ٢٨ يناير سنة ١٤٧٩م، الموافق ٥ ذو القعدة سنة ٨٨٣هـ، وكانت هذه أول خطوة خطتها الدولة العثمانية للتدخل في شؤون أوروبا، إذ كانت جمهورية البندقية حينذاك أهم دول أوربا لا سيما في التجارة البحرية، وما كان يُعادلها في ذلك إلا جمهورية جنوة.

٧

فتح جزر اليونان

بعد أن تم الصلح مع البنادقة، وُجهت الجيوش إلى بلاد المجر لفتح إقليم ترانسلفانيا، فقهرها "كينيس" كونت مدينة "تمسوار" بالقرب من مدينة "كرلسبرغ" في ١٣ أكتوبر سنة ١٤٧٦، وقُتل في هذه الموقعة كثير من العثمانيين وارتكب المجر فظائع وحشية بعد الانتصار، فقتلوا جميع الأسرى ونصبوا موائدهم على جثثهم.

وفي سنة ١٤٨٠ فُتحت جزر اليونان الواقعة بين بلاد اليونان وإيطاليا، وبعدها سار أمير البحر "كدك أحمد باشا" بمراكبه لفتح مدينة "أوترانت" بجنوب إيطاليا، التي كان عزم السلطان على فتحها جميعها. ويُقال إنه أقسم بأن يربط حصانه في كنيسة القديس بطرس بمدينة روما، مقر البابا، ففُتحت مدينة "أوترانت" عنوة في يوم ١١ أغسطس سنة ١٤٨٠م، الموافق ٤ جمادى الثانية سنة ٨٨٥هـ.

وفي هذا الحين كان قد أرسل أسطولاً بحريّاً آخر لفتح جزيرة رودوس، التي كانت مركز رهبنة القديس "يوحنا الأورشليمي"، وكان رئيسها آنذاك "بيير دو بوسون" الفرنسي الأصل، وكانت الحرب قائمة بينه وبين سلطان مصر وباي تونس، فاجتهد في إبرام الصلح معهما ليتفرغ لصدّ هجمات الجيوش العثمانية.

وكانت هذه الجزيرة محصنة تحصيناً منيعاً، وابتدأ العثمانيون حصارها في يوم ٢٣ مايو سنة ١٤٨٠م، الموافق ١٣ ربيع الأول سنة ٨٨٥هـ، وظلّت المدافع تقذف عليها القنابل الحجرية تهدّم أسوارها، لكن كان يُصلح سكانها في الليل كل ما تخربه المدافع في النهار، ولذلك استمر حصارها ثلاثة

أشهر حاول العثمانيون خلالها الاستيلاء على أهم قلاعها، واسمها قلعة القديس نيقولا، بدون جدوى.

وفي يوم ٢٨ يوليو سنة ١٤٨٠م، الموافق ٢٠ جمادى الأولى سنة ٨٨٥هـ، أمر القائد العام بالهجوم على القلعة ودخولها من الفتحة التي فتحتها المدافع في أسوارها، فهجمت عليها الجيوش وقاوم المدافعون بكل بسالة وإقدام. وبعد أخذ وردّ، تقهقر العثمانيون بعد أن قُتل وجُرح منهم كثيرون، ورفع الباقون عنها الحصار.

حصار بلجراد من قبل الجيش العثماني.

إيوان دي هونيدوارا حاكم مملكة المجر(١٤٦٦ - ١٤٥٣) وترانسلفانيا (١٤٤١-١٤٤٦).

فلاد دراكولا الثالث المخزوق الذي حاربه الفاتح

رسم لاسكندر بك من متحف الأوفيزي، فلورنسا.

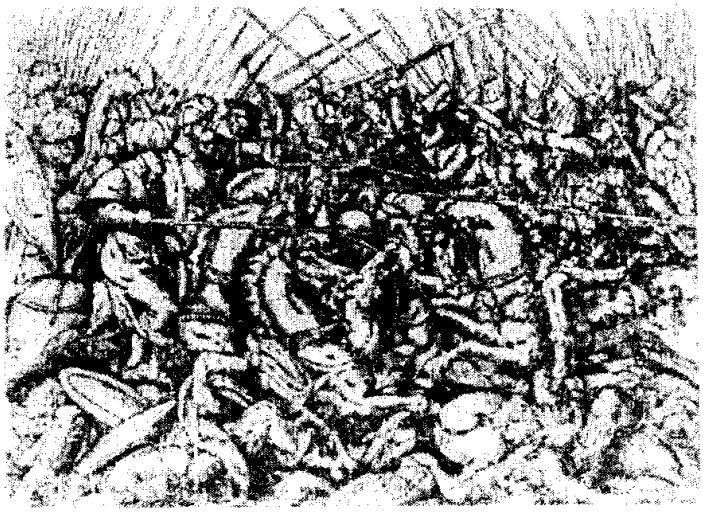

حفر عثماني على خشب يظهر معركة بين قوات اسكندر بك والسلطان محمد الفاتح.

الفرمان الذي أرسله السلطان محمد الثاني إلى أهالي البوسنة الفرنسيسكان ويعبر عن قمة التسامح .

8

الفصل الثامن

محمد الفاتح

ضحية الغدر والخيانة !!

١

يعقوب الطبيب الخائن

كان قصر السلطان العثماني يموج بالحركة والنشاط في الثلث الأخير من شهر أبريل سنة ١٤٨١م.

الوزراء والقواد يجتمعون بالسلطان محمد الفاتح، ويقدمون له التقارير عن وضع الجيش وعن أسلحته وفرسانه وعن أعتدته وحاجاته وأرزاقه.

كان من الواضح أن السلطان مُقبل على حملة جديدة ، حملة جديدة يقودها بنفسه كما هو دأبه على الدوام منذ عشرات السنين.

وفي يوم ٢٥ أبريل عام ١٤٨١م اجتاز السلطان مضيق البوسفور مع حاشيته ووصل إلى "اسكدار" في الضفة المقابلة، وضرب سرادقه في موقع بين "مالتبة" و"كبزة" الحاليتين، وهو الموقع الذي أطلق عليه فيما بعد اسم "سلطان جايري" أي "مرج السلطان".

بدأ السلطان هنا بالاستعداد لحملته الكبيرة لم يكن السلطان يفصح عن وجهة حملته على الإطلاق.. كان تصرفه هذا اتباعًا للسنة النبوية في هذا الأمر، وكان هذا دأبه على الدوام طوال حكمه الذي تجاوز الثلاثين عامًا.. هذا الحكم الطويل الزاخر بالفتوحات الرائعة.

ولكن المؤرخين يخمنون أن هذه الحملة - التي لم تتم أبدًا - كانت موجهة نحو إيطاليا.. لم تتم هذه الحملة لأن السلطان محمد الفاتح شعر في اليوم

التالي بمغص شديد في بطنه.. مغص شديد ألزمه الفراش وجعله يتلوى من الألم.

كان طبيبه الخاص "يعقوب باشا " بجانبه.. أنظار الصدر الأعظم والوزراء مصوبة إليه ترجوه مساعدة السلطان بأدويته الناجعة وهو الطبيب المشهور بحذقه ، ولكن لم تنفع الأدوية التي سقاها إياه الطبيب.. بل ازدادت صحته سوءًا..

وأخيرًا وبعد بضعة أيام فقط توفي السلطان محمد الفاتح.. كان عمره ٤٩ سنة وشهرًا واحدًا وخمسة أيام.. أما مدة حكمه فبلغت ٣١ سنة وشهرين وثمانية وعشرين يومًا.. كان لا يزال في أوج قوته ونشاطه، فكيف مات إذن فجأة وبهذه السرعة ودون أية مقدمات ومن مغص في بطنه؟

تجمعت الشبهات حول طبيبه الخاص "يعقوب باشا". لم يكن هذا الطبيب مسلمًا منذ الولادة.. كان من إيطاليا.. من مدينة البندقية.. كان اسمه الأصلي "ماسترو لاكوب ، أشهر إسلامه بعد أن ادعى الاهتداء.. واتخذ اسم "يعقوب".

كان طبيبًا حاذقًا، لذا سرعان ما ذاعت شهرته في اسطنبول، فاتخذه السلطان محمد الفاتح طبيبًا خاصًا له، وأنعم عليه برتبة الباشوية.

سمع "البنادقة" بهذا الخبر فطاروا فرحًا.. كانوا قد رتبوا قبل هذا ١٤ محاولة لاغتيال السلطان محمد الفاتح.. ولكن لم يوفقوا.. والآن سنحت لهم فرصة ذهبية.. فرصة ذهبية يجب ألا تضيع منهم أبدًا..

اتصلوا به سرًا ووعدوه بمكافأة كبيرة.. كبيرة جدًا.. بلغت بالنقد الحالي ١٧ مليون دولار.

كانت عملية اغتيال السلطان عملية خطرة جدًا.. ولكن المكافأة المالية كانت كبيرة جدًا فلم يستطع مقاومة إغرائها. كان إغراء المال سببًا مهمًا.. ولكنه لم يكن السبب الوحيد.

السبب الآخر المهم هو أن السلطان كان في نظره خطرًا داهمًا على أوربا النصرانية.. ألم يفتح مدينة "القسطنطينية" التي كانت مركز النصرانية وعاصمة إمبراطوريتها لمئات السنين؟ ألم يحول "آيا صوفيا" إلى جامع ؟ ألم يفتح المرفأ الجنوبي "إنز" ؟ ألم يفتح بلاد الصرب وبلاد اليونان وموريا والبوسنة. لذا لم يتردد طويلاً ووافق على اغتيال السلطان.. قرر اغتياله بدس السم له تدريجيًا ليبدو موته طبيعيًا، فيتخلص من الشبهات ومن القتل.. ثم يهرب في فرصة مناسبة ويقضي بقية حياته في بحبوحة من العيش. وهكذا كان.. فقد بدأ يدس السم له بشكل تدريجي.. ولكن ما إن رأى أنه يستعد لحملة جديدة ضد أوربا، حتى زاد من كمية السم الذي قضى على حياة السلطان محمد الفاتح.

ما إن انفضح دور هذا الطبيب القاتل الذي خان الأمانة وارتكب هذه الجريمة النكراء ضد شخص أحسن إليه وأغرقه بالهدايا والعطايا ، وكان من المفروض أن يحرص على صحته وعلى حياته ولا يغدر به هذا الغدر البشع، ما إن انفضح دوره حتى تناوشته سيوف حرس السلطان فقتل في الحال. قُتل الطبيب الغادر ولم تسنح له الفرصة للتمتع بالمكافأة.

أما البنادقة فلم يصلهم الخبر إلا بعد ١٦ يومًا.. جاء الخبر عن طريق الرسالة التي حملها البريد السياسي لسفارة البندقية في إسطنبول.. كانت الرسالة تحتوي على هذه الجملة التاريخية: "لقد مات النسر الكبير ".

وانتشر الخبر في مدينة البندقية بسرعة، ثم في المدن الأوربية الأخرى، وبدأت الكنائس تدق أجراسها مستبشرة فرحة.. لقد مات النسر الكبير.. استمرت الكنائس في أوروبا تدق أجراسها لمدة ثلاثة أيام بأمر من البابا.

٢

وصية الفاتح الأخيرة

هذه وصية محمد الفاتح لابنه وهو على فراش الموت ، والتي تعبر أصدق التعبير عن منهجه في الحياة، وقيمه ومبادئه التي آمن بها والتي يتمنى من خلفائه من بعده أن يسيروا عليها:

"ها أنذا أموت، ولكني غير آسف لاني تارك خلفاً مثلك. كن عادلاً صالحاً رحيماً ..

وابسط على الرعية حمايتك بدون تمييز، واعمل على نشر الدين الإسلامي..

فإن هذا هو واجب الملوك على الأرض، قدم الاهتمام بأمر الدين على كل شيء..

ولا تفتر في المواظبة عليه، ولا تستخدم الأشخاص الذين لا يهتمون بأمر الدين.. ولا يجتنبون الكبائر وينغمسون في الفحش، وجانب البدع المفسدة..

وباعد الذين يحرضونك عليها.. وسع رقعة البلاد بالجهاد واحرس أموال بيت المال من أن تتبدد..

إياك أن تمد يدك إلى مال أحد من رعيتك إلا بحق الإسلام، واضمن للمعوزين قوتهم..

وابذل إكرامك للمستحقين ..

وبما أن العلماء هم بمثابة القوة المبثوثة في جسم الدولة، فعظم جانبهم وشجعهم ..

وإذا سمعت بأحد منهم في بلد آخر فاستقدمه إليك وأكرمه بالمال..

حذار حذار لا يغرنك المال ولا الجند، وإياك أن تبعد أهل الشريعة عن بابك..

وإياك أن تميل إلى أي عمل يخالف أحكام الشريعة ..

الدين غايتنا ، والهداية منهجنا وبذلك انتصرنا..

خذ مني هذه العبرة..

حضرت هذه البلاد كنملة صغيرة، فأعطاني الله تعالى هذه النعم الجليلة..

فالزم مسلكي، واحذ حذوي ، واعمل على تعزيز هذا الدين وتوقير أهله ولا تصرف أموال الدولة في ترف أو لهو، واكثر من قدر اللزوم فإن ذلك من أعظم أسباب الهلاك" .

وهكذا وبعد ثلاثين سنة من الحروب المتواصلة للفتح وتقوية الدولة وتعميرها، رحل السلطانُ محمد الفاتح في ٤ ربيع الأول ٨٨٦ هـ/ مايو ١٤٨١م في أُسكُدار في معسكره وبين جنوده، إذ كان قد أعد في هذه السنة إعداداً قويّاً لحملة لا يعرف اتجاهها لأنه كان شديد الحرص على عدم كشف مخططاته العسكرية حتى لأقرب وأعز قواده.

وقد قال في هذا الصدد عندما سئل مرة: " لو عرفته شعرة من لحيتي لقلعتها ".. رحم الله السلطان الفاتح الذي قال عنه الرسول صلى الله عليه وسلم: "لَتُفْتَحَنَّ القسطنطينيةُ، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش".

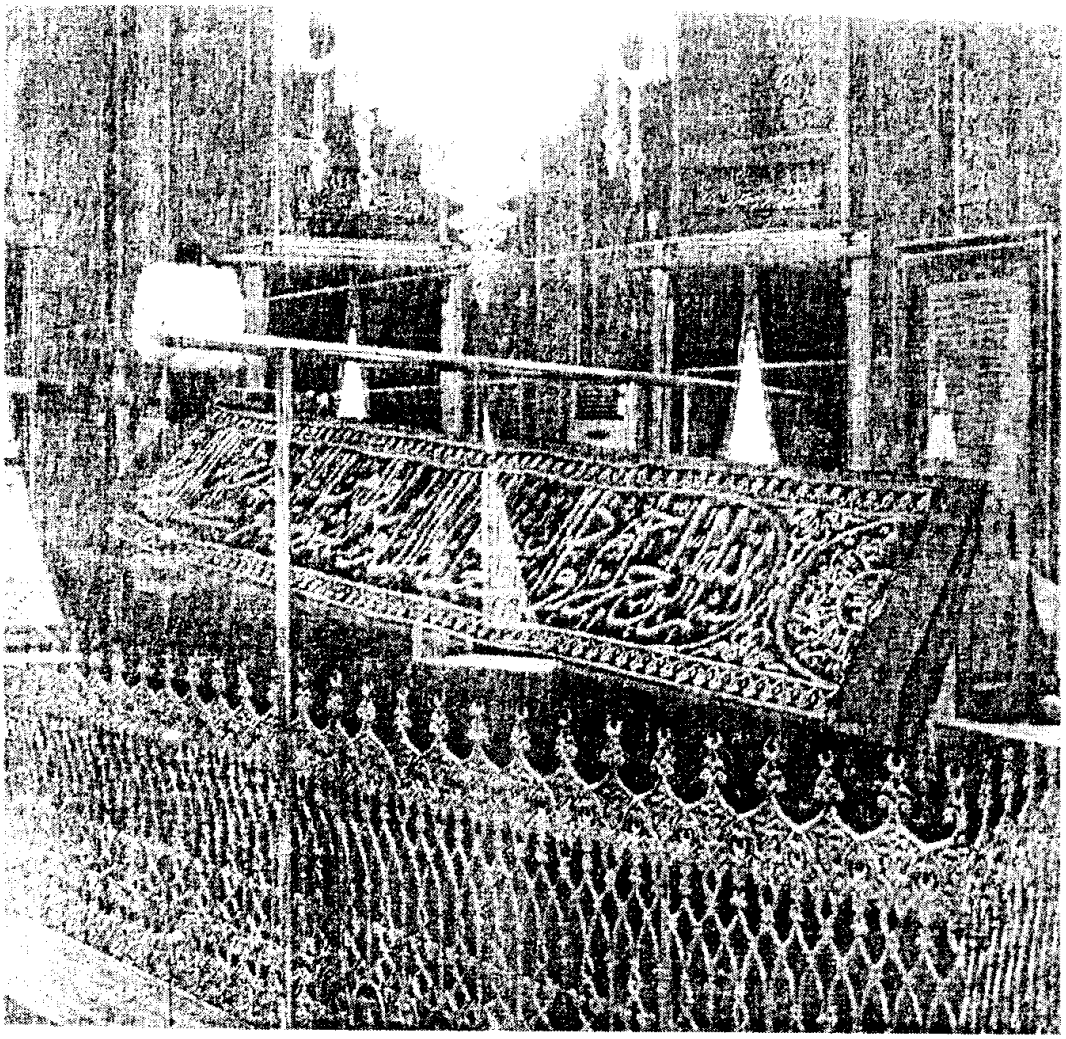

قبر السلطان محمد الفاتح

9

الفصل التاسع

محمد الفاتح

في ميزان التاريخ

محمد الفاتح في ميزان التاريخ

يشهد تاريخ محمد الفاتح على بعد الرؤية للخلافة الإسلامية العثمانية وذلك على عكس ما يحاول البعض الترويج له وهو ما حاكته خطط الاستعمار البريطاني إبان الحرب العالمية الأولى، والتي تلاعبت بفكرة القومية العربية لتنال وتشوه تاريخ الخلافة العثمانية وهو ما تطور فيما بعد إلى مساندة تشكيل الجامعة العربية مع وضع جميع العراقيل أمام احتمال نجاحها.

وتشهد الفتوحات الإسلامية في عهد الخلافة العثمانية وقوة الدولة من الناحية العسكرية والإدارية على بعد الرؤية لهذه الخلافة حيث يعتبر محمد الفاتح والذي كان على رأس الدولة ذا فكر استراتيجي شامل وإن ما حققه الفاتح من انتصارات متتالية كانت مجرد لبنة من عملية متعددة الأبعاد لوضع قواعد راسخة ، قامت على أعمدتها خلافة إسلامية ترامت أطرافها شرقا وغربا ، وعوضت خسارة المسلمين الفادحة بضياع الأندلس.

وتكشف دراسة شخصية الخليفة الإسلامي محمد الفاتح ، باعتباره أحد البناة الكبار في تاريخ الإسلام ، مدى بشاعة التشويه المتعمد الذي تعرض له تاريخ الخلافة العثمانية والدولة العثمانية ، والذي سعى الاستعماريون إلى تسويق النظر لفتوحاتها باعتبارها احتلالا وليست فتحا وتدعيما لدولة الخلافة. ونظرة هؤلاء تنبع من منظور إقليمي ضيق، تحول حاليا الى منظار قطري أكثر ضيقا، يصنف ذلك الفتح كصراع بين قوميتين (عربية وتركية)، رافضا وضعه ضمن سياقه الإسلامي والأوسع والطبيعي.

وتتبدى رؤية محمد الفاتح الشاملة بأوضح ما تكون في اعتماده على

الإمكانات والموارد التي تكونت للخلافة الإسلامية عبر مراحل زمنية متتالية، وذلك من أجل بناء دولة ثابتة الأركان وقادرة على البقاء والتوسع والصمود.

وصب محمد الفاتح معظم جهده على ترسيخ رؤية إستراتيجية واسعة ومن خلال التفكير العلمي والإداري المنظم داخل مختلف أجهزة دولة الخلافة العثمانية ، وذلك عبر أطر متعددة يقوم كل منها بعمل محدد الخطوات، وفي نهاية هذا الهرم الإداري المحكم يأتي ما يسمى بـ "الديوان "، والذي يعتبر بمثابة مجلس إدارة يومي لشؤون البلاد حيث يجتمع فيه المستشارون قبل ظهر كل يوم ما عدا أيام العطلات الرسمية ، وكان هذا المجلس الإداري يتألف من رئيس الوزراء ، والوزراء ، والقضاة ، وقاضي إسطنبول ، وآغا الإنكشارية ، وبعض كبار رجال الدولة بحكم مناصبهم.

وتكشف القراءة العميقة لمعركة فتح القسطنطينية، وما أحاط بها من تمهيدات وملابسات وما تلاها من تداعيات، مدى وضوح الرؤية الإستراتيجية لمحمد الفاتح ، ليس فقط في إدارة المعركة العسكرية، ولكن على مستوى التفكير الشامل بمستوياته المتعددة.

ففتح القسطنطينية كان بمثابة قمة الجبل الطافية لبناء عسكري ضخم، نجح محمد الفاتح في إقامة أركانه على أسس علمية واضحة، وذلك في أول ظهور لما بات يسمى حاليا بـ " العلوم العسكرية" . فقد قام محمد الفاتح بتدعيم الصناعات العسكرية المساندة ، التي تعمل على سد احتياجات الجيش من الملابس والسروج والدروع ومصانع الذخيرة والأسلحة ، ورغم أن هذه الصناعات كانت معروفة من قبل، إلا أن محمد الفاتح كان من أوائل من فطنوا إلى الأهمية الإستراتيجية لتلك الصناعات ومنحها ما تستحقه من جهد منهجي مخطط.

وفيما يتعلق بالبنية العسكرية المباشرة ، أقام محمد الفاتح القلاع

والحصون في المواقع ذات الأهمية الإستراتيجية ، كما أعاد توزيع الجيش وخاصة فرق المشاة وفرق الدعم اللوجستي والتي تقوم بإمداد المتحاربين بصناديق الذخيرة في ميدان القتال . وظهرت للمرة الأولى فرق من الجنود أطلق عليها اسم " لغمجية "، مهمتها زرع الألغام وحفر الأنفاق تحت الأرض أثناء محاصرة القلعة المراد فتحها.

وربط محمد الفاتح بين العلوم العسكرية والعلوم الطبيعية الأخرى حيث أنشأ جامعة عسكرية لتخريج المهندسين والأطباء البيطريين وعلماء الطبيعيات والمساحة للاستفادة من علومهم في الحروب والمعارك. وكان للتعليم ، بمفهومه الشامل ، أهميته عند محمد الفاتح حيث أنشأ العديد من المؤسسات العلمية لتخريج العلماء خصوصاً في العلوم الطبيعية والهندسية، مستفيدا في ذلك من التطور الذي حققته الخلافة الإسلامية في مجال العلوم الطبيعية.

وإذا ما انتقلنا إلى الإدارة العسكرية لمعركة فتح القسطنطينية ، نجد أن محمدا الفاتح درس بداية تجارب من سبقوه من القادة العسكريين الإسلاميين إلى فتح القسطنطينية درة الإمبراطورية البيزنطية وقلبها النابض . فرغم أن القسطنطينية من الناحية الجغرافية العسكرية تقع في وسط أملاك الإمبراطورية العثمانية الإسلامية ، ورغم أن جيشه يعادل عشرة أضعاف القوات البيزنطية عدداً إلا أنه لم يأخذ القرار بمهاجمة المدينة رغم أن المفردات العسكرية التي بين يديه تكفل ذلك القرار ، ولكن الصورة كانت تحتمل أشياء أخرى وآفاقًا أبعد.

فمحمد الفاتح كان يدرك تماما أن المعركة لن تكون هيِّنة فالقسطنطينية هي قلب بيزنطيا ومركز أهم كنائسها في هذه الفترة ولها موقعها الإستراتيجي الفريد ، الذي تهيأت له وسائل الحماية الطبيعية (البريّة والمائية) ، فقد كانت مصانة بخليج البسفور من الشرق والشمال ، وامتدت من جهة الغرب لتتصل بالبر، وتمتد أبراجها وحصونها بعرض يصل إلى ٣٠

ذراعًا . ومن ناحية أخرى فإن القسطنطينية كانت تعتبر طيلة عشرة قرون معقلاً للنصرانية وثبتت أمام ٢٩ حصارًا . وقد زاد من صعوبة مهمة مهاجمي المدينة نجاح البيزنطيين في اختراع سلاح جديد هو "النار الإغريقية"، وهى عبارة عن مزيج كيميائي من الكبريت والنفط والقار، مما جعل من الميسور الدفاع عنها بقوّات صغيرة نسبة لقوات المهاجمين.

اعتمد محمد الفاتح في تخطيطه المسبق لفتح القسطنطينية على قاعدة إستراتيجية هامة مفادها : أن المعارك الفاصلة لا يحسمها العنصر البشري إن لم يكن مدعوما بالأسلحة والأدوات العسكرية. ولذا فإنه طلب من العلماء العسكريين صنع سلاح جديد يسهل من التهديم الجزئي لأسوار القسطنطينية دون أن يأخذ ذلك جهدًا زائدًا عن الحد وبالفعل صنع المسلمون أقوى وأضخم مدفع في العالم - فى ذلك الوقت.

ورغم أن صنع هذا المدفع منح جيش المسلمين قوة عسكرية هامة، إلا أن استخدامه في المعركة أظهر مدى عبقرية القيادة العسكرية لمحمد الفاتح، والتي تعد تطبيقًا رائعًا لاستراتيجية الهجوم غير المباشر التي أشاد بها المخطط الإستراتيجي الشهير ليدل هارت في كتابه " الإستراتيجية وتاريخها في العالم "، والتي تهدف الى مفاجأة الخصم من ناحية غير متوقعة ، حيث يعتبر هارت أن الإخلال بتوازن العدو قبل محاربته ، نفسيًا وماديًا ، هو المقدمة التي لا غنى عنها لتدميره والقضاء عليه .

وإذا ما طبقنا تلك الإستراتيجية نجد أنه رغم قوة المدفع فإن محمدا الفاتح لم يستخدمه في دك أسوار المدينة القوية ، ولكنه اعتمد تكتيك التهديم الجزئي للأسوار وإنهاك الأعداء في بناء ما تهدم من الأسوار. وكما أن الخليفة العثماني اعتبر أن الهدف من استخدام هذا المدفع هو الجانب النفسي حيث يثير هذا المدفع الذي تجره عشرات الثيران الهلع في قلوب جنود الأعداء خلف الأسوار ويرفع من معنويات المسلمين .

ورغم أن الحصار يعد من أساليب الهجوم العتيقة في العمل العسكري، إلا أن الحصار الذي فرضه محمد الفاتح على القسطنطينية اعتمد بشكل رئيسي على إستراتيجية الهجوم غير المباشر، وهنا تبدو العبقرية العسكرية لهذا القائد المسلم ، حيث اعتمد على أساليب الحرب الاستنزافية واستنزاف العدو ماديا وعسكريا وليس كما كان سائداً في فترات سابقة بأن الحصار هو قطع الإمدادات عن المدينة المحاصرة حتى تستسلم. إنما اعتمد محمد الثاني على المدفعية الثقيلة التي كانت تقصف أسوار القسطنطينية ويهاجمها المسلمون نهاراً ويستريحون ليلاً وذلك كان له غايتان عسكريتان استراتيجيتان أولاهما استنزاف العدو حيث كانت أسوار المدينة القوية عبارة عن سورين دائرين يبلغ عرض الأول ١٥ ذراعا والثاني ٣٠ ذراعا يفصلهما مجرى مائي وكانت هذه الأسوار تهدم جزئياً وتبنى ليلاً وهكذا أنهك محمد الفاتح جنود العدو .

واعتمد محمد الفاتح أيضا، على الحرب النفسية كطريقة فعالة لتثبيط الروح المعنوية للمدافعين عن المدينة ، وذلك من خلال المدفع العملاق بالإضافة إلى إدامة زخم الهجوم، برّاً وبحراً، مما أنهك قوة المحاصَرين. وعلى الجانب الآخر ، اهتم محمد الفاتح برفع معنويات جنوده ، وعي المهمة التي قام بها الشيوخ والعلماء ، من خلال تحميس الجنود وبث روح الجهاد في نفوسهم.

وفي مزج رائع بين العلوم الطبوغرافية والعسكرية ، تمكن محمد الفاتح من الاستفادة من المجاري المائية التي كانت تشكل عائقاً للمسلمين وحماية للبيزنطيين في تطويق المدينة والاستفادة أكثر في الاستعداد للهجوم حيث قام بنقل السفن من البسفور إلى القرن الذهبي عن طريق البرّ لمسافة قدرت بثلاثة أميال عن طريق حمل السفن على ألواح خشبية دُهنت بالزيت والشحم ، ورُصفت على الطريق ، مما سهّل انزلاق السفن عليها ، وقد تمّ

ذلك خلال ليلة واحدة، نقل خلالها (٧٠) سفينة ، ورافق ذلك قصف شديد بالمدفعية لأسوار القسطنطينية ، كي لا ينتبه الروم لنقل السفن

وكان لهذه الخطوة المفاجأة الإستراتيجية أثر بالغ في تفعيل الجوانب النفسية وإرباك خطوط دفاع القوات البيزنطية .

ومن المبادئ الأخرى هى اعتماد عنصر المفاجأة واستباق العدو في الهجوم من الجهة التي يأمنها وهو ما قام به القائد الفاتح محمد الذي عمد مفاجأة عدوّه بحفر أنفاق تحت أسوار القسطنطينية باتجاه داخل المدينة ، حيث أصاب الروم من جراء ذلك خوف ، بالإضافة إلى فكرة نقل السفن التي تمت الإشارة إليها وهو ما قطع خطوط الاتصال على القوات التي تهاجم على الأسوار وضغط عليها على طريقة الكماشة ومنع في الوقت نفسه من الدعم الشعبي لهذه القوات حيث صار الهلع في أنحاء المدينة وصاروا يتخيلون أن الأرض ستنشق من تحتهم ويخرج منها جند الإسلام .. وفتحت القسطنطينية.

ليس هناك شرف أسمى ولا أغلى من إطراء رسول الله صلى الله عليه وسلم وثنائه،...والفاتح هو الوحيد في عهد القرون المتأخرة الذي نال هذا الشرف،فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه وفي جيشه: (لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش)، فكان كما أخبر صلى الله عليه وسلم نعم الأمير، وكان جيشه نعم الجيش.

ولم يحظ أحد من القادة المسلمين، ومن سلاطين آل عثمان على وجه التحديد بمثل ما حظي به محمد الفاتح رحمه الله من مجد وسؤدد وشهرة، أطلق عليه المؤرخون المسلمون لقب أبي الفتح لكثرة فتوحاته التي شملت أراضيَ تابعة لسبع عشرة دولة، وأطلق عليه المؤرخون الأوربيون لقب السيد العظيم لسماحته وعفوه وأخلاقه الفريدة مع الخصوم والأعداء.

وعد رسول الله لا يتخلف، وخبره لابد وأن يتحقق، فعلى مدى عشرة

قرون متتالية ظلت هذه المدينة الحصينة المنيعة معقلا للنصرانية، يصد عنها الأخطار، ويحميها من الغزاة والفاتحين،كذلك كانت مسرحا للمؤامرات والكيد للمسلمين وخاصة في عهد الدولة العثمانية، وقد حاول قادة كثيرون على مدار التاريخ الإسلامي حصار هذه المدينة العاتية العنيدة ودخولها فلم يفلحوا، وتم حصارها أكثر من عشرين مرة،من ذلك حصار معاوية بن أبي سفيان عام٣٤ هجرية،٦٥٤ ميلادية، وحصار يزيد بن معاوية، وهو الحصار الذي استشهد فيه الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري، وحاصرها سفيان بن أوس، وحوصرت في عهد عمر بن عبد العزيز، وهارون الرشيد وغيره،ومن العثمانيين حاصرها بايزيد الأول والسلطان مراد الثاني، إلا أن حلم الفاتحين الذى ظل يراودهم أكثر من ألف عام لم يتحقق..إلا على يد السيد العظيم - كما أطلق عليه الأوربيون- وبذلك تحققت بشارة النبي صلى الله عليه وسلم: (لتفتحن القسطنطينية)، وكان هذا الحدث فاصلا في تاريخ البشرية حتى أن الأوربيين يؤرخون لنهاية العصور الوسطى وبداية العصر الحديث بيوم ٢٥مارس ١٤٥٣م أي يوم سقوط القسطنطينية في أيدي المسلمين.

يقول عنه المؤرخ المصري بن إياس: "السلطان المعظم المفخم المجاهد المغازى، ملك الروم وصاحب القسطنطينية العظمى،وهو محمد بن مراد بن عثمان، وكان ملكا جليلا عظيما ساد على بني عثمان كلهم، وانتشر ذكره بالعدل في سائر الآفاق، وحاز الفضل والعلم والكرم الزائد وسعة المال وكثرة الجيوش والاستيلاء على الأقاليم الكفرية وفتح الكثير من حصونها وقلاعها. "، ويقول عنه السخاوي: "محمد بن مراد بك بن محمد بك بايزيد ابن مراد بن أرخان بن عثمان، صاحب بلاد الروم الذى صار كرسي مملكته قسطنطينية بعد فتحه لها، اقتفى أثر أبيه في المثابرة على دفع الفرنج، بحيث فاق مع وصفه بمزاحمة العلماء ورغبته في لقائهم وتعظيم من يرد عليه منهم، وله مآثر كثيرة من مدارس وزوايا وجوامع"، و يصفه المؤرخ

التركي علي همت بركى بقوله: "كم كان عظيما وكم كان عادلا رحيما، فيه رقة وشفقة "، ويقول المؤرخ التركي أحمد رفيق: "وكانت الغاية المنشودة لسلاطيننا العثمانيين أن يخدموا الإسلام بسيوفهم،وقد كانت الأحاديث النبوية الواردة في فضل الجهاد والمثوبة الموعود بها المجاهدون حفزتهم إلى الجهاد وكانوا في غزواتهم وحروبهم يرعون دين عدوهم ويصونون أزواجهم وأموالهم وأعراضهم،وللسلطان الفاتح قصب السبق في هذا المضمار".

ولم تقتصر عظمة الفاتح فقط على ميدان القتال بل امتدت لتشمل ميادين الثقافة والعلوم والآداب والمعرفة، فأنشأ المساجد والمدارس، وأولى العلم والعلماء رعاية خاصة وكان رحمه الله صاحب نفس طموح وهمة وثابة وروح متألقة، وكانت له نظرية خاصة في الإدارة وتنظيم الملك،وقد ضرب به المثل في سماحته وحسن معاملته لأهل العقائد الأخرى، فكان بحق كما نظر إليه أحد المؤرخين باعتباره "أميرا كاملا"، فاستحق ثناء النبي الكريم عليه قبل قرون: (فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش).

لم يتردد جندي واحد عندما طلب الفاتح من جيشه الاستعداد للحصار ثم الهجوم على القسطنطينية، بل أبدوا جميعا سعادتهم وحماستهم، وعندما خطبهم الفاتح وتلا عليهم آيات القرآن والأحاديث المبشرة بفتح هذه المدينة، قائلا: " إذا تم لنا فتح القسطنطينية تحقق فينا حديث من أحاديث رسول الله ومعجزة من معجزاته،وسيكون من حظنا ما أشاد به هذا الحديث من التمجيد والتقدير، فالظفر العظيم الذي سنحرزه بإذن الله سيزيد الإسلام قدرا وشرفا، فاجعلوا تعاليم شريعتنا الغراء نصب أعينكم، فلا يصدر عن أحد منكم ما يجافي هذه التعاليم ولتتجنبوا الكنائس والمعابد ولا تمسوها بأذى، ودعوا القسس والرهبان والضعفاء والعجزة الذين لا يقاتلون، وليبلغ من سمع منكم من لم يسمع"، وتلا العلماء آيات الجهاد في سبيل الله، وما أعد الله للمجاهدين من حسن الجزاء ثم قالوا لهم: "لقد نزل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عند هجرته إلى المدينة في دار أبي أيوب الأنصاري،

وقد قصد أبو أيوب رضي الله عنه إلى هذه البقعة"، فالتهب حماس الجنود وثارت حميتهم الإسلامية، وسجدوا لله يدعونه أن يتم لهم النصر، وتعالت صيحات الجند مدوية مجلجلة تشق عنان السماء: الله.. الله ..لا إله إلا الله ..محمد رسول الله.

يقول رئيس أساقفة القسطنطينية ليونار الذي شهد هذا المنظر الرائع بعينيه إذ كان في القسطنطينية مع المحصورين:" لو أنك سمعت مثلنا صيحاتهم المتوالية المتصاعدة إلى السماء: " لا إله إلا الله محمد رسول الله لأخذتك الروعة والإعجاب".

الصورة "الرسميّة" للسلطان محمد الفاتح، الموضوعة ضمن صور قائمة السلاطين العثمانيين، والتي غالبا ما توضع في الكتب الأوربية التي تتحدث عنه.

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

- كتاب عهد محمد الثاني : انقراض الإمبراطورية الشرقية - إدوارد جيبون.
- كتاب تاريخ الدولة العثمانية أسباب النهوض وأسباب السقوط - علي محمد الصلابي.
- كتاب الدولة العثمانية والمسألة الشرقية - محمد كمال الدسوقي.
- كتاب تاريخ الدولة العثمانية وحضارتها- محمود السيد .
- كتاب محمد الفاتح- محمد سالم الرشيد.
- كتاب فتح القسطنطينية بقيادة محمد الفاتح - د. شوقي أبو خليل
- السلطان محمد الفاتح الداهية صاحب الأفكار وفاتح القسطنطينية - دراسة - محمد السيد
- محمد الفاتح صاحب البشارة-إسلام أون لاين- ٢٧ مايو , ٢٠٠١
- السلطان محمد الفاتح - موقع عثمان أون لاين.
- كتاب السلطان محمد الفاتح بطل الفتح الإسلامي في أوروبا الشرقية، د. سيد رضوان علي.
- كتاب أوروبا في العصور الوسطى- سعيد عاشور.
- كتاب فتح القسطنطينية وسيرة السلطان محمد الفاتح، د.محمد مصطفى.

- كتاب الكامل - ابن الأثير.

كتاب تاريخ الدولة العثمانية - د. علي حسون.

- كتاب تاريخ الدولة العلية العثمانية- محمد فريد بك.

-كتاب فتح القسطنطينية- محمد صفوت.

- كتاب السلطان محمد الفاتح- عبدالسلام فهمي.

- كتاب تاريخ سلاطين آل عثمان -يوسف آصاف.

- تاريخ الدولة العثمانية - يلماز أوزيونا.

- كتاب المصوّر في التاريخ- شفيق جحا

- كتاب الفتوح الإسلامية عبر العصور- د. عبد العزيز العمري.

- كتاب السلطان محمد الفاتح - زياد أبو غنيمة .

- تاريخ الترك في آسيا الوسطى- بارتولد - ترجمة أحمد العيد .

- محمد الفاتح رئيس دولة بدرجة إستراتيجي شامل - أيمن حسونة - وكالة الأخبار الإسلامية .

- محمد الفاتح السيد العظيم وفتح القسطنطينية - هشام النجار .

فهـــــرس الكتـــاب

المحتويات

الموضوع	الصفحة
تقديم	٥
الفصل الأول	٧
من عثمان بن أرطـغرل	٩
حتى محمد الفاتـــح ..	
الفصل الثاني	٣٥
مولد وطفولة قائد عظيم	٣٥
اسـمه محمد الفـاتح	
- آق شمس الديـــن	٤٥
مُعلِّم الفاتح الأكبـــر	
- أحمد بن إسماعيل الكوراني	٥٥
- المستشار والناصح الأمين	
الفصل الثالث	٦١
شخصيـة الفـاتح	٦٣
ومشروعه الحضاري	
الفصل الرابع	٧٧
قصـــة البشـــارة	٧٩
الفصل الخامس	٩٥
- فتح القسطنطينيـة	٩٧
- الإعـــداد للفتـح	٩٧

الموضوع	الصفحة
- الهجـــوم الكبيـــر	١٠٠
- مفاوضات مع قسطنطين	١٠٣
- عزل قائـــد الأسطـــول	١٠٤
- عبقرية عسكرية فـــذة	١٠٥
- مفاجأة عسكرية كبـرى	١٠٨
- المفاوضات الأخيـــرة	١٠٩
- اللحظة التاريخيـــة	١١١
الفصل السادس	١١٩
أوراق مـــن دفاتر الفتـــح	١١٩
١	
الفتح يعيد تشكيل العالم	١٢١
٢	
رسالة الفاتح إلى شريف مكة	١٢٨
٣	
تســـــامح المنتصـــــر	١٣١
٤	
السلطـــــان العـــادل	١٤٤
٥	
رجـــل الدولة المستنيـــر	١٤٦

الموضوع	الصفحة
٦	
أشهـــر خطـــة عسكريـــة	١٥٤
٧	
سلاح جديد اسمه المدفعيـــة	١٥٧
٨	
محمـــد الفاتـــح	١٦٤
افتـــراءات وأكـــاذيب	
٩	
مواقف من حياة الفاتـــح	١٦٩
١٠	
من أقـوال مـحـمـد الفـاتح.....	١٧٢
الفصل السابع	١٨٥
مزيـــد مـــن الفتوحـــات	١٨٧
١	
فتـــح بـــلاد مـــوره	١٨٩
٢	
توحيـــد الأنـــاضول	١٩١
٣	
قتـــال فـــلاد المخوزق	١٩٢

الموضوع	الصفحة
٤	
فتح البوسنة	١٩٤
٥	
فتح إمارة قرمان	١٩٧
٦	
محاربة البغدان	١٩٩
٧	
فتح جزر اليونان	٢٠٢
الفصل الثامن	٢٠٩
محمد الفاتح	٢٠٩
ضحية الغدر والخيانة !!	
١	
يعقوب الطبيب الخائن	٢١١
٢	
وصية الفاتح الأخيرة	٢١٤
الفصل التاسع	
محمد الفاتح في ميزان التاريخ	٢١٩
مصادر ومراجع	٢٢٩
الفهرس	٢٣٣